الجمعية التاريخية

حمص ـ سورية

سلسلة الندوات

- ندوة حمص الأثرية والتاريخية الأولى
- سبعة قرون على خروج الصليبيين من بلاد الشام



إشبيلية
للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق ـ سورية


الندوة التاريخية والأثرية لحمص
تشرين الثاني ١٩٨٤

ندوة حمص

الأثرية والتاريخية الأولى

من ٢٦ - ٢٩ / ١١ / ١٩٨٤

شارك في الندوة :

١ - ماجد الموصلي
٢ - الدكتور شاكر مطلق و الدكتور سامي سحلول
٣ - بشير زهدي
٤ - محمود السباعي عضو الجمعية التاريخية
٥ - الدكتور علي أبو عساف
٦ - منذر حمودي عضو الجمعية التاريخية
٧ - محمد فيصل شيخاني عضو الجمعية التاريخية
٨ - رياض البدري

مقدمة

تتشرف مدينة ابن الوليد أن تقيم الندوة الأثرية التاريخية الأولى بالتعاون بين المركز الثقافي العربي والجمعية التاريخية ومديرية الآثار ومن قبل اللجنة الثقافية لمجلس محافظة حمص وباشرافها . كما يسرها أن تنعقد هذه الندوة في غمرة احتفالات شعبنا العربي بالذكرى الرابعة عشر لقيام الحركة التصحيحة المباركة التي قادها الرفيق المناضل حافظ الأسد الذي دعم الحركة العلمية في قطرنا العربي السوري باقامة مختلف الفروع العلمية في الجامعات الحديثة والمعاهد والمكتبات .

ولن نطيل عليكم ففي أبحاث ندوتنا الأثرية / التاريخية الشيء الكثير عن تاريخ حمص وآثارها ونترك الحديث لزملائنا الكرام المحاضرين ليزودونا بشيء من دراساتهم وخبراتهم .

المجلس الاداري للجمعية التاريخية

بحمص

الطوبوغرافية التاريخية
للمدن القديمة في وسط سورية

ماجد الموصلي

يساعد في عملية البحث عن المدن والممالك القديمة وتحديد موضعها الجغرافي حقلان من حقول العلوم الإنسانية ، اللغات السامية القديمة أولاً وعلم الآثار والتنقيب ثانياً .

عرفت عملية البحث تلك بما يسمى بالطوبوغرافية التاريخية وهي إحدى مجالات الدراسات والدراسات المقارنة في علم الآثار واللغات القديمة .

سنتطرق في حديثنا هذا إلى معالجة بعض المعلومات المتعلقة بالطوبوغرافية التاريخية لمناطق وسط سورية .

اهتم علماء الآثار والباحثون في حضارات سورية القديمة منذ مطلع القرن الماضي بالبحث عن أوابد المدن التي ازدهرت عبر التاريخ الحضاري

وغابت بعدها عن مسرح التاريخ وأضحت أطلالاً أو خرائب أوتلالاً أثرية . لقد احتفظ منها فقط النذر القليل بأسمائها الأصلية مثل تدمر ، وعرفت أسماء أخرى لتلك المدن الآبدة من وثائق اكتشفت عن طريق التنقيب الأثري ، لكن مواضعها أضحت منسية وبل مجهولة . كما وأن الوثائق الكتابية الأثرية زودتنا بأسماء مدن وقرى اختفت تماماً وحتى أسماؤها كنا نجهلها قبل عشية كشفها .

نحت الطوبوغرافية التاريخية التي استهدفت تحديد المواضع الجغرافية للمدن والأوابد القديمة في اتجاهين ضمن نطاق علوم الآثار واللغات القديمة . والوثائق التاريخية هي أولاً :

الطوبوغرافية التاريخية للمدن والقرى التي يعود تاريخ نشأتها أو ازدهارها إلى العصور الكلاسيكية (العصور الهلنستية والرومانية والبيزنطية) وثانياً : الطوبوغرافية التاريخية للعصور المسماة بالعصور الشرقية أي لتلك التي سبقت العصر الهلنستي .

تعرف الطوبوغرافية التاريخية للعهود الكلاسيكية باسم إيتينيراريوم – Itinerarium أو كتب الرحلات . لدينا في علم الآثار من تلك المصادر ال نوتيتيا ديغينيتاتوم (Notitia Diginitatum) و ال باتروم نيسينورم (Patrmo Nicaenorum) و ال ايتينيراريوم انتونيني اوغستي (Itinerarium Antonini Augusti) (وجغرافية كلاودي بطوليمايي (Claudi Ptolemaei) وجيورجي تسيبريي ديسكر يبتي اوربيس روماني (Gerogii Cyprie Descriptio Orbis Romani) .

كان من رواد البحث في تلك المصادر الأساتذة مارتين هارتمان الذي كتب عدة أبحاث حول Syrisd Shope الصحراء السورية

وأوابدها القديمة و ب ، موريتس الذي كتب عن الطوبوغرافيا التاريخية لتدمر ومناطقها وأخيراً الأستاذ رينيه دوسو الذي نشر كتابه الشهير (طوبوغرافية سورية القديمة) . هناك أيضاً أعمال جليلة أخرى قدّمها مثلاً الأستاذ موتارد حول الطرق الرومانية المنطلقة من قنسرين (خالسيس) إلى أوجاء ما يعرف باسم (Koily Eupia) أي اقليم سورية في العصر الروماني .

اعتمد هؤلاء الدارسون في التحقق وتحديد المواضع الجغرافية للمدن من العصور الكلاسيكية على مصادر الجغرافيين والاخباريين العرب .

أما المصادر التاريخية الوثائقية المتعلقة بالعصور الشرقية فتقسم إلى :

أولاً : المصادر المصرية

يأتي أرشيف تل العمارنة أو ما يعرف باسم رسائل تل العمارنة في مقدمة المصادر المصرية الهامة . هناك أيضاً حولية تحوتمس الثالث في سنة حكمه الثالثة والعشرين ، وقد حققها فولفجانج هيلك وحوليته من سنة حكمه الثلاثين ووثائق أمنوفيس الثاني من معبد آمون والكرنك والكتابات الهيروغليفية المنقوشة على اللوحات والنصب التذكارية وخاصة تلك التي تعود إلى عهد حكم الفرعون سيتي الأول ورعمسيس الثاني .

ثانياً : المصادر الحثية وأهمها أرشيف بوغازسكوى .

ثالثاً : المصادر الآشورية وأهمها أرشيف نينوى ونمرود .

رابعاً : المصادر الآرامية وأهمها نصوص السفيرة وكتابات الالفنتين (الفيلة) .

خامساً : المصادر الكنعانية القديمة والوسيطة وأهمها أرشيف ايبلا وأجاريت وماري وقطنه نورد فيما يلي أهم المعلومات المتعلقة ، بالطوبوغرافية التاريخية لمنطقة وسط سورية :

قادش :

اقترح Tompsen تومبسون في عام ١٨٤٠ أن يكون تل النبي مندو هو موضع قادش القديمة المعروفة من المصادر المصرية ، وقد اعتمد في شرح فرضيته على المشهد الطوبوغرافي المصوّر بشكل لوحة تذكارية تخلّد انتصار رعمسيس الثاني على الحثيين بقيادة مواتاللي (Muwatallis). لم يشك أحد بتوقيع قادش في موضع تل النبي مندو منذ فرضية تومبسون . ومع أنه جرت حفريات أثرية في التل المذكور برئاسة الفرنسي بيزارد خلال عام ١٩٢٠ ، إلا أن تلك الحفريات لم تضف شيئاً أو عنصراً مادياً يؤكد هوية الموقع باستثناء لوحة تذكارية تعود لزمن الفرعون سيتي الأول وهي مرتبطة حتماً بحملة هذا الفرعون على سورية حوالي عام ١٣١٧ ق.م .

ورد اسم قادش في المصادر الحثية بلفظة (Kinza) ووردت في أرشيف قطنا باسم كي إيدشي (Ki - id - Si) .

غابت قادش عن مسرح التاريخ خلال النصف الأول من الألف الأولى ق.م وغاب معها اسمها من المصادر التاريخية ، ثم عاد السكن إلى الموقع في العصر الروماني حيث أطلق عليها اسم لاوديسيا أدليبانوم (أي اللاذقية المحاذية لجبل لبنان) وأيضاً لاوديسيا سكابيوزا (Laodicia Scabiosa) ولم تظهر أية صعوبة في التحقيق من أن لاوديسيا أدليبانوم هي تل النبي مندو ، فقد ازدهرت تلك

المدينة بسبب وقوعها على طرق الجيوش والقوافل التجارية بين ايميسا (حمص) وهيليو بوليس (بعلبك) عن طريق ماوريكوبوليس (جوسية الخراب) .

وفي عام ١٩٧٥ تأكد وبشكل قطعي ومادي توقيع قادش في موضع تل النبي مندو وذلك إثر اكتشاف خمسة ألواح طينية منقوش على إحداها رسالة موجهة إلى آيتا غاما حاكم قادش المعروف من أرشيف تل العمارنة .

قطنه :

نقب الفرنسي الكومت دومزنيل دوبويسون في المشرفة خلال الأعوام ١٩٢٤ و ١٩٢٧ و ١٩٢٨ و ١٩٢٩ واكتشفت خلال حفرياته ألواح ارشيف معبد نين آغال (Nin - egal) . كانت قطنا عاصمة المنطقة خلال الألف الثاني ق.م وهي أكبر المواقع الأثرية القديمة في سورية . ورد اسم قطنا في النصوص المكتشفة في ماري بلفظة (Qa - ta - nim) أو بلفظة (Qa - ta - na) في وسائل الالآخ (تل عطشانة) أو بلفظة (Qat - na) في أرشيف بوغاز سكوي .

من الرسائل الهامة التي ورد فيها اسم قطنا رسالة يشخي أدد (Ishiadad) ملك قطنا الموجهة إلى يسمخ أدد (Ismahadad) ملك ماري ورسالة يشخي أدد إلى اشمي داغان (Ismedagan) .

وهكذا أثبت التنقيب الأثري هوية موقع المشرفة على أنه موضع مدينة قطنا الشهيرة .

تدمر :

وردت في إحدى رسائل أرشيف ماري لفظة (تادمير) أو (تادميرا) وهي لفظة الاسم تدمر . ويأتي هذا الدليل ليثبت بقاء استعمال نفس الاسم منذ النصف الأول من الألف الثانية ق.م.وهي حالة نادرة في الطوبوغرافيا التاريخية لمنطقتنا الحضارية . دعيت تدمر خلال العصر الروماني باسم بالميرا (Palmyra) .

نزالا أو نشالا :

نشر الباحث الفرنسي وادينغتون في عام ١٨٤٧ دراسة وقراءة لكتابة اكتشفت في القريتين وهي مدوّنة بالقلم اليوناني وتعود إلى العصر الروماني . تتضمن الكتابة اسم نزالا وهو اسم لمدينة معروفة من خاوطة Peutinfer . وقد أتت تلك الكتابة كدليل مادي يثبت الاسم القديم القريتين وهو نزالا . كما وأثبت أحد الألواح الطينية المكتشفة في ماري نفس الاسم بلفظة ناشالا (Na - Ša - Ia - a) وهو أبكر لفظة لنفس الأسم نزالا المعروفة من المصادر الرومانية ، وهكذا أثبت موضع نزالا أو ناشالا وحدّد موضعها الجغرافي في تل القريتين الأثري المعروف باسم تل رأس العين .

تونيب : Tunip

كانت إحدى عواصم الممالك الشهيرة في مناطق وسط سورية خلال الألف الثانية ق.م . وقد اختلف الباحثون في تحديد موضعها فرأى دوبسويسون أنها تقع في تل الدنيبة شمال المخرم التحتاني ورأى الأستاذ هورست كلينفيل أنها تقع بين نهر العاصي والنهر الكبير الجنوبي

وذلك استناداً إلى مراسلات ملك آلالاخ نيقمابى ، ورأى الأستاذ كوشكى أنها هي نفس تل حمص (قلعة حمص) وهناك آراء أخرى ومتناقضة حول توقيع تونيب جغرافياً ، إلا أن الجدل مازال مستمراً ومن دون جدوى ولكن التنقيبات الحديثة سوف تحدد موضع تونيب مستقبلاً .

بلاد نوخاشي NuhhaŠe

عرفت في مصادر أرشيف الألف الثانية ق.م . منطقة أو مناطق أو بلاد نوخاشي ، وحسب رأي الأستاذ كليتفيل فان المنطقة الممتدة بين حلب وحماه وإلى الشرق هي المنطقة المعنية باسم نوخاشي ، وورد ذكر بلاد نوخاشي في أرشيف قطنا ولربما كانت مملكة قطنا تصل حدودها الشمالية إلى بلاد نوخاشي .

بلاد اوبى Upe

ورد في المصادر المصرية اسم اوبى وهو اسم المنطقة الممتدة إلى الشرق من جبال لبنان الشرقية أي إلى الشمال من دمشق وإلى الجنوب من حمص وقد أثبت الباحثون تحديد بلاد اوبى وفق مسار الحملات وطرق الجيوش المصرية ، التي غزت سورية خلال الألف الثانية ق.م .

آبزو Abzn

وقعت هذه المدينة المعروفة من حملة شوبيلوليوما على وسط سورية في موضع تل تلبيسة افتراضاً ولم تثبت هذا التوقيع أية قرائن كتابيةأو أثرية أخرى بعد .

الفرقلس :

عرف في مصدر الـ نوتيتيا ديغنيتا توم اسم بيت بروكليس أو بيت بروقليس (Bet - Proclis) وقد رأى الأستاذ دوسو أنها هي نفس الفرقلس ويبدو أن اللفظة اليونانية هي لنفس الأسم الفرقلس فعليه نعتقد أن الفرقلس هو نفس الاسم القديم لموضع سكني مدفون في تل الفرقلس وقد أثبتت التحريات الأثرية أن الفرقلس كانت موجودة خلال الألفين الثانية والأولى ق.م .

الغنثر :

هي Ottora المذكورة في الـ Notitia Dizinitatum وهي موضع سكني مجاور لجبل أبي رباح شمال القريتين .

الحدث :

هي حداثا (Hadatha) وهي مذكورة أيضاً في نفس المصدر السابق .

حوارين

هي أو يماوس (Eumaris) المذكورة في المصادر الرومانية أو آويريا (Aueria) .

صدد :

ذكر الأستاذ دوسو أن Saltatta سالتاتا هي نفسها صدد ، وسالتاتا معروفة من مصدر الـ نوتيتيا وكانت موضعاً حربياً هاماً خلال العصر الروماني .

مهين :

وقعت دانابا (Danaba) المعروفة من خارطة Peutinfer جغرافياً في موضع مهين . فقد ورد لدى دوسو نقلاً عن وادينفتون أنها تقع في خارطة Peutinper على بعد ٢٠ ميلاً عن القريتين (نزالا) . وكانت دانابا المركز الحربي للفرقة الغالية الثالثة من الجيش الروماني .

* * *

معركة قادش

الدكتور شاكر مطلق
و الدكتور سامي سحلول

الصراع بين الحثيين والمصريين هو صفحة من الصراع التاريخي للسيطرة على الرقعة الجغرافية الواقعة بين بلاد ما بين النهرين وحوض البحر الأبيض المتوسط .

ومعركة قادش هي المعركة الأهم بين هاتين القوتين العظيمتين الوحيدتين في تلك المرحلة من التاريخ القديم .

اخترناها لتكون من مواضيع هذه الندوة لأنها حدثت حول قرية تل النبي مندو على بعد كيلو مترات من هذا المكان .

الحيثيـــون

الحثيون عرق آري وصلوا الأناضول في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد وكان قد سبقهم إلى هذه المنطقة حضارات عرفت **Pro Hittiteo** وتكاثروا واستقروا وأسسوا عاصمتهم هاتوس **Hattus** بوغاز كوي حاليا شرقي نهر هاليس – قرب أنقره على منحدرات جبال بويك – كال .

كانوا في البدء امارات وحدها بالقوة حوالي سنة ١٩٠٠ ق.م . الملك انتياش Anitash ووسعها من بعده Talabarna أو Lab-arna باجتيازهم طوروس واحتلالهم كركميش – جرابلس على يد ملكهم Maursili الأول أصبح وادي الفرات مفتوحا أمامهم فتقدموا نحو بابل ودخلوها عام ١٨٠٦ ق.م ونهبوها ونقلوا كنوزها إلى عاصمتهم .

تلى هذه المرحلة ضعفا في نفوذهم نتيجة ضغط الهكسوس وتقدم الآشوريين إلى نهايتها وظهور المصريين لأول مرة في هذا القسم الآسيوي بقيادة ملكهم تحوتمس الأول من السلالة المصرية الثامنة عشرة ولأول مرة تصل الجيوش المصرية إلى النهر المقلوب – نهر الفرات .

وتلى هذه الفترة ازدياد قوتهم من جديد فاستعادوا نفوذهم وبسطوا من جديد سيطرتهم فعاد المصريون في عهد تحوتمس الثالث ، وهو من المع فراعنة مصر . فتقدموا من جديد واحتلوا قادش ووصلوا الفرات من جديد .

بظهور شوبيلوليوما أقوى وأعظم ملوك الحثيين والذي دام حكمه ٣٤ سنة من عام ١٣٨٠ – ١٣٤٦ ق.م الذي استفاد من ظروف وأحوال الأمبراطورية المصرية في عهد امنحوتب الرابع وصاحب الدعوة التوحيدية والمعروف باسم اخناتون .

الأمر الذي ساعد شوبيلوليوما فصفى حساباته مع خصومه المجاورين وأجهز على دولة ميتاني وتوغل الحثيون بعده في سورية حتى أرض كنعان ، وبهذا أصبحت الدولة الوحيدة القوية في المنطقة .

وهنا وصل الحثيون إلى ذروة قوتهم وقد امتازوا بقدرتهم القتالية وحسن تخطيطهم العسكري وسرعة الحركة ، يساعدهم في ذلك مركباتهم

الخفيفة ذات الدواليب المفرغة تقودها خيول ممتازة وتحمل كل منها ثلاثة أفراد ، السائق ومقاتلاً من النبلاء وحامل نبال وترس للحماية ، إلى جانب فرق مشاة مسلحة بالنبال والسيف المنحني والرمح والبلطة .

ثلاثة صفات تميز بها الحثيون وساعدت على تفوقهم :

١ ـ استعمال الحديد الذي استخرجوه من الجبال المجاورة لصناعة أسلحتهم .

٢ ـ العربات السريعة .

٣ ـ الحصان ، ويقال أنهم أول من أدخل الحصان إلى منطقة الشرق الأوسط وقد يكون على الأصح القول أن الحصان الحثي هو من نوع الممتاز الذي لم يكن معروفا في المنطقة .

الديانة الحثية مقتبسة من ديانات الأقوام المجاورة وخاصة البابلية خطوطهم بابلية مسمارية وهيروغليفة مصرية أحيانا ، يكتبون من اليمين إلى اليسار ثم يتابعون من اليسار إلى اليمين .

تشريعهم وقوانينهم تأثرت بشريعة حمورابي ، غير أن عقليتهم العسكرية لم تستوعب النواحي الإنسانية التي تميزت بها الشريعة البابلية ليس فيها ما يشبه هذا النص :

(أنا حمورابي نادتني الآلهة أن أمنع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء وأنشر النور في الأرض وأرعى مصالح الخلق) .

الدولة الحثية باختصار كانت دولة حديد ونار وقوة عسكرية .

بقيت الدولة الحثية الوحيدة والأقوى إلى أن تبدلت أحوال مصر واعتلى عرشها رعمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة وتبعه

سبتي الأول وتلاه رعمسيس الثاني الذي حكم مصر ٦٧ عاما من ، ١٢٩٨ ــ ١٢٣٢ ق.م فأعاد إلى مصر زخمها وتطلعاتها نحو التوسع ، نقل عاصمة ملكه إلى شرقي الدلتا ليكون قريبا من الحدود الآسيوية تسهيلا لمواصلاته واتصالاته ، وقرر ان يتخلص من النفوذ الحثي المتزايد الذي استفاد من ضعف مصر في عهد اسلافه ، فجهز أربع فرق وعبر قناة الزالو في التاسع من شهر بيباني ــ يقال أوائل الربيع في السنة الخامسة من حكمه وانتقل بدون توقف مجتازا الأراضي الكنعانية إلى الجنوب اللبناني فوادي الليطاني وتقدم إلى وادي العاصي قادما من البقاع وعسكر عدة أيام في شابتونا على نهر السبتا إلى الجنوب الغربي من قادش في قلب البلاد الآمورية ، وراح يدرس طبيعة الأرض ويحاول كشف مواقع الحثيين لأن معلوماته عن المنطقة كانت غامضة .

حدد بعض المؤرخين مكان شابتونا على الهضبة التي تقع عليها حاليا قلعة الحصن ، الخوري عيسى أسعد يذكر أنها قرب دير مار جرجس من الجهة الشمالية قريبا من قلعة الحصن ، هذه الفرضية وافق عليها Mariette وكان بلانش Blanche حددها في هذا المكان في مقاله ملاحظات حول قلعة الحصن وذلك في النشرة المصرية عام ١٨٧٤ م .

ولكن وكلنا نعلم بعدم وجود أي نهر قرب قلعة الحصن أو دير مار جرجس غاستون ماسبيرو يعتقد أنها ضاحية واقعة في السهل جنوبي غربي بحر القادش (بحيرة قطينة) ليس بعيدا عن الجنوب الغربي لتل النبي مندو على مقربة من الغابات والأحراش التي تغطي منحدرات لبنان حتى تل معيان عند الحدود السورية اللبنانية حالياً . من الطريف بهذه المناسبة أن نروي للمستمع الحمصي بعض المعلومات عن نهر العاصي .

المصريون عرفوه باسم أون راتي Aounrati وأرونتي Arounti كما جاء في شعر Pen - Ta - Our عن المؤرخ دوروجي الذي اعتمده الاختصاصيون بالتاريخ المصري كمرجع رئيسي .

في النقوش الآشورية ذكر النهر تحت اسم Arantou . نقلا عن المؤرخ فريدريك ديليتس Delitch وهو يعتقد أنه اسم آري دون تقديم دليل موثوق .

سترابون الرحالة المعروف يقول انه سُمي نهر التيفون لشدة جريانه أما اسم oronte فأتى من اسم الرجل الذي بنى عليه أول جسر ويسمى Orontes .

احدى الجاليات اليونانية أطلقت عليه اسم Axios تخليداً لأحد أنهار مكدونيا الذي يحمل نفس الاسم ، ومن المحتمل أن يكون العرب حولوا الاسم إلى العاصي .

كان النهر مشهورا بعنف مجراه وغزارة المياه وأسماكه المقدسة بعكس حالته الحزينة الحاضرة ، جان يانوسكي وجول دافيد يقولان أن العرب سموه العاصي بمنى المتمرد ويضيفان نعم المتمرد ولكن على الجهل والكسل ، فنهر الرون في فرنسا متمرد أيضا ولكننا عرفنا كيف نروضه ونجعله نهرا صالحا للملاحة .

معركة قادش
Ki : Ud - S - chi ق.م ١٢٩٣

لنعد إلى قادش أو كوّدشي واللفظ يختلف عما كان شائعا في حينه وهي تلة محصنة تحصينا جيدا اتقنه الحثيون ، يحميها نهر العاصي بشكل

جيد ، وهذا الموقع استراتيجي يحمي المدينة والمنطقة من الغزاة القادمين من الفجوة الغربية ، ويسمح للجيوش من التحرك نحو البقاع إلى أراضي كنعان والوقوف في وجه المهاجمين القادمين عبر هذا المحور .

رعمسيس سلك هذا الطريق وتوقف يترصد حركات الحثيين بقلق لأنه عجز عن معرفة تحركاتهم وكشف مكانهم ، ملك قادش Muwatallu كان بارعا في تخطيطه وفي أساليب التمويه وفي الحيل العسكرية ، اذ أرسل اثنين من اتباعه تتكرا بزي رعاة وأوهما القادة المصريين ، أن الملك الحثي غادر مع جيشه قادش متوجها نحو حلب Khaloupou .

أمام هذا الوضع أصبح أمام رعمسيس الثاني خياران ، أما تطويق قادش حتى يأتي الحثيون لنجدتها ، أو ملاحقتهم حتى الفرات ، فاختار الحل الثاني كأنه أراد أن يتخطى منجزات سلفه تحوتمس الثالث وتصرف وهو مقتنع بما قاله الجاسوسان الحثيان ولا سيما وأن طلائع جيشه لم تلحظ وجودا حثيا .

كـان الجيش المصري مؤلفـا من أربع فـرق Soutkhou, Phtah, Phra, Amon اضافة إلى العربات الملكية والحرس الخاص ، أمر رعمسيس فرقه بالتحرك مطمئنا لعدم وجود الحثيين الذين كانوا يعلمون كل شيء عن تحركات فرعون مصر ، والذين عسكروا في الشمال الشرقي من قادش بقوتهم العسكرية الهائلة المؤلفة من ١٨٠٠٠ — ٢٠٠٠٠ مقاتل ، بما فيهم ألفان إلى ثلاثة آلاف عربة في كل واحدة ثلاثة مقاتلين ، وصدف بعد تحرك المصريين المطمئنين وتقدمهم ، أسر جنديين حثيين مثلا أمام الملك المصري الجالس على

عرشه المصنوع من الذهب والفضة ، وتم معهما التحقيق باشرافه ، فاوسعا ضربا حتى اعترفا بأن الملك الحثي أرسلهما للتحري عن مكان وجود جلالته ، واعترفا أن الملك الحثي وجيشه متأهب للقتال وراء قادش القديمة .

المفاجأة كانت مذهلة وخطرة ، استدعى رعمسيس قادة جيشه وأنبهم وأصبح في وضع محرج وفي صراع مع الساعات ، أرسل على وجه السرعة رسولا ليستعيد فرقة رع التي ابتعدت عنه ، ولكن الحثيين لم يمهلوه وكانوا أسرع ، فاندفعوا نحو فرقة رع وكانت ضربتهم مفاجأة فشطروا فرقة رع المطمئنة شطرين وبعثروها ، وتقدمت عرباتهم إلى مواجهة رعمسيس نفسه الذي قاتل بنفسه وأشرف على الهلاك لولا رباطة جأشه وحارسه Manna وأحصنته وسباعه واستمرت المعركة محتدمة على أشدها إلى أن وصلت فرقة Soutkrou و Phtah اللتان عادتا بأقصى السرعة بعد وصول أوامر الملك والتحقتا بالمعركة .

القسم الأكبر من المهاجمين الحثيين الذين وصلوا معسكر الملك أبيد أو أسر ، فانكفأ الملك الحثي وتراجع ، وبحلول الظلام هدأت المعركة لتحتدم عند مطلع الفجر وتنتهي بتراجع الحثيين نحو قادش ومقتل حارس الملك Garbatousa وقائد المشاة وقائد العربات Khaloursarou . العربات المتراجعة سقطت في العاصي . شقيق الملك استطاع النجاة ، أمير حلب نجا من الغرق وكاد أن يفقد الحياة ، لولا السرعة باسعافه وقلب رأسه إلى الأسفل واخراج الماء من احشائه . المصريون انهكوا في المعركة ، الحثيون تعبوا ، وأصبحت متابعة القتال متعذرة . الاستمرار بالمعركة أصبح مخاطرة بالنسبة للطرفين ،

الملك الحثي اقترح الهدنة . الملك المصري قبلها فورا ، فغادرت الجيوش المصرية إلى بلادها وأراد رعمسيس أن تسجل هذه المعركة بتفاصيلها على أعمدة الأقصر وأوكلت هذه المهمة إلى الشاعر Pentaour أو Pentaourit الذي أطنب وضخم الأمور وصفاً ومديحاً ومبالغات، جاء في بعضها مايلي :

« لم يكن مع الملك أمير أو قائد حرب أو حامل ترس ولا جندي مقاتل عندئذ صرخ الملك ، من تكون أنت يا أبي آمون ؟ هل ينسى الأب ابنه ؟ هل أسأت إليك ؟ هل سرت أو توقفت الا بأمرك ؟ من يكون هؤلاء الآسيويون في قلبك ؟ كيف تعطف على الذين لا يعرفون الآلهة ؟ أنا الذي بنيت لك المعابد ووهبتك أملاكي . . . ويتابع السرد على هذا المنوال وصوت فرعون يدوي في جبال حرمون إلى أن يظهر آمون ويقف إلى جانب رعمسيس ويقاتل معه ويدب الخوف في قلوب الحثيين ويفقد الجندي الحثي القدرة على رفع يده » .

الحقيقة أن المعركة انتهت بنصف انتصار ونصف انكسار ، تقاسم فيها الحثيون والمصريون نشوة النصر ومرارة الهزيمة .

الصراع لم يتوقف ، الحثيون عوضوا خسائرهم المادية والبشرية واستعادوا قوتهم وبدأوا من جديد يسببون المتاعب في الجنوب السوري وقريبا من الحدود المصرية ، الأمر الذي واجهه رعمسيس الثاني بالتدخل من جديد .

أمام هذا الطريق المسدود أمام الحثيين أصبح التفاهم ضروريا مع المصريين ، ففي العام ٢١ وفي ٢١ من شهر Tybi أرسل ملك الحثيين Hattousil iii وفدا إلى مصر يحمل مشروع معاهدة

مكتوبة باللغة الاكادية على لوحة من الفضة يقترح فيها الملك الحثي الصداقة والسلام الأبدي والمعاملة بالمثل .وهذه المعاهده تعتبر في رأي المؤرخين من أجمل وأدق المعاهدات الديبلوماسية ، أحد نصوصها وجد محفورا على أعمدة الكرنك ، والثاني وجد حوالي عام ١٩٢٥ م في ألواح المكتبة الحثية في هاتوشي .

هذه المعاهدة في العلاقات الديبلوماسية تسمى Condominium وتعني تقاسم السلطة والنفوذ المتبادل بين قوتين على بلد ما ، تمت عام ١٢٧٨ ق.م ، هذه المعاهدة أمنت السلام في المنطقة لفترة دامت نصف قرن تراجع فيها النفوذ المصري قليلا نحو الجنوب وتقلص عما كان أيام تحوتمس الثالث ، وتوجت هذه المعاهدة بزواج فرعون مصر من ابنة الملك الحثي Hattousil iii .

بعد موت رعمسيس عن حكم طويل وعمر مديد أنجب خلاله ١٥٠ ولداً ، انكفأت مصر إلى حدودها ، ملامح المنطقة بدأت تتغير وموازين القوى بدأت بالتبدل ، نجم آشور أخذ بالصعود ، شعوب البحر أصبحت مصدر خطر على الحثيين والمصريين ، والسياسة مواقف والدول تعدل خططها لمواجهة هذه المواقف لتحسن التعامل مع الظروف الجديدة بخطط جديدة وباختلاف المعادلات والعوامل تزداد قوة الدولة أو تضعف.

تخلت مصر عن التوسع في آسيا وتخلت عن فكرة تجاوز حدودها وانتهى عصر قوتها ، ولكن مصر بقيت وحضارتها خالدة وما تزال أصيلة في وادي النيل .

الدولة الحثية بدأت تضعف لعوامل داخلية في قيادتها ومنازعاتها وتلاشت أمام ضربات الآشوريين واختفت من الوجود شعبا ودولة .

حمص — ١ تشرين ثاني : ١٩٨٤

الدكتور سامي سحلول

قطنة وقادش

الدكتور علي أبو عساف

هجر الكنعانيون حياة البداوة واستقروا في بلاد الشام . ثم أسست كل قبيلة منهم مملكة مستقلة ، عظمت قوتها وكبرت رقعتها تبعا لقوة القبيلة .

ومن هذه الممالك مملكتي قطنة وقادش ، اللتان ازدهرتا وبلغتا عصرهما الذهبي في الألف الثاني ق.م . تقع المملكتان المتجاورتان في أواسط بلاد الشام وعاصمتهما خربتان منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام . وهما : قطنه أي تل المشرفة إلى الشمال الشرقي من حمص على بعد حوالي ١٨ كم وهي عاصمة المملكة المسماة باسمها .

وقادش وهي تل النبي مند على العاصي إلى الجنوب الغربي من حمص حوالي / ٢٤ / كم وهي عاصمة مملكة كنزا / قادش .

ونظرا لأن الوثائق التي بين أيدينا تثبت أن مملكة قطنه أقدم من قادش سوف نبدأ الحديث عنها .

مملكة قطنة :

كشفت التنقيبات الأثرية التي أجراها الفرنسي الكونت دي منيل دي بي سون في الأعوام/١٩٢٤و١٩٢٧حتى١٩٢٩/على سجلات معبدالرب نين كال التي أثبتت بجلاء أن تل المشرفة هو مدينة قطنه القديمة وقد كتب اسمها في هذه الوثائق ووثائق ماري وآلالخ ورسائل العمارنه (قطنة) . أما في اللغة المصرية فقد كتب (ق د ن) أي قطنه . وأوردته الوثائق الحثية بثلاثة أشكال : قطنه ، جتما كنتنا . وليس لهذا الاختلاف في كتابة الاسم أي مغزى فالمعول عليه هو كيف وردت بالوثائق المحلية . فدا ماسكس هي دمشق وان كتبها الغير باسم مخالف .

قلنا أن التنقيبات الأثرية قد أعانتنا في التحقق من موقع قطنه ، وأثبتت أيضا أن الموقع قد استوطن منذ الألف الثالث ق.م . وكان على صلات وثيقة مع مناطق بلاد الشام الأخرى وبلاد ما بين النهرين .

وقد عثر في بيوت وقبور سكان قطنه على جرار فخارية من صنع بلاد سومر نقلت فيها سلع تجارية من هناك إلى هنا . ونحن وان كنا لا نعرف نوع تلك المواد فاننا نعرف على الأقل أن الجرار من عصر سلالة أور الثالثة (٢١٥٠ – ١٩٥٠ ق . م)

ويبدو من كسر تمثال إيتا ابنة الفرعون أمين ايمحت الثالث (١٩٢٩ – ١٨٩٨ ق.م) . التي عثر عليها في قطنه ، ان هذه المدينة كانت ترتبط مع مصر بعلاقات تجارية جديدة. فاستحقت هذه الهدية القيمة .

كانت التنقيبات الآثرية التي أجريت في الموقع محدودة ، لأن البيوت السكنية الحديثة قد انتشرت فوقه فأعاقت التوسع في أعمال

التنقيب ، وأضاعت علينا فرص الكشف على كنوز تلك المدينة إن صح التعبير . والآن وبعدأن أخليت المساكن من ساكنيها الذين انتقلوا إلى بيوت جديدة ، أصبح من الممكن الكشف على قطنه .

وحتّى يتحقق ذلك الحلم يبقى اعتمادنا على وثائق ماري وآلاخ في كتابة تاريخ قطنه . ولا نبالغ اذا قلنا أن تاريخ ماري في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد هو تاريخ بلاد الشام الشمالية . ولا غرابة في ذلك فالتنقيبات الأثرية بدأت مبكرة في ماري ، وأعطت نتائج جيدة منها دار محفوظات كبيرة ضمت عشرات الألوف من الرقم الّتي سطرت عليها مراسلات المملكة ، المعاهدات ، العقود ، ايصالات المبيعات والايرادات . . . الخ ، هذا بالإضافة إلى أن ماري كانت صلة الوصل بين ممالك بلاد مابين النهرين وبلاد الشام .

وقد أعطاها هذا الموقع الممتاز فرصة المشاركة في صنع تاريخ جاراتها . زد على ذلك أنه كانت لماري وقطنه مصلحة مشتركة في معالجة أمور البدو والقوافل التجارية وغيرها من الأمور . لذا أخذت مخابرات المملكتين المتعلقة بالبدو والمصاهرة والمساعدات العسكرية والشؤون التجارية تدور بين المملكتين طيلة القرن الثامن عشر ق.م .

يبدو أن ملوك ماري كانوا يقيمون وزنا كبيرا لانتقاء زوجاتهم وزوجات أبنائهم ، ويحرصون على أن تكون الزوجات من البيوت الملكية الشهيرة . ففي ذلك فائدة بابعاد العداوة من بين الأسر المتصاهرة . وفرض تعاونهما في زمن الشدائد ضد الأعداء . وانطلاقا من هذه النظرة . طلب شمشي حدد (= شمسي هدد) ملك آشور ، من ملك قطنة يشخي حدد (= يسعي هدد) ، أن يزوج ابنته الّتي لم يذكر أسمها ، من ولده

يسمخ حدد (= يسمع هدد) ملك ماري . اذ أن البيت المالك في قطنه ذو شهرة واسعة وذكر حميد كالبيت المالك في ماري . ونفهم من المراسلات التي تناولت تحديد الطرحة (المهر) ، وكيفية تسيير موكب العروسة من قطنه إلى ماري ، أن وراء هذا الزواج مصلحة لقطنه في التحالف مع ماري ضد مملكة يمخاد (= حلب) . وما أن وصلت العروسة إلى ماري حتى عقد الطرفان شمشي هدد ويشخي حدد معاهدة تعهد فيها الأول بالوقوف إلى جانب قطنه في تصديها لتعديات جارتها الكبرى يمخاد .

كانت لهذا التقارب بين البيتين أثره على العلاقات بين يمخاد وكل من ماري وقطنه . فلم نعد نسمع عن منازعات بينهم .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد اتضح أن هذا الزواج لم يكن موفقا . فالزوج يسمع هدد (= يسمخ حدد) تمنع عن مرافقة زوجته لزيارة أبيها ورغب في طلاقها ، لولا تدخل والده الذي أنبه وطلب منه الاكتفاء بهجرها وحشرها في أحد أجنحة القصر حتى يتجنب الفضيحة .

أذعن الولد لرغبة والده ووافق أيضا على السفر إلى قطنه . ولا ندري فيما اذا كانت زيارته قد تمت . ولكنه من المؤكد أن قوات من جيش ماري كانت تعسكر في قطنه ، وتأتمر بأمر ملكها . وعندما رغب حكام ماري لسحب هذه القوات ، واعادتها إلى ماري ، طلبوا موافقة ملك قطنه على ذلك وتمت المراسلات بينهم وبينه ولم يخاطبوا قائد قواتهم مباشرة . وقد يعني هذا أيضا أن ملك قطنه كان يدفع لهم نفقات اقامتهم .

ومهما يكن الأمر فان علاقات قطنه في عهد ملكها يشخي حدد (= يسعي هدد) ، في النصف الأول من القرن الثامن عشر ق .م . مع ملك ماري وصهره يسمخ حدد (= يسمع هدد) ووالده شمشي حدد ملك آشور كانت حميمة ووثيقة . ومن الواضح أن هذا التحالف بين قطنه في أواسط بلاد الشام ، وماري على الفرات ، وآشور على الدجلة ، قد أشرف على المنطقة الممتدة من حمص عبر الصحراء إلى ماري على الفرات ومنها إلى آشور على الدجلة . وقد يسر هذا الموقع الجغرافي الهام لهذه الدول الثلاث السيطرة على الطرق التجارية بين بلاد الشام والأناضول من جهة وبلاد بابل وسومر من جهة أخرى . وقد أفلح هذا التحالف منع مملكة يمحاد من التوسع شرقا إلى ما وراء الفرات وجنوبا إلى ما وراء جبل الأحص . وقد أفلح أيضاً في إيقاف توسع مملكة بابل نحو الشمال والشمال الغربي .

في عهد يشخي حدد (= يسعي هدد) استقرت قواعد المملكة وتوطدت علاقاتها مع ماري . وفي عهد خليفته آموت بيل تحسنت علاقات قطنة مع يمحاد ولم نعد نسمع عن نزاعات بينهما . ومرد ذلك إلى توسع مملكة يمحاد من حلب حتى سواحل البحر المتوسط غربا ونهر الفرات شرقا . هذا بالإضافة إلى عودة زمريليم إلى عاصمة ملكه ماري بعد أن تعاون مع أخواله ملوك يمحاد في طرد يشمخ حدد (= يسمع هدد) من ماري لقد انقلبت موازين القوى وتغيرت العلاقات . فبعد ان كانت ماري حليفة قطنة ضد يمحاد ، أصبحت حليفة يمحاد . إلا ان هذه الدول الثلاث لم تتحارب ولم تحاول . أي منها التعدي على جاراتها . فقام في المنطقة نوع من التوازن يأخذ بعين الاعتبار حقوق كل مملكة .

ومما يدل على عدم تأثر مملكة قطنة بهذا التحالف الحديد ، وبقائها على قوتها، ان أكثر من خمسة عشر ملكا كانوا يتبعون آموت بيل وان مكانته بين معاصريه من الملوك كانت عالية . وذلك حسبما ورد في وصف الكاتب اتورا حدد للملوك زمانه .

ومن هذه العبارة نفهم أن خمسة عشرة شيخا من شيوخ العشائر وليس خمسة عشرة ملكا . كانوا من أتباعه .

وكما حافظ آموت بيل على مكانة قطنه السياسية حسن علاقاته التجارية مع بابل وبلاد سومر . ففي عهده تنقل تجار قطنة بين معظم عواصم ممالك عصرهم .

فوصلوا حلب ، كركميش ، ايمار ، ماري ، بابل ، أشنونه ، وآشور ، وكانت الطريق التجارية التي تربط بين بلاد الجزيرة وقطنه تمر بتدمر : فالسخنه فالميادين فماري . التي منها تتابع القوافل سيرها نحو الشمال والشرق والجنوب . وفي هذا المكان اقتضى التنويه إلى أن الحمار كان الحيوان الذي يحمل البضائع بين البلدان ويجر العربات .

ان العلاقات المتوازنة التي قامت بين مختلف ممالك المنطقة ، والمبنية على الاحترام المتبادل لسيادة وحقوق كل دولة ، ضرب به حمورابي ملك بابل (١٧٢٨ — ١٦٨٦ ق.م) . عرض الحائط . فهاجم ماري عند نهاية القرن الثامن عشر ، وقضى عليها . ولم تقم لها قائمة كعاصمة مملكة قوية بعد هذا التاريخ . وقبل ذلك كان قد أخضع لسلطانه جميع ممالك بلاد سومر وأكاد وآشور .

هذا إلى الشرق والشمال الشرقي من البادية الشامية ، أما إلى الشمال والشمال الغربي ، فقد بقيت دولة يمحاد الدولة الوحيدة القوية في

المنطقة ، التي حافظت على علاقات عادية مع قطنه ، وامدتنا بمعلومات عنها . فقد ذكر في بعض الرقم التي عثر عليها في مدينة آلاخ ، العاصمة الثانية ليمخاد ، والتي يعود تاريخها إلى القرن السابع عشر ق.م . أن عمالا زراعيين كانوا يفدون إلى بلاد آل لخ للعمل . ولم تتحدث الوثائق عن حروب بين الدولتين بل عن اصطدام واحد وقع بين مراكز حدودهم .

والحقيقة التي لا تطمس هو أن تاريخ قطنه بعد القرن الثامن عشر قد أصبح شبه مجهول لقلة الوثائق . في خضم الأحداث التي شهدتها بلاد الشام خلال القرنين الخامس والرابع عشر ق.م ، مثل الصراع بين الفراعنة والحوريين والميتانيين ، وبين الحثيين والميتانيين فوق أرض بلاد الشام ، اكتنف الغموض موقف قطنه . ولا نعلم عنه شيئا موثقا .

ولكن مما لا شك فيه أنها بقيت مملكة مستقلة يحكمها ملوك من سلالة يشخي حدد (= يسعي هدد) . ونعرف من سجلات معبد نين جال . أسماءهم فقط .

وفي عصر العمارنة الذي يوافق حكم الفرعون امنوفس الرابع أي اخناتون (١٣٧٧ – ١٣٥٨) ق.م . كان إكزي ملكا على قطنة ، مواليا للفراعنة ، وللملك أوفه (= دمشق) بيراوزه .

وقد ناصبه العداء ملك قادش ايتاكاما وآزريرو ملك آمورو . وعند منتصف القرن الرابع عشر ق.م ، وفي عهد الملك الحثي شوبي لي ليوما ، احتل الحثيون قطنة فأحرقوها ، وسبوا عددا كبيراً من سكانها . فأفنوا زهرة مبانيها ، ونهبوا ثروتها .

وبذلك تكون قطنه كعاصمة مملكة قد اندثرت ، وأصبحت قرية من الدرجة الثانية أو الثالثة .

مملكة قادش :

تشير جميع الدلائل المتوفرة لدينا حتى الآن أن مملكة قطنة أقدم من مملكة قادش فهذه الأخيرة لم تذكر في وثائق ماري ولا في وثائق آلالاخ (القرن الثامن عشر ق.م) كما ذكرت قطنه وبما أن عاصمتي المملكتين متجاورتان يبدو أن السلطة في المنطقة قد آلت أولا إلى قطنة ثم إلى قادش .

وفي استعراضنا للاحداث التي مرت بها مملكة قطنة وجدنا انها قد ولت وجهها نحو الشمال والشرق وكانت على علاقات مع ماري ويمحاد . أما قادش فقد اهتمت بالمناطق الجنوبية من بلاد الشام . اذ يذكر الفرعون تحوتمس الثالث (١٤٩١ — ١٤٣٦) أنه في عام حكمه الثالث والعشرين قد جرد حملة على بلاد الشام فتصدى له أمير قادش الذي جمع تحت قيادته جيشا جرارا من ممالك بلاد الشام الجنوبية قابل المصريين في مجدو بفلسطين ولم يكن النصر حليفه وانتهت المعركة بمعاهدة صلح بين الأطراف وان دل هذا على شيء فانه يدل أولا على المكانه المرموقة لقادش بين ممالك بلاد الشام الجنوبية .

حاول الفرعون تحوتمس الثالث احتلال قادش بضع مرات ولكنه ارتد عنها دون دخولها أو حتى محاصرتها ومرد ذلك على ما نعتقد التزام الطرفين بمعاهدة مجدو . ولكن في عام حكمه الثالث والثلاثين وخلال حملته الشهيرة على بلاد الشام والتي وصل بها إلى كركميش على الفرات هاجم قادش وحاصرها . ويذكر أحد قادته آمين أمحب حادثة طريفة وقعت للجيش المصري أثناء الحصار وتتلخص في أن أمير قادش قد لجأ إلى حيلة للايقاع بالجيش المصري اذ أطلق من داخل أسوار المدينة فرسا

لتتغلغل بين الاحصنة التي تجر عربات المقاتلين المصريين فيطاردونها وبالتالي تدب الفوضى في صفوفهم ، عندها قفز آمين أمحب من عربته ورمى الفرس بسهمه ثم قاد أفراد جيشه وتسلقوا سور قادش لاحتلالها . ويبدو أن الأسرة الحاكمة وغيرها من سكان قادش قد وقعت في الأسر .

بعد هذا التاريخ حافظت قادش على ولائها لتحوتمس الثالث ولم تذكر أية معارك معها . والغريب في الأمران الوثائق التي تعود إلى عصر تحوتمس الثالث قد تحدثت عن أمير قادش دون ذكر اسمه : وهكذا فعل خلفاؤه من بعده الذين حافظوا على علاقات جيدة مع قادش دون ذكر اسماء أمرائها .

ورغم هذه الأحداث التي مرت بها قادش حاولت دوما أن تدافع عن أرضها وعندما غزا شوبي لي ليدما الحثي (١٣٧٠ – ١٣٣٠) بلاد الشام وتقدم حتى نعيا (قلعة المضيق) . تصدى له ملك قادش شوتاترا وولده ايتاكاما إلى الشمال من حمص فهزما أمام الجيش الحثي الجرار ووقعا مع قوادهما في الأسر .

نقلوا جميعا إلى بوغاز كوبي العاصمة الحثية . وأثناء ذلك يبدو أن الوالد قد توفي وعاد الابن إلى عرش قادش بناء على طلب مصري كما نظن .

كان ايتاكاما من أقوى امراء بلاد الشام في القرن الرابع عشر وعلى وجه التحديد في عصر العمارنة . وقد تجنب الدخول في منازعات مع المصريين والحثيين ولكنه حاول توسيع مملكته على حساب الممالك المجاورة فاتجه نحو الجنوب إلى البقاع ومملكة أوفه (= دمشق) وذكرت رسائل

العمارنة أن امراء منطقة البقاع وخاصة (تعواني أمير لبلنة) (وعرزادي أمير روخزي) . قد طلبوا منه تخليصهم من حكم أمير أوفه ويول هذا على نفوذ ايتاكاما في تلك المنطقة . وعندما علم بيراوزه ملك اوفه بالأمر غزا قادش قبل أن تغزيه وأحرق كثيراً من مدنها فاشتكى الطرفان لفرعون مصر واتهم كل منهم الآخر ببدء الغزو . ولم يجد اتياكاما بدا من التحالف مع عزيروأو ازيرو ملك آمورو الذي أرسل عسكره إلى قادش .

ولا ندري ماذا جرى بعد ذلك لان الوثائق النادرة بين أيدينا ولان رسائل العمارنة غير مصنفة تاريخيا بحيث يمكن ترتيب تسلسل الأحداث بالنسبة اليها .

وهذا ما كان من أمر ايتاكاما مع مصر ومع جيرانه ، أما علاقاته مع الحثيين فكانت بين مد وجزر وكثيراً ما ذكر أن قادش كانت في عهد شوبي لي ليوما الحثي .

معادية أو صديقة له . وكانت علاقات ممالك آمورو في الغرب وتونيب ونوخشي في الشمال هي التي تتحكم في هذه العلاقات ، فان اعلنوا ولاءهم للحثيين سايرتهم قادش وان فترت علاقاتهم مع بوغاز كوي فترت علاقات قادش أيضا ومما لا شك فيه أن النفوذ الحثي لم يكن قويا في قادش ولم ترتبط معهم بمعاهدات كجاراتها .

ونعلم من حوليات الملك الحثي مورشيللي الثاني ان ايتاكاما قد اغتاله ابنه آري تيشوب وجلس مكانه على العرش في العام التاسع لحكم مورشيللي عندما اجتاحت القوات الحثية بلاد نوخشي إلى الشمال من حمص ووصلت إلى أبواب قادش .

ومن المرجح أن غرض هذه القوات كان احتلال قادش وأسر ملكها اتيا كاما ، فأقدم ولده على هذا العمل لتجنب دمار المدينة . .

لم يمنع هذا العمل القوات الحثية من دخول المدينة فدخلتها وأسرت آري تيشوب واقتادته إلى مورشيللي الثاني الذي كان يعسكر في بلاد أشتاتا إلى الشرق من حلب على الفرات . هناك عامله الملك الحثي بلطف وثبته على عرش قادش معلنا ولاءه لاسياده ملوك ختي .

لم يرق هذا العمل لفراعنة مصر بل حاولوا استعادة سيطرتهم على قادش وبلاد آموره فغزا سيتي الأول هذين البلدين وخلد ذكر انتصاره على قادش بنصب اقامه فيها وعثر عليه أثناء التنقيبات الآثرية .

جرت كل هذه الأحداث فوق أرض بلاد الشام بقصد السيطرة عليها من الحثيين والمصريين ولم تتقابل قوات الطرفين وجها لوجه حتى معركة قادش بين رعمسيس الثاني (١٢٩٠ – ١٢٢٤) ق.م وموواتلي في العام الخامس لحكم رعمسيس .

وصف المصريون والحثيون المعركة بشكل دقيق واعتبر كل منهما انه المنتصر . ومن تحليل الأحداث التي جرت بعد هذه المعركة مثل معاهدة السلام التي أبرمت بين الطرفين أي بين رعمسيس الثاني وختوشيلي الثالث زواج رعمسيس الثاني من أميرة حثية يتبين لنا أن النفوذ المصري قد امتد حتى الرستن شمالا . اذ قضت الترتيبات التي وضعت لسير موكب العروسة الأميرة من خاتوشة (= بوغازكوي) إلى مصر بان ترافقها

قوات حثية وأخرى من ممالك بلاد الشام الشمالية حتى مدينة أيو التي هي على الأرجح تل أيو إلى الجنوب من حماه حوالي ٧ كم . ثم تتولى مرافقتها قوات من مملكة اوفة (= دمشق) من آيو وحتى رفح .

لا شك أن قادش قد تعرضت لغزو شعوب البحر بلاد آمورو المجاورة ، ثم خضعت للآراميين ولم تعد عاصمة مملكة قوية بل تراجعت إلى مدينة عادية استمر فيها الاستيطان حتى يومنا هذا .

• • •

حول كتاب
"تاريخ حمص"
للمرحوم الخوري عيسى أسعد

محمود السباعي
عضو الجمعية التاريخية

يقول أحمد وصفي زكريا ، في كتابه / جولة أثرية في بعض البلاد الشامية/ عند كلامه عن زيارته لحمص« وإنّ أحسن من أجاب عن أسئلتي بين الحمصيّين كان الخوري البحاثة » « عيسى أسعد (١) » ، « ثم أروني رسالة موقوفة أدبية ، ظهرت سنة / ١٣٥١ هـ / اسمها « البحث ، في كل عدد منها مقال موجز عن تاريخ حمص ، للخوري عيسى أسعد المذكور آنفاً » « فأعجبني ورجوت له التوفيق لأنجازه(٢) » .

وقد جمع الخوري عيسى أسعد هذه المقالات ووسعها وجعلها في كتاب واحد صدر في حمص عن مطبعة السّلامة سنة١٩٣٩ بعنوان / تاريخ حمص / من سنة ٢٣٠٠ ق.م ـ ١٩٤٠ م . وقد قسمه قسمين :

الأول من / ٢٣٠٠ ق.م ـــ حتّى ظهور الإسلام .

والثاني من ظهور الإسلام حتّى عام ١٩٤٠ م .

---

(١)ص ٣٣٦ ، دار الفكر ١٩٨٠

(٢) المصدر نفسه ص : ٣٣٨

وتمكّن ، رحمه الله ، من اصدار الجزء الأول ، وباشر في الثاني ولكنّ الأجل لم يمهله لإنجازه فأكمله من بعده ابنه الأستاذ / منير الخوري / وقد نشر هذه السنة من قبل مطرانية حمص ١٩٨٤ . .

وهذه الدراسة تقصد إلى الجزء الأول أي تاريخ حمص القديم من أقدم أدوارها حتّى ظهور الإسلام واعتمدت في هذه الدراسة الطبعة الصادرة في حمص عن مطبعة السلامة ١٩٣٩ م .

إنّ أجمل ما يطالعك في أول الكتاب : أهداؤه إلى الخالدَين : العلاّمة عبد الحميد الزهراوي والذكي الفؤاد رفيق رزق سلوّم(٣) » مما يدلُّ على وطنيّته الصادقة وإحساسه القومي العميق .

ثم يورد أربع صفحات بعنوان / فاتحة الكلام / يعترف في نهايتها بالشكر لكل الذين ساعدوه؟ من « أصدقاء لهم صلة بالمكاتب الأوروبية والأمريكيّة الشهيرة فاجتمع عندي أضابير مما تبعثر » في مطاوي تلك الأسفار جعلته مادة لما نوّهت عنه(٤) » . ثم يتابع قوله : « وآن لي الآن أن اعترف بأنّ رهطاً كريماً من أفاضل السادة والإخوة والتلامذة أعانوني بما وصل إليه اجتهادهم وشجعونيّ بمتابعة البحث والتنقيب لبلوغ النتيجة التي تطالت اليها أعناق الحمصيّين خاصة ، وقراء الضاد عامة ، وأخص بالذكر من هؤلاء الأفاضل أربع شخصيات كبيرة لها وزنها في قسطاس العلم والتاريخ؛ إثنان منهم أمدّوني بمعلوماتهم الثمينة لأجل القسم الأول واثنان منهم آزروني لأجل القسم الثاني باختباراتهم

---

(٣) من شهداء / ٦ / أيار / ١٩١٦ الذين أعدمهم السفاح جمال باشا في دمشق .

(٤) ص . (٥)

السدّيدة وما خزن في ذاكرتهم القويّة وحافظتهم الواعية بما حُظر تدوينه فيما سلف .

فالأولان هما بطريركا للشرق الأرثوذكسي : العلاّمتان الكبيرتان : السيد الكسندروس الثالث : البطريرك الأنطاكي للروم الأرثوذكس الحاصل على أعلى شهادة لاهوتيّة علميّة : والسيد أفرام الأول البطريرك الأنطاكي للسريان الأرثوذكس الممتاز بتنقيباته الكثيرة ومطالعاته الوفيرة : أمّا اللذان ساعداني من أجل الجزء الثاني فهما صاحب الفضيلة إبراهيم أفندي الأتاسي وثانيهما المنقّب المجتهد المرحوم / محمد طه الدكّاف (١)/

ثم يلي ذلك تقسيم التاريخ الحمصي إلى قسمين : **الأول حمص قبل الإسلام والثاني حمص بعد الإسلام .**

مصادرهُ :

يبدأ القسم الأول بذكر / الينابيع التي ارتشفنا معلوماتنا عنها(٢) / أي المصادر التي رجع إليها ويرتّب تلك المراجع على النحو التالي :

١ً ــ الآثار (آرخيولوجيا) ويقسمها إلى :

الآثار الآشورية والآثار المصريّة :

٢ً ــ الأساطير (ميثولوجيا) ويذكر منها أساطير الكلدان / قصة شيشت / وأساطير مصر / أنبوو بانا / وأساطير اليونان / قصة بروميثيوس /

٣ً ــ قدماء المؤرّخين : ويورد منهم واحداً وخمسين مصدراً(٣)

---

(١) ــ ص / ٦ /

(٢) ــ ص / ١٤ /

(٣) ــ ص / ٢٨ /

بعضها أسفار من العهد القديم وبعضها لكتاب وشعراء يونان ورومان ويبدأ بيوسف العفيف / ١٧٤٥ ق.م — ١٦٣٥ ق.م / وهي قصة يوسف الواردة في سفر التكوين من الاصحاح (٣٧ —— ٤٨) وتنتهي بيوحنا الآسيوي / ٥٠٧ م — ٥٨٥ / م .

ويقول عنها في الصفحة / ٣٠ / « إن أسفار هؤلاء المؤرخين تبعثرت وأصبح كل منها في ناحية من الأرض يتعذّر على أيّ امريء مهما عظم شأنه أن يحتويها كلّها، وأنْ غيرَ الدّهر قد ألمّت بكثير من الموضوعات المشار إليها ولم يبق منها سوى فقرات حفظها كتّاب آخرون أحدث منهم عهداً بالوجود » .

فاذا كان الأمر كذلك فكيف تمكّن هو من الرجوع إليها ؟ ؟ مع جهله باللغات الأجنبيّة كلّها ! ! !

لا بدّ أنّ الذين أعانوه ، كما ذكر في المقدّمة ، قدّموا له هذه القائمة فأثبتها على علاتّها ، وقد نجد له عذراً في المصادر اليونانية واللاتينيه لأنه يجهلها ولكن أسفار العهد القديم معرّبة وكان بوسعه، قبل اثبات الأسفار في قائمة المصادر ، أن يعود إلى تلك الأسفار ويتحقق من كلامها عن حمص ! ! ! .

وقد قمت بالرجوع إلى عدد من الأسفار أخذتها من القائمة ، لا على التعيين ، وهي : سفر يوسف العفيف ، والواقع أنه ليس سفراً بل مجموعة من الإهتمامات تتضمن قصة يوسف من أولها حتى وفاة والده يعقوب / اسرائيل / كما أشرت إلى ذلك سابقاً ، فلم أجد فيها لا من

قريب ولا من بعيد ، ما يشير إلى حمص وكذلك في سفر يشوع ابن نون أما سفر صموئيل النبي فقد ذكر كلمة / صوبه / .

ومع ذلك فهو يذكر في الصفحة / ٣٢ / « ولكن الآثار لم تذكر حمص باسمها الحالي الا حوالي الميلاد » وفي الصفحة / ٣٧ / تحت عنوان اسم حمص يقول « إنّ لفظ حمص لم يرد في التوراة ولا في الآثار القديمة قبل القرن الرابع للميلاد» وإذن فَلِمَ تذكر مصادر ليس فيها ما يشير إلى حمص ؟ ؟ ! .

طريقته في التأليف :

لقد قسم تاريخ حمص إلى عشر حِقَبٍ وبعد أن ينهي الكلام عن الحقبة ويذكر فيها الأحداث التي جرت في الهلال الخصيب كلّه ، يضع في آخر الحقب ملخصاً لما ذكره تحت عنوان / خلاصة ما تقدّم / ثم يذكر تحت عنوان « المُلمِعون إلى هذه الحِقبة » أسماء المؤرخين وتفاصيل حياتهم ولم يذكروا حمص وبلغ مجموع هذه الحقب عشراً. الحقبة الأولى من ٢٣٠٠ ق.م ــ ١٩٠٠ ق.م : حمص في أيام الروثان والعمالقة والآموريين : وهنا ترد الأخطاء التالية :

آ ــ الروثان اسم أطلقه المصريوّن على الآموريين سكان سورية وقد وردت الكلمة في قصة سنوحي .

وكان الآموريون ضخام القامات « تبدو قاماتهم في المباني الأثرية طويلة عسكرية ولا بد أن حجمهم وحضارتهم أثرا على سكان الكهوف القصار القامة والبدائيين في جنوبي سورية حتى إنّ الأساطير قامت تتحدث عن جيل من الجبابرة أتى وتزاوج مع بنات الإنسان ؛ وانتقلت

هذه الأساطير إلى الاسرائيليّن(١) » . فاطلقوا عليهم اسم العمالقة وأنزلوهم في جدول الأنساب الوارد في سفر التكوين ونسبوهم إلى / عماليق / أحد أولاد / لاود / « لود » . كما نسبوهم في مكان آخر إلى عماليق حفيد عيسو(٢) .

ووصفهم سفر عاموس « بانّ قامة الآموريين كانت مثل قامة الأرز وانهم أقوياء كالسنديان(١) » .

وهكذا ترى أنّ الروثان والآموريين والعماليق هم ثلاثة اسماء لمسمّى واحد وليس كما ادّعى صاحب الكتاب .

ب – عند محاولته العثور على أصل اسم / حمص / واشتقاقه يفترض عدة فرضيات ثم يخلص إلى القول « إنّ أول ما استوطن من / حمص / إنما هو التلّ الذي أصبح بعدئذ قلعة ، والحصن يدعى بلغة قدماء الشرقيين / ولم يعيّنهم / حامات ثم ولما بنى بعضهم المساكن في المنبسط الموازي القلعة دُعيت تلك المنازل / صوبا / وهي باللغات السّامية / محلّة / فلما ازداد عدد المنازل وصارت بلداً أهمّ من القلعة صارت القلعة مضافاً والبلد مضافاً إليه فدعيت : / حامات صوبا / وذكرت بهذا اللفظ نفسه بالتوراة / ٢ أي ٨ : ٣ ولما صار هذا اللفظ المركّب علماً للمدينة نحتته الألسن فصار / حميصويا / واقتصر العرانيون على شطره الأخير فقالوا / صوبا / واختار اليونان الشطر الأول وخففوه فصار / اميسا وأخذ الشرق معظم معلوماته عن اليونان ومنها هذا اللفظ الذي عرّبوه فصار حمص » ! ! ! / ص ٣٨ /

---

(١) – حتى تاريخ سورية ولبنان وفلسطين : ج ١ ، ص (٨٢)

(٢) تكوين : ٣٦ : ٩

(١) – عاموس : ٢ : ١٠

انّ هذا الاستخراج واللفّ والدوران للوصول من صوبا إلى حمص لم تتعرّض له أية مدينة في الهلال الخصيب كلّه نعم قد يتغيرّ اسم المدينة كاملاً ، كما حدث في عهد السلوقيين ، فقد أطلقوا على بيروت اسم / جوليا ، وغوستا فيلكس / وعلى بعالبك هليوبوليس / ، وعلى عكّا / بتوليمايوس / وعلى حماة / ايبفانيا / .

ولكن هذه الأسماء المستحدثة زالت مع زوال حكم السلوقيّين وعادت إلى المدن المذكور أسماؤها القديمة .

أمّا أن يُنحت اسم حمص من / حماة صوبة / ويتحوّل هذا التحول فأمر عجيب لا نظير له ويبدو التكلّف واضحاً فيه .

إذا رجعنا إلى كتابات المؤلّفين المحدثين نرى أنّ جدول الأنساب الوارد في سفر التكوين ليس علمياً إطلاقاً وهو من باب الأساطير . فالدكتور فيليب حتيّ يقول « إنّه ليتضح أنّ التاريخ الذي كتبه العبرانيون ، عمّا سبق الدور القبلي ، ليس بتاريخ وليس من السهل استخلاص لب الحقائق التاريخيّة من المرويات التي تتعلّق بالدور القبلي نفسه(٢) » .

ويقول أيضاً « انّ التفسير التقليدي الذي يذهب إلى أن الساميّين قد تحدّروا من كبير أبناء نوح (أي سام) لا تؤيده الأبحاث العلمية الحديثة(١) » وهذه إشارة لطيفة وصريحة إلى عدم صحة سلسلة الأنساب الواردة في سفر التكوين .

---

(٢) – حتي تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ١ ص / ١٩٢ /

(١) حتي تاريخ العرب (مطوّل) ج ١ ص (٩)

ثم لو عدنا إلى اسم / صوبة / لرأينا أنّ المطران غريغوريوس صليبا شمعون رئيس أساقفة الموصل للسريان الأرثوذكس يقول في كتابه الممالك الأراميّة ص (٣٧) أنّ مملكة صوبا هي البقاع حالياً » كما يقول أيضاً الدكتور حتّي . إنّ صوبة عاصمة مملكة آراميّة تحمل الأسم نفسه » ، كتونس والجزائر مثلاً ، « والكلمة مشتقة من Sehaluch بمعنى أحمر أو نحاس ويظنّ أن موقعها في كالسيس أو عنجر الحديثه جنوبي زحلة في البقاع » (٢) .

فكلمة / صوبا / إذن آراميّة وهذا اللفظ قريب من الجزر العربي صَهِب صهوباً الشّعْرُ إذا كانت فيه حمرةٌ أو شقرةٌ .

ويستشهد صاحب تاريخ حمص بان / حماة صوبة / وردت في التوراة / ٢ أيام ٨ : ٣ / « وذهب سليمان إلى حماة صوبا » وهي التي بشرها بانها حمص .

ولو عدنا إلى قاموس الكتاب المقدّس(٣) لرأينا أنّ القاموس بشرح كلمة / صوبا / الواردة في صموئيل الأول ، كما يلي وظنّ بعضهم أنّ صوبا هي حمص ، أمّا « حماة صوبا » فيقول عنها القاموس المذكور (مملكتا حماة وصوبا المتجاورتان أو مكان صغير يدعى حماة مملْك لمملكة صوبة(٤) وهكذا نرى أنّ كل محاولات المؤلف التي بذلها للبحث عن أصل حمص وساكنيها هي استنتاجات شخصية لا سند تاريخياً لها مطلقاً .

---

(٢) حتّي تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ ١ ص / ١٧٨ /

(٣) الطبعة السادسة / ١٩٨١

(٤) قاموس الكتاب المقدس مادة / حماة / ص / ٣١٦ /

وكلّ ما كتبه في بقية الحِقب حتّى نهاية الحِقبة الخامسة قائم على أساس أنّ / حماة صوبا هي / حمص ويشير اليها / بالمنطقة الحمصيّة/ فتنتهي هذه الحقبة في الصفحة (٢٥٧) وحتّى هذا أن أكثر من نصف الكتاب ليس فيه أي ذكر لحمص وإنما / لحماة صوبا / وهذه غير حمص كما رأينا . واذن فليس لدينا شيء موثوق عن حمص خلال تلك الفترة ، ويبدوا أنه ضاق ذرعاً بعدم من يشير الى حمص من قريب أو بعيد فانقلب حبّه لمدينته ورغبته في تخليدها على أمانته العلمية فيذكر حين الكلام عن معركة / مجدو / سنة ١٨٦٤ ق.م بين تحوتمس الثالث وبين المخالفين ضدّه ، وعددهم / ٣٥٠ / أميراً أنّ ملك حمص ، ولا يذكر اسمه ، قد أوجد اتحاداً بين إمارات الشام كلّها (ص : ٨٦) أمّا الدكتور فيليب حتيّ فيذكر « أنّ المخالف كان أمير قادش على العاصي رئيسه(١) » وينقل ذلك عن براستد وهو مؤرخ أمريكي ثقة جداً في تاريخ مصر ، وتكرر ذلك عند كلام عن معارك في سهول حمص في عهد البطالسة ص /٢٤٢/ فهو ينقل عن سفر المكابيين لأول الآية / ٢٤ / كما يذكر بعضها وأخلص يوثاثان له (أي لـ أنطيوخوس نيوس) وحارب القوّة التي جمعها ديمتريوس بمعركة حدثت في سهول حمص (١ ملك ١٢ : ٢٤) .

وعندما رجعتُ إلى سفر المكابيّن الأول وجدت أنّه يذكر في الآية / ٢٥ / فخرج ، أي يوثاثان من أورشليم ووافاهم في أرض حماة ولم تـمهلهم أن يطأوا أرضهم(٢) » وهذا تحريف لا نرضه له ويأخذ على مؤلّف سفر الملوك الثاني الحاقه / ربلة / بحماة (ص ١٨٦)

(١) حتى تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين جـ (١) ص / ١٤٠ /

(٢) الكتاب المقدس العهد العتيق ، الطبعة الكاثوليكية ، بيروت / ١٩٦٠ /

ويستنتج أن المدينتين حمص وحماة كانتا تحملان اسماً واحداً وهذا من اختراع خياله كما رأينا .

ج ـ وفي الحقبة الرابعة من تاريخ حمص عندما يتكلم عن الكلدانين ص / ١٧٣ / يقول : « هم احدى الأمم القديمة في التاريخ وجدت في العراق العربي ونشأت كأمه ودولة في القرن الثالث والعشرين ق.م ومؤسسها حسب التقليد المتناقل نمرود الجبار وأقدم دولها الدولة الأكادية» ودارسوا التاريخ الآن ، يعرفون أن الأكاديين غير الكلدان . فالأكاديون هاجروا من الجزيرة العربية مع الآشوريين حوالي / ٣٥٠٠ / ق.م وأقاموا دولة عاصمتها / أكاد / وأبرز ملوكها صارغون الاكادي مؤسس أول امبراطورية عربية في الهلال الخصيب كله .

وهاجر الآموريون من الجزيرة العربية أيضاً بعدهم بألف سنة أي حوالي / ٢٥٠٠ / ق.م وأقاموا دولتهم وأنشأوا عاصمتهم بابل ومنهم حمورابي المشرع العظيم ، وتسمى دولتهم الدولة البابلية الأولى ، أما الدولة البابلية الثانية فأقامها الكلدان وهم آراميون ، بعد تأسيس بابل بألفي سنة ، إذ أسقطوا الدولة الآشورية وأقاموا دولتهم الكلدانية وفي عهد ملكهم بختنصر تم القضاء على مملكة يهودا وسقوط أورشليم سنه / ٥٨٦ / ق.م وماتلا ذلك من السبي البابلي ، والقضاء على مملكة يهوذا ، وفي سفر التكوين أول ذكر لهذا الخلط بين الدولتين : فقد ورد في الأصحاح الحادي عشر الآية / ٢٨ / ومات هاران، قبل تارح أبيه ، في أرض بلاده اور الكلدانيين وأور / مدينة سومرية وجدت قبل الكلدانيين بثلاثة الاف سنة / ٣ / وخضعت للأكادين كما خضعت المدن الأخرى .

---

(٣) قصة الحضارة ، ويل ديورانت ج / ٢ / ص / ١٦ /

ونحن لا نحمل المؤلف مسئولية هذه الأخطاء التاريخية لانّه نقلها عن مصادر ذكرها ، ولكن نأخذ عليهم التحريف الذي لجأ إليه ، كما ذكرنا آنفاً باستبدال حمص بحماة وقادش .

حـ وفي الحقبة السادسة تحت عنوان حمص في أيام حكومتها الوطنية من سنة ٨٠ ق.م – ٧٩ م يربط بين قيام الحكومة الوطنية في حمص وبين ثورة اليهود على الدولة اليونانية ، كما يسميها والأصح السلوقية . ثم يبدأ بذكر تاريخ اليهود بعد عودتهم من السبي فاستغرق ذلك منه ثلاث عشرة صفحة ، بينما تكلّم عن تاريخ حمص المستقلة في عشر صفحات فقط . ومما يلفت النظر محاولته في الصفحة (٢٧١) ايجاد الشبه بين اليهود وبين أهل حمص في عدة نقاط اجتماعية أو أخلاقية سهلت تفاهمهم وسيرهم في طريق واحدة أو متابعة بعضهم بعضاً» وبني على ذلك وجود صلتين احداهما سياسية والأخرى / قوميّه / ! ! فالأولى خضوعهم لدولة واحدة والثورة ضد هذه القوة والثانية تعصّب كل من اليهود وأهل حمص لقوميتهم ! ! ! ثم بذكر صلة ثالثة بين بين اليهود وبين قاطني المنطقة الحمصيّة : هي رابطة المصاهرة بين إحدى الأسر الناهضة في حمص ، ولا يسمي تلك الأسرة ، وبين احدى الأسر اليهوديّة / حمص ٢٧٢ وبنقل ذلك عن / المباحث / ٤ / ص / ٢٦٨ .

لقد كتب هذا الكلام في الثلاثينات ، وكانت القضية الفلسطينية قضية العرب القومية واندلعت خلالها الثورات الكبرى في فلسطين ضد اليهود الذين كانوا يقرضون الأراضي الفلسطينية منطقة منطقة ويتدفق مهاجروهم على فلسطين سراً وعلناً ، فهل كتبت تلك الفقرة

التي تشير إلى حسن العلاقات مع اليهود لتخفيف نقمة الشعب العربي ضد اليهودية والصهيونية ؟ ؟ ؟ لقد سمعت عن المرحوم الخوري عيسى أسعد أنّه كان ماسونياً ولم آبه للأمر عندئذ وتكرر ذلك أثناء حديث جرى مع أحد الزملاء في الربيع الماضي في قاعة مدير المركز الثقافي وأكدّ لي المتحدث ذلك وعندما قرأت الفقرة المنوه عنها تأكدت من انتسابه إلى الماسونيّة لان المشكّلة بين المأسونيّة والصهونية لم يعد يجهلها أحد ولعل الذين أشار اليهم في المقدمة بأنهم ساعدوه هم من الماسونين وقدّموا له تلك المعلومات فقبلها بطيبة قلب دون أن ينظر إلى ما كان يفعله اليهود في الثلاثينات في فلسطين . ولا نجد كلمة ضدّهم في الكتاب بل مدحاً لدرجة أنه ذكر : إذا اعتبرنا في تاريخ اليهود مالديهم من الكتب القديمة والآثار الباقية حكمنا بأنه لا توجد أمة من أمم الأرض تملك من تاريخها مثل ما يملك بنو اسرائيل من الأسانيد والأعلام ص / ٢٥٨ / ونحن نكتفي بالرد عليه يقول المستشرق الألماني / زاغا و ED.Sachaue (١)« إنّ العرب كتبوا في التاريخ أكثر مما كتبته أمم الأرض كلها » .

وكم كنت أتمنىّ أن يَخْلو كتابة من تلك الصفحات ، علماً أنها تؤرخ لليهود بثورتهم وتجعل أهل حمص مقلديهم في ذلك ! ! ! ولا تثير شيئاً مهماً من تاريخ حمص ! ! !

ء ـ في الحقبة الثامنة تحت عنوان حمص في أيام التدامرة (٢٣٦ ـ ٢٧٣) يستهلها بقوله« في هذه الحقبة كان لحمص صلة قريبة جداً / بالانباط قاطني تدمر / ورافعي لواءها عالياً » ص ٣٤٤ .

---

(١) محاضرات الدكتور كامل عياد للعام الدراسي / ٩٤٧ ـ ١٩٤٨ / في كلية الأداب قسم التاريخ .

وهذا خطأ تاريخي محض لأن الانباط كانت دولتهم في جنوب شرقي الأردن الآن وعاصمتهم البتراء ولم يقطنوا / تدمر / قط .

ثم يتكلم عن تاريخ الأنباط في ثماني صفحات لا علاقة لها بحمص من قريب أو بعيد . وفي آخر الصفحة / ٣٥١ / يضع عنواناً : / دولة التدامرة / يتكلم فيه عن العلاقة بين تدمر والأنباط ويتساءل عن أصل سكانهما أعرب هم أم آراميون .

ثم يضع عنواناً . / تدمر / ويقول عنها : « أما تدمر قاعدة أنباط التدامرة ؟ ؟ ؟ ! ؟ فهي مدينة قديمة العهد جداً ورد ذكرها في التوراة (آية ٩ : ١٨ و ٢ أي ٨ : ٤ وذكر ثمة أنّ بانيها سليمان بن داود ؛ وهو يشك بذلك : فيقول ولعلّ المراد بذلك أنه حسّنها وزاد في أبنيتها .

والواقع أنّ سليمان لم يرَ تدمر ولم تطأ قدماه أرضَها قط ، فالدكتور عدنان البني نال شهادة الدكتوراة من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة القديس يوسف بيروت على رسالة (تدمر والتدمريون) وبإشراف الأستاذ الدكتور نقولا زيادة . وقد ناقشته بتاريخ ١٧ / آذار ١٩٧٨ لجنة برئاسة الدكتور قسطنطين زريق ، وعضوية الأستاذ الدكتور نقولا زيادة والأستاذ الدكتور ديمتري برامكي والأب الدكتور بوزيه . ونال على تلك الرسالة مرتبة الشرف الأولى وذكر في الصفحة / ٦٨ / عند الكلام عن : تدمر قبيل الفتح الروماني « كانت تدمر مدينة زاهية ويرى جونز « أنّ خطأ مؤلف « أخبار الأيام » بنسبة تأسيسها إلى سليمان يدل على أنها كانت مركزاً هاماً في أيامه أي في القرن الرابع ق.م على الراجح » وهذه إشارة أخرى واضحة وصريحة على أنّ ما جاء من معلومات

تاريخية في العهد القديم يجب أن ينظر إليه بعين الشك لأنَّ كتبة الأسفار كتبوها وفق أهوائهم وتصرفوا بالأحداث وفق ما يريدونه .

لو كان هناك شك في ذلك لاعترضته اللجنة ويؤيد ذلك الدكتور أنيس فريحة فيقول « لم يستطع العبرانيون بتثبيت أقدامهم شمالي جبل الشيخ . فان / دان / منطقة الحولة كانت أقصى حدودهم الشمالية ، وحاولوا ، زمن النبي / داود / إخضاع « آرام دمشق » فلم يفلحوا(١) » وهذا يعني أن سليمان لم يصل تدمر ولم يرها انَّ حمص كانت موجودة في عهد السلوقيين ، وخير دليل على ذلك الكتابات اليونانية المنقوشة على حجر الوعر الأزرق المعروف باسم / البازالت / والتي لا تزال منه قطع موجودة في بعض المباني القديمة منها على سبيل المثال القطعة التي تعلو باب جامع أبي لبّادة في حي السباعي .

ويتضح تاريخ حمص في عهد أسرة سمسيغرام في القرن الأول قبل الميلاد ثم يزداد وضوحاً شيئاً فشيئاً بعد الفتح الروماني ، / ٦٤ / ق.م لا سيّما في عهد سفيروس الذي تزوج جوليا دومنه بنت كاهن حمص ثم أصبح أمبراطوراً . وخلّف عدداً من الأباطرة في هذا الاستعراض لا ترى أثراً لحمص في العصور القديمة فمن أين جا. اسمها ومتى نشأت في رأينا أنّ الذين بنوها اسموها / حمص / مباشرة ، وهناك في لبنان قرية تابعة لقضاء عاليه اسمها / حمص Hums / ويفسرّ الدكتور أنيس فريحة معناها أنها تعني في جملة معانيها الخجل / وبما من اللون الأحمر (١) /

(١) أنيس فريحة أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها : المقدمة : حاشية الصفحة / ٤٩ / (×) (×) بيروت ١٩٥٦

(١) انيس فريحة : اسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانوا بيروت ٩٥٦ ص / ١١٣ /

ونحن نعلم أن تربة حمص الزراعية حمراء تختلف عن التربية الزراعية في حماه وأنّ جذر الكلمة كنعاني . أو فينيقي ولعلّ الذين بنوها أطلقوا عليها هذا الاسم بسبب لون تربتها الزراعية ، كما فعل الآراميون عندما أطلقوا كلمة / صوبا / على مملكتهم وعاصمتها في البقاع ، كما مرّ بنا ذلك سابقاً . ولا تدري من بنيت قبل الأخرى .

وفي رأينا أن هذا الغموض الذي يلفّ حمص وتاريخها في العصور القديمة مصدر الكوارث البشرية والطبيعية ، فالأخيرة هي الزلازل التي هدمت المدينة عدة مرات وأشهرها الزلزال الذي وقع سنة ٥٢٢ هـ . في عهد نور الدين زنكي ، ثم الكوارث البشرية فهي تلك الغارات التي كانت تشنّ عليها من الروم البيزنطيين كغزوة الأمبراطور نقفوروفوكاس (٩٦٨ م) ثم غزوة / باسيل / ٩٩٠ م . « ثالثة الأثافي كانت عندما غزاها دوق انطاكية سنة / ٩٩٩ / م . فنازلوها ولجأ بعض أهلها إلى كنيسة / مار قسطنطين / تحرّماً بها فأحرقوها بمن فيها ، فهذا الخراب والحرق اللذان كررهما الروم ثلاث مرات مترادفات أجهز على عمران حمص القديم بالكليّة وحرماها المعابد العظيمة والقصور الضخمة والآثار القيمة التي كانت تزدان بها في عهد الرومانيين والأمويين » حتى وصفها شيخ الربوة شمس الدين الدمشقي في القرن العاشر الهجري أو الرابع عشر الميلادي بأنها / مدينة فوق مدينة / إشارة إلى تكرار عمران حمص بعد كل خراب كان يعتريها ، فالجفّال الراجعون بعد الحروب والزلازل كانوا لضعفهم ولاسراعهم بتدبير المأوى لأنفسهم . لا يستطيعون رفع الأنقاض فيبنون فوقها(٢) .

---

(٢) جولة أثرية أحمد وصفي زكريا ص / ٣٣٤ /

وهكذا ترى أن حمص تحوي تاريخها في أحشائها،وطبعاً لا يمكن هدم المدينة لمعرفة تاريخها ولكن يمكن أن ننتظر عملين قد يغيران شيئاً من غموض تاريخها الأول أن تقوم المديرية العامة للآثار باجراء سَبرٍ طبقيٍ لتل القلعة لعل ما قد يوجد فيه من لقى يساعد على تحديد عمره وبالتالي عمر المدينة .

وأما الثاني نشر الرقم التي وجدت في / ابيلا /فلعل بها إشارة إلى مدينتنا المحبوبة . ووالله ما سرت في احيائها القديمة إلاّ تذكرت . قول أبي العلا المعرّي :

خفف الوطء مـــــا أظنُّ أديم الأر
ض إلاّ مـــــن هذه الأجســـاد

وعلى كل حال فانّ الكتاب ، على علاته ، يعدّ مبادرة شجاعة لاثارة تاريخ حمص حسب المعلومات التي وفرّها له أصدقاؤه وتلامذته : وفيه زاد ثقافي يتعلق باسماء الشعراء والكتاب والعلماء والفلاسفة القدماء مع لمحة عن حياتهم وذكر لمؤلفاتهم ، ولعله أيضاً يكون حافزاً للجيل الجديد على إعادة كتابة تاريخ حمص وعلى ضوء ما يستجد من مكتشفات أثرية وأبحاث تاريخية ويبقى للمرحوم الخوري عيسى أسعد الفضل لأن الفضل للمتقدّم والسلام عليكم .

حمص في ٢٧/١١/ ١٩٨٤

محمود عمر السباعي

حمص :
واسهامها الفني والجمالي في العصر الهلنستي والروماني

بشير زهدي

تحدث الجميع عن (حمص) وأهميتها كمدينة قديمة ذات حضارة وتاريخ عريق يعتبر جزءاً من تاريخ قطرنا ووطننا العربي الكبير .

وإذا كان المؤرخون لم يتفقوا علمياً على حقيقة اسم مؤسسها . فإن الباحثين يؤكدون أهمية موقع حمص (في مفترق طرق المواصلات العالمية وخصب تربتها ، ونشاط سكانها . كل ذلك مما أسهم في تأسيس مدينة (حمص) الجميلة في هذا الموقع الجغرافي الهام الذي تعاقبت فيه عدة مدن قديمة في حمل شعلة الحضارة الإنسانية مثل : —

— قادش / تل النبي مندو ، ذات الموقع الحربي الحصين . . .

— قطنة : Katna / مشرفة ، ذات الأهمية التاريخية والأثرية . . .

— ماريامون / مريمين ، التي تدل آثارها ولا سيما لوحة فسيفساء فرقة موسيقية على أهميتها التاريخية والحضارية اعتقد أن اسم (حمص) أحدث عهداً من تاريخ أنشائها وتأسيسها وقد ظهرت في العصر الهلنستي

أهدي هذا البحث العلمي المتواضع إلى مدينة حمص العربية الجميلة وسكانها الكرام مع فائق الاحترام

وازدهرت كثيراً في العصر الروماني . وقامت بدورها العربي الكبير في عهود الغساسنة والبيزنطيين والعرب المسلمين وعصرنا الحاضر .

وكان كثير من قدماء المؤرخين والمفكرين قد تحدثوا عن حمص وأهميتها الحضارية مثل : -

- آميان مارسيلان Ammie - Marcelli : الذي أكد بأن حمص تعود إلى قرون سابقة .

- بوزيد ونيوس : الذي تحدث عن حمص كامارة .

ان الأراضي الواسعة الممتدة من حوض العاصي حتى حوض الفرات والمعروفة باسم (بارابوتاميا) (Phrapota Mia) كانت في كل العصور بمثابة أراضي مملكة عربية واسعة مستقلة يقيم فيها العرب ويمارسون فيها سيادتهم وفعالياتهم الاقتصادية ونشاطاتهم الثقافية .

وان أهمية موقع (حمص) جذبت قدماء العرب اليه . فأقاموا فيه خيامهم التي استعاضوا عنها فيما بعد تدريجيا بمساكن حققت لهم حياة الاستقرار باستمرار . فتمتع هذا الموقع الهام الجميل بالأعمار واستمرار الازدهار والجدير بالذكر أن قدماء عرب المنطقة كانوا قد اتخذوا موقع (الرستن (كحصن منيع لهم . . . وكان عدد عرب المنطقة وتزايد قوتهم ونفوذهم وفعالياتهم ونشاطاتهم مما جعلها ذوي السلطة الحقيقية فيها . حتى ان الملوك الساوقيين في العصر الهلنستي كانوا يستعينون بهم ويعتمدون عليهم في تحقيق انتصاراتهم على خصومهم وتجدر الاشارة بهذه المناسبة إلى الملك السلوقي (اسكندر بالا ١٥٧ - ١٥١ ق.م) وحذره من نتائج عنف خصمه (ديمتريوس نيكاتور ١٢٩ - ١٢٥) مما جعل اسكندر يعهد بابنه انطيوخس إلى أحد رؤساء قبائل حمص المعروف

باسم (جامبليق / ياملك) وكان هذا الشيخ العربي الوقور الأصيل يقيم مع قبيلته قرب (أفاميا) فخص الفتى الأمير السلوقي بكل رعاية . وقد صدق حدس (اسكندربالا) اذ انتصر خصمه (ديمتريوس نيكاتور) في عصر انحطاط وتمزق ويأس ومعاناة . فطالب (ديود وتوس) (Diopotos) الأفامي الشيخ العربي بالفتى (انطيوخس) لمساعدته لاستعادة عرش ابائه فوافق الشيخ العربي ولكن (ديمتريوس نيكاتور) تمكن من القضاء على (اسكندربالا) عام ١٤٣ ق.م . والانتصار على (ديود وتوس الأفامي) . . . الخ كل ذلك مما يوضح أهمية نفوذ العرب وقوتهم في هذه المنطقة في العصر الهلنستي .

ويذكر المؤرخون أيضا أن آخر الملوك السلوقيين (انطيوخس الثالث عشر) كان قد أرسل من قبل أمه (كليو باترا سيلينه C . Sélé Né) إلى روما مما جعله ذا صلة بالرومان حتى ان (شيشرون) دعاه بلقب (صديق وحليف الشعب الروماني) . ولكن ذلك كله لم يجنبه من صعوبات أثارها ضده (فيريس Ve Rrés) وعندما أصبح (لوكولوس) سيد آسيا الصغرى عام ٧٠ ق.م وتمكن من طرد (تيجران الأرمني) انطاكية وعد (انطيوخس) عام ٦٩ ق.م بتاج آبائه السلوقيين ولكن هذا الأمير السلوقي (انطيوخس) لم يتمكن فعلا من اعتلاء العرش السلوقي باسم (انطيوخس الثالث عشر) إلا بدعم العرب وتأييدهم ولا سيما بمساعدة أمير حمص (شمسيجرام) من السلالة العربية الحاكمة في حمص .

والجدير بالذكر أن أبناء حمص تميزوا بالوطنية والشجاعة ويذكر التاريخ عنهم قصص حوادث بطولية هامة كقصة شجاعة الشاب

الحمصي (ليبتين libtine) الذي قلق من خطر تزايد نفوذ الرومان في القرن الثاني الميلادي بعدما كانوا قد قضوا نهائياً على مملكة قرطاجة العربية الفونيقية وقد أخذوا يزعمون مزاعم مختلفة ويحرقون السفن ويقضون على الفيلة التي كانت من عناصر قوة الجيش السوري في العصر الهلنستي . . . فأثارت تصرفاتهم استياء الجميع مما جعل الشاب الحمصي (ليبتين) يهجم على رئيس الوفد الروماني (أوكتاف) ويصرعه بصفعة شديدة ذهبت بحياته . . . وقد استطاع هذا الشاب الحمصي الجريء أن يختفي بين المحتشدين فاستاء الرومان من هذا الحادث واتهموا وقتئذ خصمهم (ليسياس) بما حدث .

سلالة شميسجرام العربية الحاكمة في حمص : —

ان اسم (شميسجرام) في نصوص من العصر الهلنستي والروماني يدعونا إلى دراسته فهو مؤلف من (شمس + جرم) وربما كان يفيد (الحاكم باسم رب الشمس) .

كان (شمسيجرام) من زعماء القبائل العربية في المنطقة وربما كانت قدراته الذاتية وصفاته الأخلاقية من أسباب شهرته كأكبر زعيم عربي في المنطقة استطاع أن يفرض احترامه على الجميع ويجعل الملوك السلوقيين أنفسهم في العصر الهلنستي يتقربون منه ويستعينون به ويعتمدون عليه مما أسهم جدياً في تأسيس سلالة عربية حاكمة في حمص في بداية القرن الأول قبل الميلاد حتى نهاية القرن الأول الميلادي في عهد الأمبراطور (دوميسيان ٥١ — ٩٦ م) .

وبحسب تقاليد ذلك العصر كان (شمسيجرام) كبير سدنة (معبد الشمس) في حمص يتمتع بسلطة روحية ومدنية . وقد تحدث عنه عدة

مؤرخين في عدة مناسبات ، واهتم بدراسة آثار سلالته العربية الحاكمة في حمص عدة علماء اثريين ورحالة وجغرافيين مثل : —

— المؤرخ والجغرافي (سترابون ٥٨ ق.م — ٢٥ م) الذي ذكر اسم (شمسيجرام) في حديثه عن حصار (أفاميا) وان القائد فيها استنجد بالزعماء المحليين ولا سيما (شمسيجرام ومن بعده) جامبليق بن شمسيجرام في الرستن) .

— في العالم الآثاري (واد نجتون) الذي قرأ كتابة منقوشة والمتعلقة بـ (سيلا Sylla) الذي اقتحم مدينة (ليسيا) المجاورة لمدينة (أفاميا (. . .

وفي الواقع كان (شمسيجرام) أميراً عربيا وزعيما كبيراً ، حكم حمص وقلعة الرستن وان قوته الحربية أتاحت له امكان قمع الفتن الداخلية في العاصمة السلوقية (انطاكية) في عهد ملكها السلوقي (انطيوخس الآسيوي الذي طلب منه النجدة والمعونة . . .

وبعدما قضى الرومان نهائيا على الحكم السلوقي في سورية عام ٦٤ ق.م أدركوا أهمية قوة العرب في المنطقة أو امكانات (شمسيجرام) وحاجتهم إلى الهدوء في هذه المنطقة . . . كل ذلك جعلهم يتقربون من هذا الأمير العربي ويعترفون بسيادته على هذه المنطقة العربية الواسعة وبلغ الأمر بسكان روما درجة جعلتهم يلقبون هذا الأمير العربي الشجاع بلقب (صديق الرومان) .

كان (شمسيجرام الأول) معاصر للخطيب الروماني المشهور (شيشرون ١٠٧ — ٣٣ ق.م) الذي ذكره في احدى رسائله ، وشبه القائد الروماني (بومبه) به وذلك على سبيل التشبيه الأدبي .

وبعد وفاة شمسيجرام الأول استلم الحكم ابنه (جامبليق) الذي تطلبت ظروف عصره انضمامه إلى (ماركوس انطونينوس في نزاعه ضد خصمه (اوكتافيوس) ويبدو أن ماركوس انطونينوس (خشي جانب (جامبليق) مما دفعه إلى القضاء عليه والتخلص منه عام ٣١ ق.م .

تولى حكم حمص (اسكندر بن شمسيجرام الأول) الذي كان موضع ثقة (ماركوس انطونينوس) حتى أنه اوفده بمهمة مقابلة (هيرود ٣٩ ق.م — ٤ ق.م) وعمل كل ما من شأنه أبعاده عن تأييد خصمه اوكتافيوس ولكن النزاع بين (انطونينوس) و (اوكتافيوس) انتهى بانتصار (اوكتافيوس) في معركة (اكتيوم) عام (٣١ ق.م) مما أثار قلق (اسكندر) الذي قضى عليه بنفيه إلى روما واغتياله فيها .

ظلت حمص بدون حاكم وطني محلي يرعى شؤونها ويتولى أمور ابنائها حتى عهد (تيبريوس ١٤ — ٣٧ م) فأصبح (جامبليق الثاني) ابن (جامبليق الأول) حاكم حمص عام ٢٠ م ، ووجد بذكائه ودهائه ضرورة اتخاذ موقف جديد مناسب مما اسهم في جعل مملكته تنعم بالازدهار والاستقرار في عهده الذي اعتبر بمثابة العصر الذهبي مملكة حمص .

ثم تولى الحكم (شمسيجرام الثاني) الذي تصفه كتابات أثرية عثر عليها بصفات الملك العظيم والمجيد C . Jvlivsregis S ambigeamc . Gavro ويبدو ان الظروف المختلفة تطلبت منه القيام بعدة لقاءات مع الحكام والملوك المعاصرين مثل (آجريبا) في طبرية وغيرها . . . وقد تم زواج ابنته (يوتاب) من ارسطو بولس

(ثالث أخوة هيرود وآجريبا) وينسب إلى (شمسيجرام الثاني) فضل تشييد قصر تاريخي في ضاحية حمص الغربية اشتهر موقعه فيما بعد باسم (الصومعة) وكان ما تبقى منه عبارة عن برج ارتفاعه نحو ١٥ م مؤلف من ثلاث طبقات ولكنها تهدمت وبقيت منها الزاوية الغربية الشمالية وعليها كتابة يونانية تفيد اسم (كايوس ابوليوس فاريا شمسيجرا موس) أضف إلى ذلك النقوش الهندسية الجميلة والحجارة الملونة المستخدمة في عمارة هذا المبنى . . . وقد ظل هذا المبنى قائما زمن الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وتحدث عنه الرحالة وقتئذ ولكن الإهمال أدى إلى انهياره فشيد مكانه مبنى توزيع البترول .

وعندما تولى الحكم (عزيز بن شمسيجرام الثاني) تطلبت ظروف عصره التقارب مع (آجريبا الأول) الذي زف ابنته (دروسيلا ، Drusilla) إليه ، ولكن هذه المرأة الحسناء مالت إلى الوالي الروماني (فيليكس Felix) الذي كان من طباعه ممارسة الأغواء . . . الخ وهناك من يعتقد بأن (عزيز) هو الذي طلّق (دروسيلا) ليتحرر من ضغطها عليه لتبنّي ديانتها ، وعندما توفي (عزيز) دفن في ضاحية حمص في قبر يشبه الهرم خارج باب المدينة الشمالي .

فتولى الحكم (سهيم بن شمسيجرام الثاني) الذي عاصر الامبراطور (نيرون ٣٧ – ٦٨ م) و (فيسبازيان ٦٩ – ٧٩) م واشترك مع الرومان في حملتهم الحربية إلى القدس . وهناك كتابة أثرية في بعلبك تشير إلى الملك الكبير جايوس يوليوس سهيم بن الملك الكبير شمسيجرام محب القيصر ومحب الرومان)

وكانت سياسة روما تهدف دائما إلى ضم الممالك المحلية العديدة إلى الأمبراطورية الرومانية وإذا كان الرومان نفذوا سياسة ضم الممالك

إلى امبراطوريتهم ولا سيما قضاء (كورنيليوس بالما) على مملكة العرب الأنباط عام ١٠٥ / ١٠٦ م فان مملكة حمص استطاعت أن تحافظ على سيادتها واستقلالها بفضل ذكاء ودهاء ملوكها وأتباعهم سياسة ترضي الرومان وتجمد مشروع ضم مملكة حمص إلى امبراطوريتهم الرومانية المتزايدة القوة والنفوذ في العالم القديم وعندما تولى الأمبراطور (دوميسيان ٥١ — ٩٦ م (الحكم وتمسك بفكرة ضم الممالك والإمارات المختلفة إلى الأمبراطورية الرومانية مما يفسر أسباب القضاء نهائيا على سلالة (شمسيجرام (العربية الحاكمة في حمص في نهاية القرن الأول الميلادي .

— حمص مدينة أباطرة روما : —

اشتهرت حمص بمعبد (الشمس) الضخم والجميل وحجره الأسود المقدس لدى الجميع في ذلك العصر وقد زينت بصورته نقود حمص المختلفة التي حفظتها كوثيقة تاريخية وفنية معمارية ، وكان سدنة هذا المعبد الكبير لهم مكانتهم الإجتماعية والثقافية والاقتصادية بل والسياسية وقد اشتهرت أسرة (باسيانيوس) بخدمتها لمعبد الشمس الكبير في حمص .

وأنجبت حمص فتيات جميلات مثل (جوليا دومنا) ابنة ، (باسيانوس) كبير سدنة معبد الشمس الضخم في حمص والجدير بالذكر أن العرّافين تنبأوا لها بمستقبل مشرف وزواج سعيد ورأوا أن هذه الطفلة ذات نجم عال وحظ حسن وسعيد وسيقترن بها يوما ما رجل يتسنم العرش الأمبراطوري نفسه . . .

ومرت سنوات فوصل إلى سورية القائد الليبي الأصل (سيبتيم سيفير ١٩٣ — ٢١١ م) فتعرف على أسرة (باسيانوس) وابنته الجميلة

(جوليا دومنا) التي كانت لغتها العربية الآرامية لا تختلف عن لغته العربية البونيقية ، ولكن كان هناك فارق في السن نحو عشرين سنة ... ومع ذلك فقد تحولت هذه العلاقة من صداقة إلى مصاهرة .

كانت (جوليا دومنا) تتمتع بالجمال واللطف والذكاء والدهاء والتفاؤل والطموح . . . وقفت إلى جانب زوجها في مختلف المناسبات والأزمات وشجعته أن يعتلي عرش روما في فترة انحطاط وتمزق مات فيها الامبراطور (كومود ١٦١ – ١٩٢ م) وخلفه (برتيناكس ١٢٦ – ١٩٣ م) والي سورية الذي قتله جنوده في ٢٨ آذار ١٩٣ م كما قتل (ديدوس جوليا نوس) عام ١٩٣ .

كان القائد (سيبتيم سيفير) قائد جيش الدانوب ويتمتع بقدرات كبيرة وصفات أخلاقية رشحته لأعظم المناصب وقد دخل روما بموكب فخم وأعلن فيها امبراطورا فأسس عهدُه سلالة الأباطرة السيفيريين السوريين .

فتمتعت حمص وغيرها من مدن سورية بامتيازات كاعفائها من الضرائب . . . الخ وكان الأمبراطور (سيبتيم سيفير) يدرك أهمية الجيش والاعتماد عليه وله أقوال حكيمة في ذلك غدت كأمثال للأجيال وأحاطت (جوليا دومنا) نفسها بنخبة من المثقفين من فلاسفة وأدباء وأطباء وفقهاء . . . اعتمدت عليهم وأفادت منهم ، وبعد وفاة زوجها شب نزاع عائلي بين ولديها (كارا كالا ١٩٨ – ٢١٧ م) و (وجيتا ٢٠٩ – ٢١٢ م) وكان لمقتل ابنها (جيتا (عام ٢١٢ م أثره الأليم في نفس أمه (جوليا دومنا) فحاول ابنها (كارا كلا) أن ينسيها مأساتها فجعلها ذات نفوذ كبير في الدولة ، ولكن الأقدار فاجأتها من جديد

بمأساة أخرى عندما تمكن (مقرينوس ٢١٧ – ٢١٨ م) من القضاء على ابنها (كاراكالا) عام ٢١٧ م مما جعل حزنها الكبير يدفعها إلى الانعزال عن المجتمع والموت حزينة لما أصابها .

وكانت شقيقتها (جوليا مايبزا) قد ولدت في حمص ونشأت طموحة وبعدها تزوجت أنجبت فتاتين غدت كل منهما بعد زواجها أم امبراطور وهكذا :

أنجبت (جوليا سامیابنت جوليا مايبزا) الأمبراطور هليو جبال (أو ايلا جبال) عام ٢٠٤ م .

وأنجبت جوليا ماميا بنت جوليا مايبزا (الأمبراطور الكسندر سيفر .

كان (ايلا جبال ٢١٨ – ٢٢٢ م) كبير سدنة (معبد الشمس) في حمص وكان جمال ملامح ايلا جبال يثير الارتياح والتفاؤل لدى الجنود الذين اعتبروا الوجه مرآة الروح فنادوا به امبراطورا وعمره لا يتجاوز الرابعة عشرة . ويحدثنا الأستاذ (هومو) في كتابه عن الامبراطورية الرومانية ووصف حفلة استقبال شيوخ روما للامبراطور السوري الشاب (ايلا جبال) وتبادلهم النظرات الماكرة المعبرة عن ارائهم فيما حل بهم وبامبراطوريتهم وآلهتهم في عصر لم يعد لأرباب روما شأن أمام أهمية (رب الشمس في حمص) واستقبالهم كبير سدنة . هذا الرب مصطحبا معه الحجر الأسود المقدس المنقول من حمص .

كان الصراع مستمرا وقد حاول (مقريتوس) قتال الامبراطور (ايلا جبال (ولكن محاولته فشلت وانتهت باغتياله والتخلص منه عام ٢١٨ ولكن فلسفة (ايلا جبال) كانت تختلف كثيراً عن فلسفة (شيوخ روما) مما يوضح مواقفهم منه .

وقد أحسن الامبراطور (ايلا جبال) في منح ابن خالته (الكسندر سيفير) لقب قيصر واختياره خليفة له في الحكم ، وان مواقف شيوخ روما من (ايلا جبال) مما شجع الحراس البرتيوريين على اغتياله عام ٢٢٢ م فانتخب (الكسندر سيفير) امبراطورا .

كانت جوليا ماميا قد اهتمت بحسن تربية ابنها (الكسندر سيفير) واعداده لمعركة الحياة وقد مارست الوصاية عليه ، وعندما اعتلى عرش الامبراطورية الرومانية اتخذت الاجراءات الحكيمة التي جعلته في رأي المؤرخين خير أباطرة السيفيريين السوريين ويعود اليه فضل رعاية المسيحيين للمرة الأولى في تاريخ الامبراطورية الرومانية وكانت أمه تحيط نفسها بنخبة من المفكرين والعقلاء المستشارين .

ـ حمص واسهامها الثقافي : ـ

ان أهمية حمص وذكاء ابنائها وميلهم إلى الثقافة في العصر الهلنستي والروماني جعل حمص عصرئذ من أهم مراكز الاشعاع الثقافي في العالم القديم نبغ منها الفلاسفة والروحانيون والمؤرخون والجغرافيون والأطباء والأدباء والفقهاء والمشرعون والعسكريون والفنانون وغيرهم

ـ الفكر الروحاني في حمص : ـ

تدل الآثار المكتشفة على آلهة آمن بها الإنسان القديم في حمص وابتهل إليها وتقرب منها بالقرابين وشيد لها المعابد ونظم لها الطقوس والعبادات الجامعة لمختلف فنون الشعر والنثر والموسيقى والغناء ومن أشهر تلك الآلهة الرب ايل رب الكون وقد عرف كثير من أبناء حمص عصرئذ باسم يتضمن اسم الرب ايل مثل (ايلا جبال) .

– الرب شمس : رب الشمس والنور والضياء والدفء وقوة الانبات في الكون انه شعلة ربانية توضح الحق الواضح المنير المتميز عن الباطل المظلم القبيح ، ورب الشمس طاقة لا تنفد وقوة عظيمة لا يستهان بها وجمال رائع وخالد وفاتن ، وان أهمية عبادة الشمس عصرئذ توضح عادة تحيتها عند شروقها ، وتفنن النحاتون في تمثيل رب الشمس بصورة نسر كبير وقوى وضخم يبدو باسطا جناحيه على الكون والكائنات ، واشتهر عدد من أبناء حمص القدماء بأسماء تتضمن اسم الشمس مثل (شمسيجرام) .

– سيميوس Simios / كانت تشكل مع (ايل) و (وشمش) ثالوث آلهة حمص وهناك الرب (عزيز) رب القوة ويبدو بملابس مقاتلين كالتدمريين و اشتهر عدد من أبناء حمص القدماء بأسماء تتضمن اسم (عزيز) وهناك أيضاً آلهة أخرى مثل (منعم) و (سلمان) الذي كان رب الخير والاحسان وكان لنجم الصبح والمساء أثرهما الكبير في معتقدات القدماء من سكان حمص والمجتمع العربي القديم أضف إلى ذلك الربة العربية (اللات) التي انتشرت عبادتها في العصر الهلنستي والروماني ، ووحدتها تلك الأجيال مع آلهات متشابهات مثل (اثينا (و (آثار جاتيس) و (نيميسيس) وظهرت أسماء كثيرين تتضمن اسم الربة اللات مثل (وهب اللات) و (تيم اللات Tirradlanos) وهناك ربة الحظ والسعادة (تيكة) . . .

والجدير بالذكر أن النصوص العديدة المكتشفة في مختلف أقطار العام القديم التي وجد فيها سوريون وتركوا لهم فيها تلك النصوص في بانونيا في المجر وألمانيا وشمال انكلترا وفي فرنسا وفي نوميديا على الحدود

التونسية الجزائرية ... . تدل على مدى تمسك أولئك السوريين بتقاليدهم المحلية وآلهتهم التي نظموا أشعار مديح لها .

وتجدر الاشارة إلى أثر اتصال الشعوب بعضها ببعض وما نتج عنه من تفاعل حضاري وثقافي وفني ، وقد تمسك أبناء حمص كبقية مواطنيهم بلغتهم العربية الآرامية في أحاديثهم ومراسلاتهم وتعلموا اليونانية التي ساعدتهم على الاطلاع على الفكر الاغريقي كما تعلموا اللاتينية التي كان يعتمد عليها في الدواوين الرومانية كل ذلك مما يوضح اسهام أبناء حمص في مختلف ميادين الثقافة في العصر الهلنستي والروماني وكان من أشهر أعلامها : الفيلسوف الجمالي لونجينوس الحمصي الذي ولد في حمص عام ٢١٣ م في بيئة أحسنت تربيته و زادت معرفته بفضل أساتذة مشهورين مثل (آمونيوس ساكاس) من المدرسة الافلاطونية الحديثة و (اوريجين) .

وبعدما تمثل (لونجينوس) الثقافة التي تلقاها غدا زعيم مدرسة ثقافية وكان من تلاميذه الفيلسوف (بورفير) وقد اشتهر بمحاضراته القيمة التي ألقاها في (اثينا) و (سورية) وان سعة اطلاعه وإنسانية ثقافته جعلا ملكة تدمر (زنوبيا) تختاره كرئيس وزرائها وكبير مستشاريها فكان فعلا خير وزير حكيم ومستشار خبير وقف إلى جانبها في صمودها ضد الرومان الذين بعدما قضوا على حكم زنوبيا اتهموه بمساعدتها في حروبها ضدهم وحكموا عليه بالموت فاستقبل (لونجينوس) الموت بشجاعة الإنسان العظيم المتمسك بمثله العليا الإنسانية ومن مؤلفاته : —

— في الحكم الصالح : Sv Irlesovverainbien

— في الخطابة : Traité De Rmetoro Qve

واشتهر لونجنيوس الحمصي كناقد أدبي وفني ومفكر جمالي ينسب إليه بعضهم كتاب (في السمو Traité Ae Su Blime) الذي تأثر به الأديب الفرنسي الكبير (بوالو Boileo) فترجمه إلى اللغة الفرنسية ومن أقوال (لونجينوس الحمصي) الجمالية / في الأعمال الفنية تراعي التناسب وفي الطبيعة نلاحظ العظمة . . . وذكر الأستاذ ميشيليس P . A Michelis / في كتابه (استطيقا الفن البيزنطي) ان (لونجينوس الحمصي) رأى في الجليل صدى روح سامية وازدادت أهمية مفهومه عن (الجليل) في العصر المسيحي وقد تفوق هذا المفهوم على مفهوم (الجمال) الكلاسيكي . . . وفي الواقع نجد صدى هذا المفهوم في فنون القرن الرابع وما بعده ، واعتماد الفنان على معيار (الجلال) بعدما كان يعتمد على معيار (الجمال) في تذوق العمل الفني وتقويمه .

وهناك الطبيب (آرفجيننس الحمصي) الذي اشتهر بتخصصه بالأمراض العقلية وممارسته مهنة الطب في روما التي هاجر اليها وأقام فيها وقد ذكره الشاعر الهجاء اللاتيني (جوفنال ٦٥ – ١٢٨ م) ومن أشهر مؤلفات (آرخيجينيس) كتاب في (النبض) شرحه الطبيب المشهور فيما بعد (جالينوس) .

وهناك اللغوي الحمصي (تيرانيو) الذي أفاد منه (استرابون ٥٨ ق.م) – ٢٥ م والمشرع الفقيه (بابينيان) الذي أدى موقفه الشريف من قتل (جيتا) في عهد (كاراكالا) واستنكاره ذلك إلى موته ولكن اجتهاداته الفقهية توارثتها أجيال الحقوقيين وأسهمت في شهرته .

وإذا كنا لم نعرف أسماء أعلام فنون العمارة والنحت والحفر والفيسيفساء والرسم والخط وعمل الفخار والخزف والزجاج والعاج والعظم والحلي الذهبية . . . فان روائعهم الفنية تدل على مهارتهم اليدوية وخبرتهم المهنية وثقافتهم الجمالية والفنية ومتطلبات مجتمعهم من المصنوعات الجميلة التي تلبي رغبتهم في رؤية الجمال وابداعه والتعبير عنه .

وفي الواقع تعتبر الحلي الذهبية المكتشفة في (تل أبو صابون) من أجمل ما أبدعه فن الصياغة في نهاية العصر الهلنستي وبداية العصر الروماني ، وتضم هذه الحلي الذهبية خواتم وأساور ووريقات ذهبية مختلفة أضف اليها الخوذة الفضية والحديدية المشهورة .

وتتميز الخواتم المكتشفة بتنوعها فهناك خاتم ذهبي مرصع بفص عقيق نقش عليه مشهد رب الفنون والموسيقى (آبولون) بأسلوب يبدو فيه آبولون ينظر إلى اليمين إذا وقفنا في جهة اليمين ويبدو ينظر إلى جهة اليسار إذا وقفنا في جهة اليسار وهناك خاتم زين أعلاه بصورة نافرة جانبية تمثل رأس امبراطور أو حاكم محلي وتعتبر الأساور المكتشفة ذات أهمية فنية وقيمة جمالية فهناك سوار مؤلف من قطع لكل منها شكل (S) ومرصعة بأحجار الزمرد التي كان القدماء يعتقدون بأنها تجعل الإنسان ينعم بأحلام سعيدة .

وهناك سوار ابدعه ذلك الفنان الصانع بطريقة تقنية كسر الجفت وزينة بأحجار السيلاني وتتميز الوريقات الذهبية المكتشفة بتنوع أشكالها (مستديرة . مستطيلة (ومواضيعها) رأس ميلوز . ربة نصر جنائزية ترفع بيدها اكليلا ، آبولون يمسك آلته الموسيقية . . . وهناك عصبات

ذهبية مضغوطة تمثل غصنا نباتيا . . . كل ذلك يفسر أهمية فن الصياغة في حمص وبقية مدن قطرنا في العصر الهلنستي والروماني ويوضح أهمية اعتقادات القدماء بأن الذهب معدن الآلهة لأن المعدن الوحيد الذي لا تؤثر فيه العوامل المختلفة . . . وإن من يتجمل به ينعم بما يحلم به من سعادة وخلود . . . الخ . . .

كما اشتهرت حمص بجمال عمارتها الدينية والمدنية والعسكرية والجنائزية وتدل صورة (معبد الشمس) على نقود حمص على جمال ذلك المبنى الديني بأعمدته الأمامية (الستة التي يعلوها) فريز فوقه جبهة مثلثة مزينة بصورة هلال ؛ ويرتفع مبنى هذا المعبد عما حوله ببضع . درجات . . . ويبدو أن جمالية معبد حمص لا تقل أهمية عن جمالية معبد بعلبك وتدمر .

وهناك ملعب حمص كانت تقام فيه المباريات في مختلف المناسبات والجدير بالذكر أن ملك تدمر (اذينة) حقق انتصاراته مع ابنه ثم حضر معه حفلة مباريات في ملعب حمص الذي اغتاله فيه ابن أخيه عام ٢٦٧ م وتذكر النصوص التاريخية أهمية القصر الملكي الذي شيده (شمسيجرام الثاني) في ضاحية حمص الغربية ومدى ازدهار اقتصاد حمص لوقوعها على طريق الحرير العالمية مما أتاح لابناء حمص امكانات مادية ساعدتهم على تشييد أجمل القصور والدور التي تدل على أهمية العمارة المدينة وخبرات المهندسين المعماريين في حمص عصرئذ .

وان قلعة حمص وأسوار المدينة مما يدل على أهمية فن العمارة العسكرية في حمص ومدى اهتمام اولئك المهندسين بتشييد القلعة المنيعة

والأسوار ذات الأبواب الجميلة والمؤدية إلى الطرق الرئيسية الخارجية التي أعطت اسماءها إلى أبواب المدينة كباب تدمر وغيره . . .

وان اهتمام القدماء بدفن الموتى في مدافن مناسة أدّى إلى ظهور فن العمارة الجنائزية في مجتمع يعتبر (الموت بمثابة حياة جديدة في عالم ما بعد الحياة) ويحرص على تشييد المدفن كمقرّ أبدي تحفظ فيه مع الموتى ممتلكاته كالتي اكتشفت في (تل أبو صابون) وقد تحدث بعض الرحالة عما يسمى بتربة (شمسيجرام) وقد صور كل من كوهل Kohl) و (واد نجتون) هذه التربة التي بدت لها بمثابة زيقورة .

وقد قرأ (واد نجتون) الكتابة المنقوشة على المبنى (كايوس جوليوس شمسيجرام) من قبيلة قابيا المعروف بسيلاس . . . شيد في حياته هذا القبر له ولأولاده عام ٣٩٠ / ٧٨ — ٧٩ / م وهناك مدافن أخرى تحت الأرض على عمق ١٠ — ١٢ م في حي الحميدية في حمص خارج السور نقب فيها بعض اليسوعيين وأخص بالذكر منهم (لامانس La Mmens) وجدت فيها أنصاب بازلتية كبيرة .

واستخدم الفنان الحمصي في العصر الهلنستي والروماني في مختلف المواد المتوفرة في بيئته (غضار . حجر . برونز ، عظم ، عاج) في ابداع روائعه النحتية .

وإن التماثيل الفخارية الصغيرة المكتشفة في حمص تؤكد أهمية الإرادة الفنية القادرة على جعل التراب العادي يصبح عملا فنيا يثير الإعجاب والغبطة ولا شك أن تمثال (كورة) الخزفي المموه بالمينا يعتبر من روائع فن النحت الخزفي في القرن الأول الميلادي يتميز بجمال

التكوين الفني وأهمية موضوعه الميثولوجي وقوة التعبير في ملامح الوجه الإنسانية .

والجدير بالذكر أن هناك كتابات يونانية في أسفل هذا التمثال النصفي الخزفي الرائع .

كما أن تمثال (فينوس) البرونزي يجسد المثل الأعلى للجمال الإنساني النسائي ويدل على أهمية النسبة في عصر كان فيه معيار الفن يعتمد على القياس الدقيق واعتبار الإنسان المثل الأعلى للجمال ومقياس المقاييس الجمالية .

وان تمثال ربة الحظ والسعادة (تيكه) من الذهب على أهمية هذه الربة في ذلك العصر ومدى اهتمام أولئك الفنانين في ابداع تماثيلها لتلبية طلبات مجتمعاتهم الجمالية والفكرية .

ويعتبر النصب الحجري البازلتي الكبير من روائع فن النحت المحلي في القرن الرابع الميلادي يمثل قائداً أو حاكما محليا واقفاً متدثراً بملابسه الرسمية ، كما أن تمثال السبع من الحجر الجيري المكتشف في التربة الخالدية والمعروضة في حديقتها يعتبر من روائع فن النحت في القرن الثالث الميلادي .

وقد اكتشف (ديماميس حمص) توابيت فخارية مغطاة بطبقة كلسية ومزينة برسوم جدارية جميلة تدل على أهمية هذا الفن الذي ازدهر في حوض الفرات الأوسط في بداية الألف الثاني ثم انتقلت تقاليده الفنية إلى دوراً اوريوس ثم تدمر ثم حمص فانطاكية فأوروبا التي زين جدران كنائسها الرومانيكية .

والجدير بالذكر أن توابيت ديماميس حمص مزينة برسوم ذات مواضيع فنية ومفردات رمزية وألوان محلية استخلصت بذوق فني .

وتعتبر لوحة الفسيفساء المكتشفة في ديماميس حمص من روائع فن الفسيفساء في القرن الرابع الميلادي وتمثّل كاهنين شابين بملامح جميلة .

وان الدبابيس العاجية والعظمية المكتشفة في مقبرة الخالدية ذات أهمية فنية وجمالية وتدل على مدى اهتمام حسان حمص بدبابيس الشعر في تصفيف شعورهن والظهور بمظهر الأناقة والرشاقة مما يزيد في جمالهن في عصر قال فيه أحد الأدباء : الكواكب والنجوم تزين قبة السماء والشعر يزين رأس المرأة ويزيد جمالها وفتنتها .

وان الأواني الفخارية المختلفة المكتشفة في المقبرة الخالدية تدل على أهمية هذه الصناعة الفنية في حمص في العصر الهلنستي والروماني وإذا كان الفن ابتكاراً وابداعاً فان دراسة هذه الأواني تدل على مدى حرص ذلك الصانع الفنان على ابداع أجمل الأشكال المبتكرة المتميزة بفائدتها وجمالها .

وتدل الآثار الزجاجية العديدة المختلفة على أهمية هذه الصناعة الفنية في قطرنا وممارسة ذلك الصانع الفنان مختلف التقنيات الزجاجية في ابداع روائعه من الزجاج المعتم أو الشفاف أو الخمري اللون وان مجموعة القوارير من الزجاج الأبيض المنفوخ في قالب تعتبر من أجمل ما أبدعته هذه الصناعة الفنية لبعضها شكل وجه انسان جميل الملامح وهناك قارورة زجاجية صغيرة حليبية اللون تمثل مشهد مركب تجاري يجري

فينقي وتعتبر من اندر أنواع الزجاج والجدير بالذكر أن هذه المجموعة اكتشفت في تل النبي مند .

وإذا كان المنقبون لم يعثروا حتى الآن على قطع من ملابس قديمة في حمص فان المنحوتات وصور الأباطرة السيفيريين تدل على مدى اهتمام أبناء حمص بالمنسوجات والملابس الجميلة ولا شك أن موقع مدينتهم حمص على طريق الحرير وتوفر المراعي الكثيرة في منطقتهم مما زودهم بالمواد النسيجية الصوفية والحريرية التي لا تختلف عن قطع المنسوجات التدمرية المكتشفة في مدافن تدمر .

وان نقود حمص التي تمثل صور أباطرتها السيفريين ومعبد حمص تدل على أهمية فن صك النقود لتلبية المتطلبات الاقتصادية المختلفة . والجدير بالذكر أن المتحف الوطني بدمشق يحتفظ بدينار ذهبي وحيد من نوعه في العالم يمثل الامبراطور الحمصي السيفري (ايلا جبال) .

والخلاصة :

مما تقدم تبدو أهمية دراسة حمص واسهامها الفني والجمالي في العصر الهلنستي والروماني ونشاط أبنائها في مختلف الميادين الحربية والرياضية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وان دور حمص الحضاري يفسر قول الشاعر اللاتيني الهجاء (جوفنال) ان نهر العاصي يبدو كأنه يصب في نهر التيبر ، معبرا بذلك عن تأثير حمص والشرق العربي القديم في حضارة الرومان .

دمشق : بشير زهدي

تحرير حمص

من السيطرة البيزنطية

منذر حمودي

عضو الجمعية التاريخية

ان الموضوع الذي أقدمه ما هو إلا خطوة متواضعة قد يعوزها الكثير لكي تحقق هدف الجمعية التاريخية بحمص لكتابة تاريخ المدينة أسوة بالمدن السورية الأخرى لذا بدأت بمرحلة حروب الفتح والتحرير العربية الاسلامية وعملت على جمع الروايات من هنا وهناك علها تكون نافعة في انجاز كتابة تاريخ للمدينة أقرب إلى الدقة والصواب مما تناثر في كتب المكتبة العربية من أخبار وروايات مفككة الحلقات بعيدة عن التسلسل الموضوعي والشمول الموسوعي في تدوين تاريخ مدينتنا الغالية على قلوبنا . وقبل أن أبدأ بتحرير مدينة حمص من السيطرة البيزنطية — لا بدّ لي من المرور سريعاً عبر حروب التحرير وذكر بواعثها في بلاد الشام عامة بحيث نذكر منها :

١ — وجود ثاني الحرمين الشريفين في بلاد الشام ومقدسات أخرى يقدسها العرب المسلمون والمسيحيون معاً .

٢ — بدأ الرسول الكريم بتوجيه السرايا والجيوش نحو بلاد الشام لتحريرها وحث المسلمين على الالتحاق بهذه الجيوش . كما أنه بشّر

بفتحها وكتب الكتب إلى بعض الأشخاص يمنحهم فيها بعض ، الاقطاعات(١) .

٣ – اقتداء بالرسول وتنفيذاً لأوامره ومن أجل نشر العقيدة الاسلامية قام الخلفاء الراشدون بحركة حروب الفتح والتحرير استمراراً لمحاولتي جعفر بن أبي طالب وأسامة بن زيد .

٤ – ولدمل جروح حروب الردّة في الداخل اقتضى الوضع العسكري الداخلي وكذلك الوضع الاجتماعي والاقتصادي ، توجيه العرب مجتمعين نحو حروب خارج الجزيرة العربية .

٥ – إقدام الروم على اتخاذ خطوات عسكرية ، على الحدود الشمالية لجزيرة العرب ، استوجب التحرك المضاد ، وفي هذا المجال ذكر المؤرخون أن هرقل قد جيّش الجيوش في بلاد الشام(٢)وكان ذلك منذ وصل إليه كتاب من الرسول الكريم يدعوه إلى الاسلام،ومن ذلك الحين كانت أخبار الشام ترد كل يوم لكثرة القادمين من الأنباط آنذاك ، فقدمت قادمة ، فذكروا أن الروم(٣) قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام ، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنةٍ ، وأجلبت معه لخم ، وجزام ، وغسان ، وعاملة ، وزحفوا وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها وتخلف هرقل بحمص(٤) ، ولما كانت بلاد الشام تُشدّ إليها أنظار المسلمين فقد وصفها أحد الأدباء إلى أحد الخلفاء بقوله : (وأعلم يا أمير المؤمنين أن بلاد الشام هي أرض السحب والتلال والرياح والخصب . فهي تنعش الجسد وتنقي البشرة . خاصة أرض حمص التي تجمل الجسم وتنمي المداوك وماؤها نقي يرهف الحواس . إن بلاد الشام يا أمير

المؤمنين ، هي أرض الخضرة البهيجة والغابات الكبيرة ، وأنهارها تجري في مجراها الصحيح ، ونوقها تدرّ اللبن الوفير(٥) .

بالإضافة إلى ما ذكرنا ، من دواعي العمل على تحرير بلاد الشام . فقد كانت السلطة العربية مهيأة لذلك . فعلى سبيل ذكر بعض جوانب هذا النظام ، فقد كان إلى جانب الخليفة أبي بكر ، ما يشبه الوزراء(٦) معاذ بن جبل للجند ، وعمر بن الخطاب للقضاء ، وأبو عبيدة عامر ابن الجراح للمال ، وعثمان بن عفان للأخبار ، وزيد بن ثابت للرسائل .

وفي تلك الأيام كانت مدينة حمص أي في النصف الأول من القرن السابع الميلادي ، مركزاً إداريا هاماً تلحق به معظم أراضي محافظتي حمص وحماه الحاليتين(٧) ، وكانت الاكثرية الساحقة من سكانها ، كباقي سكان سورية من العرب والساميين الآخرين ، الذين كانوا ساخطين على الدولة البيزنطية ، التي كانت بدورها تعمل بجد لعزل بلاد الشام وسكانها عن أشقائهم ، سكان الجزيرة العربية، فمارست عليهم سياسة قمعية(٨) ، خاصة بعد أن بدأت شبه الجزيرة العربية تتلمس طريقها إلى النور وإلى فجر جديد ، وظهرت فيها دولة فتيّة ، أعطت كل ذي حق حقه ، وأحلت القانون مكان شريعة الغاب ، وأصبح فيها الناس سواسية كأسنان المشط(٩) . ولذلك وبالإضافة إلى الأسباب القومية والمذهبية كان سكان سورية(١٠) يزدادون تطلعاً إلى شبه الجزيرة العربية ، كلما ازدادت الدولة البيزنطية حقداً على العرب ودولتهم الفتيّة ، حيث (كان الرومي يقول للعربي الشامي اذهب إلى بني عملك(١١)) . وحول هذا الموضوع قال : فيليب حيّ ولم يعرف عن السوريين منذ فتح الاسكندر أنهم فقدوا طابعهم القومي أو أضاعوا

لغتهم الأهلية أو أهملوا دينهم السامي . . . . وغالب الظن أن السوريين من أبناء القرن السابع قد اعتبروا العرب المسلمين أقرب إليهم عنصراً ، ولغة ، وربما ديناً أيضاً ، من أسيادهم البيزنطيين الممقوتين (١٢) من أجل هذا وذاك .

فرأى العرب المسلمون لزاما عليهم أن يمدّوا يد العون والمساعدة إلى أشقائهم الراضخين إلى حكم أجنبي ،فبدأوا بتجميع المعلومات الكافية عن المدن الشامية(١٣) وعن حامياتها البيزنطية وقادة هذه الحاميات ، ليستفيد من ذلك الخليفة ومساعدوه في العاصمة — المدينة المنورة — وليستفيد منها أيضا ، قادة الجيوش العربية المكلفة بتحرير الشام من الاحتلال البيزنطي ، وتوضيحاً لذلك قال سعيد بن عامر(١٤) : (كنت عارفاً ببلاد الشام وطرقه وكنت أسير إليه في السنة مرة أو مرتين عسفاً من غير جادة ، أسير على الكواكب . . .) .

ولمختلف هذه الأسباب والدواعي الآنفة الذكر ، سارع الخليفة أبو بكر الصديق إلى اتخاذ قراره القاضي باعلان الحرب على البيزنطيين ، فقسم الجيش العربي المكلف باقتحام بلاد الشام إلى فرق ، تعدداد الواحدة ، ازداد تدريجياً من ٣٥٠٠ — ٧٥٠٠ مقاتلاً(١٥) . وبعد أن استكملت الاجراءات اللازمة لهذا الجيش المحارب كتعيين قادته وتحديد مهماتهم ، أخذت الجيوش العربية بالتقاطر نحو أهدافها في بلاد الشام ، على أن يكون القائد العام لها في حالة الاجتماع أبو عبيدة عامر بن الجراح :

١ — فرقة يقودها عمر بن العاص ووجهته فلسطين .

٢ — فرقة يقودها يزيد بن أبي سفيان ووجهته وادي الأردن .

٣ — فرقة يقودها شرحبيل بن حسنة ووجهته دمشق .

٤ — فرقة يقودها أبو عبيدة عامر بن الجراح ووجهته حمص .

في بداية الأمر سارعت الجيوش العربية إلى دخول المناطق المخصصة لها ، فقد احتلت حمص عام ٦٣٥ م عقب موقعة أجنادين(١٦) حيث كان وردان حاكم حمص قائداً لجيوش الروم فيها — أجنادين (١٧) . ولكن دون تحقيق نصر حاسم يمكن أحد الفريقين المتصارعين من الاستمرار في الاحتفاظ بالمواقع ؛ إلا أن هرقل أخذ يجمّع قواته في فلسطين بأعداد كبيرة فاضطرت بالمقابل القوات العربية التي توغلت في الأردن وأعمال دمشق وحمص إلى الانسحاب والتجمع لمواجهة المعركة الحاسمة والمرتقبة مع هرقل في اليرموك الثانية . ولكي يكسب هرقل حمص(١٨) في صفه عمل على تأمير أحد أهل حمص على أحد الجيوش المشتركة في القتال ويقال لهذا الرجل — أبو الجعيد — . وبالفعل علم العرب بمحاولة هرقل ونواياه ازاء تجميع قواته ، ووجدوا أنفسهم مضطرين إلى الانسحاب من حمص وسواها لمواجهة الروم الذين جمعوا جموعهم في فلسطين ، وأخذوا يهددون العرب بالتطويق . فجمع أبو عبيدة السكان — أعني سكان حمص(١٩) — وأعاد لهم الأموال التي أخذها منهم كجزية وقال لهم نحن لسنا بقادرين على مساعدتكم والدفاع عنكم وأنتم الآن أحرار بأنفسكم ، فأجاب أهل حمص : (إن حكمكم لنا وعدالتكم أعزّ لدينا من الظلم والقسوة التي كنا نعيشها من قبل) وللخلاص من هذا المأزق الصعب الذي تعرض له العرب ، أمر الخليفة أبو بكر خالد بن الوليد بأن يلتحق بجبهة بلاد الشام ، فسارع إليها قادماً من العراق بسرعة تدعو إلى الإعجاب — وكان رافع بن عميرة دليل

خالد بن الوليد في اجتياز الصحراء ـ محاربا جباراً وزوج ابنة خالد نفسه(٢٠) كما كان خالد بن الوليد يعرض على جنوده ضرورة التقيد بأوامره ، ويحتفظ ببعض القوات والقادة كقوات احتياطية يستفيد منها عند الحاجة في عملياته العسكرية(٢١) .(٢٢) . وقد رحب سكان السخنة وكدمة بخالد بن الوليد أثناء اجتيازه لمناطقهم(٢٣) . وعندما رأى أبو عبيدة نفسه مضطراً إلى مغادرة حمص ، ليشارك في القتال بمعركة اليرموك الثانية فيما بعد ، كان إصرار أهل حمص على موقف التأييد والولاء لأشقائهم لا يزال يتفاعل في نفوسهم وقد عبروا عن ذلك بترحيبهم بالعرب ثانية بعد دحر الروم في اليرموك الثانية ، وبينما كان العرب يحاربون الروم حول دمشق قبيل فتحها(٢٤) (خرج من ميمنة العقبان في جيش الروم كردوس فتأهب الناس لحربهم ، وتقدم خالد وحوله أبطال المسلمين ، فلما قربوا من القوم ، رموا رماحهم وسيوفهم من أيديهم ، وترجلوا ونادوا بالأمان ، فقال خالد : اقبلوا أمانهم وأتوني بهم فأتوا إليه فقال خالد من أنتم فقالوا نحن من جند هذا الرجل وردان ومكاننا بحمص وقد تحقق عندنا أنه لا يطيقكم ولا يستطيع حربكم فاعطونا الأمان واجعلونا من جملة من صالحتم من سائر المدن ، حتى نؤدي لكم المال الذي أردتم في كل سنة فكل من في حمص يرضى بقولنا ، فقال خالد إذا وصلت إلى بلادكم يكون الصلح ان شاء الله تعالى ، إن كان لكم فيه أرب ، ولكن نحن هاهنا لا نصالحكم ، ولكن كونوا معنا إلى أن يقضي الله ما هو قاض) .

وما أن تحقق تحرير دمشق حتى أصدر الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب(٢٥) أوامره إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح يأمره باحتلال

حمص . وكان بالتالي على القائد أبي عبيدة أن يسارع لإعداد العدة لاحتلال حمص . فقاد جيشه نحو حمص على طريق البقاع واللبوة(٢٦) ، مسايرا نهرالعاصي على الطريق التقليدية التي تصل وسط سورية بدمشق ففلسطين . والتي سلكها معظم الفاتحين من قبله ومن بعده ، ولانجاز المهمة بدقة طلب أبو عبيدة(٢٧) إلى القائد الكبير خالد بن الوليد ، والذي أصبح أحد مرؤوسيه منذ موت الخليفة أبو بكر – طلب إليه أن يسبقه إلى حمص بثلث الجيش عن طريق مباشرة ربما كانت الطريق التي تقع إلى الشرق من سلسلة لبنان الشرقية والتي تجتاز ثنية العقاب مارة عبر مدن القطيفة والنبك وقارة وحسياء . وسار أبو عبيدة على طريقه آنفة الذكر حتى وصل إلى موضع يقال له الزراعة (احدى قرى القصير التابعة لحمص) وفيها أخذ ينظم جيشه ويقسمه إلى عدة فرق . فقد وجه فرقة قوامها خمسة آلاف فارس بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي حمص لينضم إلى جيش خالد بن الوليد في التواجد بالمنطقة . ثم وجه فرقة أخرى قوامها خمسة آلاف فارس بقيادة ضرار بن الأزور ، وانتدب فرقة ثالثة بقيادة : – عمر بن معد يكرب الزبيدي وقاد بنفسه بقية الجيش باتجاه حمص . والوثائق تقول : إن فرقة خالد بن الوليد كانت تتكون من عناصر يمانية وحجازية وعراقية وموال . وكان تعدادها يتراوح بين الأربعة آلاف فارس وستة آلاف فارس ، وعليه أتوقع أن يكون تعداد الجيش العربي الإسلامي كما يلي :

١ – خمسة آلاف بقيادة خالد بن الوليد .

٢ – خمسة آلاف بقيادة ضرار بن الآزور .

٣ خمسة آلاف بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي .

٤ – خمسة آلاف بقيادة أبي عبيدة وعمرو بن معد يكرب .

وبذلك يكون الحد الأعلى لتعداد الجيش عشرون ألفاً أو يكون التوزيع كما يلي : – ستة آلاف بقيادة خالد بن الوليد – خمسة آلاف بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي – خمسة آلاف بقيادة ضرار بن الأزور – ألفان بقيادة أبي عبيدة وعمرو بن معد يكرب ، ويكون العدد الوسطي للجيش العربي الإسلامي المكلف باحتلال حمص ثمانية عشر ألفاً من المقاتلين الذين عسكروا في مشارف المدينة ثم بدأوا حصارها ، ومنذ ذلك الوقت كتب أبو عبيدة إلى حاكم حمص هربيس يعرض عليه اختياراً واحداً من ثلاثة شروط :

١ – اعتناق الإسلام وفتح المدينة .

٢ – فتح المدينة مع دفع الجزية .

٣ – اللجوء إلى الحرب .

ولما لم يكن جواب هربيس يشجع على السلام ، عزم أبو عبيدة على القتال فأعاد تقسيم عسكره وعبأه في أربع فرق قتالية . بعث فرقة مع المسيب بن نجية الفزاري فنزل بهم على باب الجبل – الذي أظنه مكان باب السباع الحالي شرق القلعة مما يلي خندقها مباشرة ، وبقيت فرقة أخرى مع المرقال بن هشام بن عقبة بن العاص فنزل بهم على باب الرستن(بجوارباب تدمر حاليا)،وبعث فرقة أخرى مع يزيد بن أبي سفيان فنزل بهم على باب الشام (باب الدريب حاليا) ، ونزل أبو عبيدة وخالد على باب الصغير (باب السوق حالياً) ، ثم زحف العرب نحو أسوار المدينة من كل مكان ، ودافع الروم(٢٨) عن أسوار المدينة حتى المساء ، واضطر الجيشان إلى ايقاف القتال ليلاً .

وفي صباح اليوم التالي عاد العرب إلى تشديد الخناق على المدينة وكانت الاشتباكات عديدة وضارية ، واضطر هربيس إلى طلب الصلح مع العرب ، كما اضطر العرب إلى الدخول في المفاوضات مادامت هذه المفاوضات توفر للعرب كسباً يساعدهم على التوغل شمالاً في سورية بأقل الخسائر ، فأرسل هربيس /حاكم حمص/ وفداً برئاسة « جاثليق » إلى أبي عبيدة وقد خرج الوفد (٢٩) من باب الرستن الذي أظنه باب تدمر الحالي نفسه كما أشير إليه آنفاً ، وأظن أن مكان تجمع الكتيبة تنسب إليه مقبرة الكتيب الحالية ، وعلى أثر اللقاء توصل الطرفان إلى اتفاق بأن أعطى المسلمون الروم ميثاقاً وعهداً (٢٩) يقضي برحيل العرب المسلمين عن حمص مقابل تقديم المدينة للجيش العربي المؤن التي تكفيه خمسة أيام وتقديم العلوفات التي تكفي الخيل والدواب لمدة خمسةأيام أيضاً بالأضافة إلىعشرة الاف دينار ومئة ثوب من الديباج – البروكار – كما تعهد أعيان حمص بعدم قبول نجدات بيزنطية وحددت مدة العقد بسنة كاملة أولها ذو القعدة وآخرها شوال سنة أربع عشرة للهجرة الموافقة ٦٣٥ ميلادية .

وقبل أن يأذن أبو عبيدة بالرحيل عن حمص طلب إلى عسكره أن يكثروا من الزاد والعلوفات عن طريق تبادل البضائع ومقايضتها(٣٠) فاشترى أهل حمص من العرب المسلمين مايساوي عشرين ديناراً بدينارين ورغب أهل حمص بشراء الرخيص ، ولم يزل أهل حمص يتبايعون لمدة ثلاثة أيام رأوا من خلالها سماحة العرب من بيعهم وشرائهم وربحوا ربحاً وفيراً .

وجدير بالذكر انه كان للروم في عسكر العرب (٣١) جواسيس وعيون بلغوا الأربعين رجلاً يأخذون لهم الأخبار كما كان للعرب

أيضاً في جيوش الروم عيون وجواسيس من المعاهدين يتعرفون لهم الأخبار ، بل تجاوز الأمر كذلك بحيث كانت أخبار الشام ٣٢ تصل إلى أهل المدينة . يثرب ، كل يوم لكثرة من كان يرد عليهم من الأنباط فضلاً عن سواهم ، وكان للخلفاء الراشدين أيضاً العيون الذين يرصدون بها قادة الجيش العربي الاسلامي ويرقبون تحركاتهم ثم يكتبون بكل ذلك إلى الخليفة .

بعد دخول الجيش العربي حمص بموجب معاهدة الصلح المشار إليها أنفاً فقد قام الجواسيس بنشر خبر استسلام حمص للعرب بين سكان المدن الواقعة إلى الشمال منها . وسواء كان نشاط الجواسيس مقصوداً لصالح العرب المسلمين أو لم يكن . فقد ساعد هؤلاء الجواسيس في التأثير على معنويات الحاميات البيزنطية وعلى شجاعة بعض السكان الموالين للروم . فأخذت تنهار عزائم المقاومة في وجه الزحف العربي . وبالتالي أخذت المدن تستسلم الواحدة بعد الأخرى .

وبينما كان أبو عبيدة قد انتهى لتوه من فتح شيرز . تمكن عسكره من القاء القبض على بعض رسل هرقل إلى حامية حمص ، فاستجوب هؤلاء الروم وتأكد منهم أبو عبيدة بأن هرقل قد عزم على بعث نجده لمعاونة حامية حمص ، عندئذ جمع أبو عبيدة عسكره وخطب فيهم قائلاً : (يامعشر العرب قد فتح الله على ايديكم هذه المدينة أيسر فتح وأهونه ، وقد خرج روم حمص من ذمتكم ووفيتم لهم ماعاهدتموهم عليه فارجعوا بنا إليهم)

ثم أمر أبو عبيدة عسكره بالتوجه نحو حمص وسيّر لواء العراق بقيادة خالد بن الوليد في مقدمة عسكره جريدة في آذار عام ٦٣٦ م

الموافق أول صفر عام ١٥ هـ وبالفعل استطاع خالد بن الوليد أن يفاجىء حمص بخَيْله واضطر الروم إلى الرجوع نحو المدينة وغلقوا أبوابها دون العرب . بينما كان عسكر أبي عبيدة يواصل قدومه ويأخذ بتطويق المدينة فارضا الحصار عليها لمدة عدة أشهر حتّى نفد الزاد من المدينة ، علماً بأن الكثير من سكان المدينة ، كانوا خارجها يمارسون التجارة ويجمعون الميرة . فعمل أبو عبيدة على دحض ادعاء هربيس حاكم حمص (المدعي بأن العرب قد غدروا) بما تجمع لديه من اثباتات الاتصال بين هربيس وهرقل بحيث يكون ذلك نقضا لشروط الصلح المبرم بين الفريقين والمشار إليه سابقاً ولم يلق هربيس من أبي عبيدة إلا القول له : (فلا عهد لكم عندنا ولا صلح إلا أن تصالحونا على فتح المدينة وتكونوا في ذمتنا . . . .) وبالطبع لم يستجب هربيس إلى هذا الطلب فكان ذلك إيذانا باستعداد الطرفين للدخول في جولة من الحرب ، حيث خرج هربيس من باب الرستن يقود خمسة آلاف من أفضل فرسان الروم . وخرج قادة آخرون من الأبواب الأخرى ، وتم التحام الجيشين المتحاربين في معركة ضارية . تعادلت فيها قوى الفريقين حيث هاجم العرب الروم في عدة مرات دون جدوى ثم مالبث العرب أن رجعوا القهقري يشكون من زيادة عدد القتلى والجرحى فيهم ، ولم يتمكنوا من تحقيق أي مكسب سوى دحر الروم إلى المدينة واستمرار القتال من على الأسوار . إلى أن هاجم الليل الفريقين المتقاتلين وفرض عليهما وقف القتال حتّى الصباح التالي . وبعد نوم قلق استقبل أبو عبيدة الصباح وأخذ يحث جنده على القتال بقوله(٣٤) : يا معاشر المسلمين . . . ما بالكم هزمتم وجزعتم منهم مع أن الله ألبسكم عافية مُجلّة وسلامة سابقة ،

وأظفركم على بطارقة الروم وفتح لكم الحصون والقلاع ، فما هذا

وبينما كان العرب يستعدون للمواجهة الحاسمة ، فتحت حمص أبوابها فجأة ، وخرج الروم من جميع الأبواب ، واندفعوا بقوة وعنف نحو العرب ، الذين تظاهروا بالضعف ، وطلبوا وقف القتال من الروم ، ثم أخذوا بالتراجع جنوباً متظاهرين بالخوف ، مستدرجين الروم للّحاق بهم ، مخلفين وراءهم عيالهم وسوائمهم فأسقط بيد الروم . وأخذ هربيس يجدّ في طلب الجيش العربي وقد وصف ذلك سراقة بن عامر بقوله : (انهزمنا أمام القوم كأننا نطلب الزراعة وجوسية وأخذت تامركنا بطارقة الروم وقد مال بعضهم إلى السواد طمعاً في الزاد والطعام) وهكذا عندما وجد أبو عبيدة الفرصة مؤاتية للانقضاض على جيش الروم ، أمر جيشه بالالتفاف حول الروم وفق خطة محكمة ومدروسة . ثم بدأ الجيش العربي هجومه على الروم كردوساً واحداً كالصاعقة ، إلا أن الروم فطنوا إلى مغزى تظاهر العرب بالهزيمة . وأدركوا مدى الخطأ الذي وقعوا فيه ، فحاولوا التعويض عن ذلك بالاستبسال والصمود في ميدان المعركة في وقت لم يعد يجدي فيه ذلك نفعاً . إذ بينما كان الروم يكتوون بنار جيش على رأسه أبو عبيدة وخالد بن الوليد كان معاذ(٣٥) بن جبل يقود خمسمئة فارس ويلاحق الروم الذين طمعوا بالسواد وما فيه من مال وغلال ، كما كان فرسان آخرون من العرب قد أمروا بالاسراع إلى أبواب حمص لاستخلاص عيال وسوائم العرب (فك أسرى)، وليمنعوا الروم الفارين من دخول المدينة والاستعانة بالاسوار ثانية وتأخير فتح المدينة . قال صهيب بن سيف الفزاري(٣٦) : (فوالله ما انفلت من الخمسة آلاف الذين كانوا مع هربيس صاحب

حمص إلا ما ينوف عن مئة فارس . وهكذا تتبعنا القوم إلى الأبواب ، لأن أكثر الرجال من العواصم وغيرهم كانوا من المدينة) .

من الرواية السابقة نتبين أن الروم لم يتمكنوا من الاعتماد على عرب حمص في حربهم ضد عرب شبه الجزيرة العربية ولكن جل اعتماد الروم كان على الجند المتكسب أكثر من اعتمادهم على تجنيد سكان المدينة والذي هو غير مضمون العواقب .

وخلاصة القول إن العرب استطاعوا انزال ضربة قاصمة بجيش الروم سواء عن طريق المبارزات الفردية بين قادة الفريقين والتي انتهت غالباً إلى صالح العرب . أو عن طريق ابادة فرسان ومشاة الروم في ميدان المعركة كما رأينا آنفاً . وبالتالي كان لا بدّ للروم من طلب الصلح وتسليم المدينة للعرب وفق الشروط التي اعتاد العرب فرضها على المهزومين من خصومهم .

وعلى أثر هزيمة الروم قام العرب بجمع الاسلاب والدروع والأسلحة الأخرى مع بقية الغنائم من أرض المعركة ثم وضع كل ذلك بين يدي القائد أبي عبيدة عامر بن الجراح الذي أخرج بدوره منها الخمس لبيت مال المسلمين وقسم الباقي بين المقاتلين(٣٧) . أما عدد القتلى في الجانب العربي فقد كان مئتين وخمسة وثلاثين فارساً كلهم من حمير وهمدان إلا ثلاثين رجلاً من أهل مكة منهم : عكرمة بن أبي جهل — يوجد له مشهد في حي عكرمة جنوب القلعة بحمص على طريق دمشق وفي رواية أخرى استشهد في معركة أجنادين عام ٦٣٤ م(٣٨) — وصابر بن جريه والرّيس بن عقيل ، ومروان بن عامر ، والمنهال بن عامر السلمي ابن عم العباس وجمح بن قادم ، وجابر بن حويلد الربعي و . . . .) .

أما بخصوص الصلح فقد روى البلاذري(٣٩) (. . إن الصلح جرى على مئة ألف وسبعين ديناراً ، وعلى أن أمنهم – يعني سكان حمص – على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وأرحائهم واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد – وأظنها كنيسة أم الزنار الحالية والتي يقام بجوارها مسجد محمد بن مسلمة وعلى مساحة تعادل ربعها – واشترط الخراج على من أقام منهم) وقيل : تمّ الصلح مع أهل حمص على أنصاف دورهم وعلى أن يترك المسلمون أموال الروم وبنيانهم لا ينزلونه عليهم . فتركوه لهم . فصالح بعضهم على صلح دمشق . على دينار وطعام عن كل جريب أبداً أيسروا أو أعسروا . وصالح بعضهم على قدر طاقته . إن زاد ماله زيد عليه ، وإن نقص نقُصَ . وبعد ابرام اتفاق الصلح أراد أهل حمص ان يكرموا الجيش العربي بالاقامة وتقديم العلوفة لرواحله ودوابه . فأبى ذلك أبو عبيدة ولم يسمح لأحد من المسلمين بدخول حمص وصانها عن التخريب ، تعبيراً عن صدق النوايا تجاه الأشقاء سكان حمص . وقد وصف حبان بن تميم الثقفي نزول أبي عبيدة على حمص بقوله : (نصبنا بيوت الشعر على العمد وأقمنا خارج المدينة لا يدخل إليها أحد منا ونحن مع ذلك نشنّ الغارة على سواحل الروم ونكبس على العرب الذين لم يكونوا في صلحنا(٤٠) . وكنا إذا خرجنا في سريّة نبيع الغنائم في بعلبك التي فرح أهلها ببيعنا وشرائنا لأنهم وجدونا ليس فينا كذب ولا خيانة ولا نريد ظلم أحد . فطابت قلوبهم ، وربحوا في تلك المدة اليسيرة مالاً عظيماً . . . .) . ويبدو أن ذلك كان قبل اتخاذ قرار الاستقرار والاستيطان في حمص .

وبعد اتخاذ قرار الاستقرار والاستيطان أنزل أبو عبيدة إلى حمص السمط به الأسود الكندي الذي قسم حمص خططاً – مقاسم – بين المسلمين فأسكنهم في كل مرفوض – غير عامر – جلا أهله عنه أو ساحة متروكة ، فنزل السمط نفسه في بني معاوية والأشعب بن ميناس في السكون . والمقداد في بلّي ثم نزلها آخرون فيما بعد . وكان أبو عبيدة عندما تمّ له فتح حمص . قد كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يخبره بالفتح . وبعث الأخماس إلى بيت مال المسلمين في المدينة مع عبد الله بن مسعود(٤١) وقد أوفده . وكان مما فعله المسلمون منذ البداية أن تقربوا إلى السكان بالعدل وحسن الصحبة لما بين الجميع من صلات القربى وما توجبه وحدة المصالح ، وطبقاً لذلك فقد عُين رجل من أهل المدينة على خراجها وبذلك كان الجميع مشتركين في ادارة المجتمع الواحد . وعندما أراد أبو عبيدة مغادرة المدينة ليحرر حماة . خلّف على حمص عبادة بن الصامت – النوفلي – وبدون عناء كبير تمكنت الجيوش العربية الاسلامية من تحرير مدن سورية الشمالية وفي السنة السابعة عشرة للهجرة الموافقة ٦٣٨ م خرج الروم وتكاتبوا مع أهل جزيرة الشام (يريدون أبا عبيدة والمسلمين في حمص .فضم أبو عبيدة إليه جميع مسالحه وعسكروا بفناء مدينة حمص . واستشار أبو عبيدة المسلمين فيما سيفعل فقال خالد بن الوليد . نخرج ونناجز القوم ، وقال بقية الناس بل نتحصن ونخبر عمر وننتظر الجواب والمدد . فعمل أبو عبيدة برأي الأكثرية ، وكتب إلى عمر . وقد كان عمر اتخذ في كل قطر على قدره خيولاً من فضول أموال المسلمين عدة لكون ان كان . فكان بالكوفة من ذلك اربعة الاف فارس . كتب عمر إلى سعد بن مالك : ان اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرحهم من يومهم الذي يأتيك

فيه كتابي إلى حمص . وكتب إليه أيضاً ان سرح سهيل بن عدي الى أهل الجزيرة الذين هم استثاروا الروم على أهل حمص وأن أهل قرقيسيا لهم سلف . وسرح عبد الله بن عبد الله بن عتبان إلى نصيبين ، ثم لينفضا حران والرهاء.وسرح الوليدبن عقبة،على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وسرح عياضاً(قائد معروف)،فان كان قتال فقد جعلت امرهم جميعاً إلى عياض بن غنم . فمضى القعقاع بن عمرو في أربعة الاف من يومهم الذي أتاهم فيه الكتاب نحو حمص . وخرج عياض بن غنم وأمراء الجزيرة ، فأخذوا طريق الجزيرة على الفراض وغير الفراض . وتوجه كل أمير إلى الكورة التي أمر عليها فأتي الرقة . وخرج عمر من المدينة مغيثا لأبي عبيدة يريد حمص حتى نزل الجابية . ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص واستثاروهم وهم معهم مقيمون عن حديث من الجزيرة منهم ؟ بأن الجنود قد ضربت من الكوفة . ولم يدروا الجزيرة يريدون أم حمص. فتفرقوا إلى بلدانهم،وعند قسمة الغنائم ،استشير عمر بأمر جند الاغاثة فأمر باعطائهم واشراكهم في القسمة كالمقاتلين مع أبي عبيدة ، وبعد ذلك استقرت الأوضاع الأمنية في حمص ونحوها .

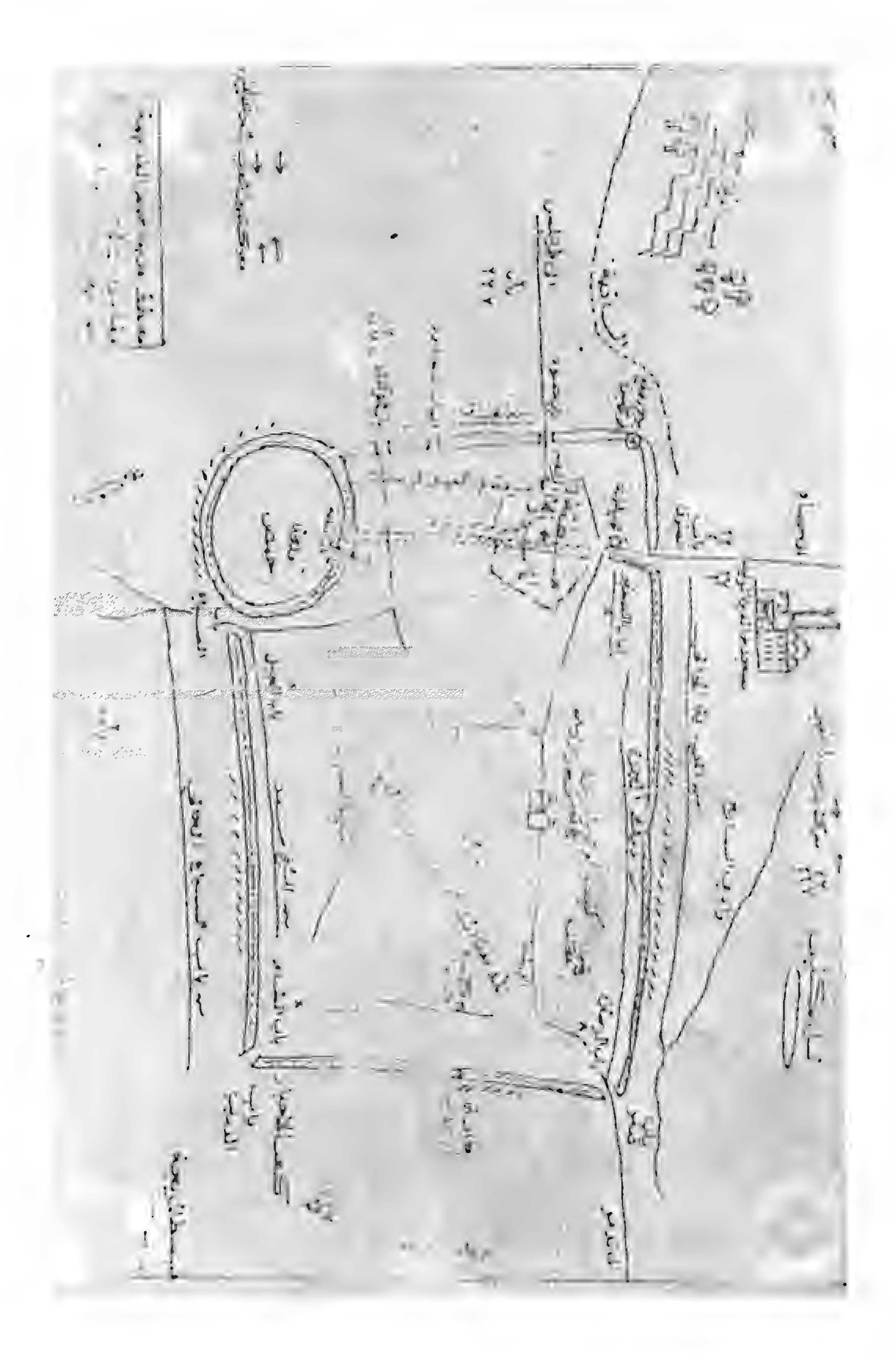
وبعد وفاة أبي عبيدة بطاعون عمواس . كان على حمص من عمال عمر بن الخطاب سعيد (٤٣) بن عامر بن حِزْيَم ، فشكاه أهل حمص إليه ، وسألوه عزله ، فقال عمر : اللهم لا تفل فراستي فيه اليوم ، وقال لهم : ماذا تشكون منه ، قالوا : لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار ولا يجيب أحداً بليل ، وله يوم في الشهر لا يخرج إلينا فقال عمر : عليَّ به ، فلما جاء جمع بينهم وبينه فقال ما تنقمون منه ؟ قالوا : لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار . فقال ما تقول يا سعيد ؟ قال : يا أمير

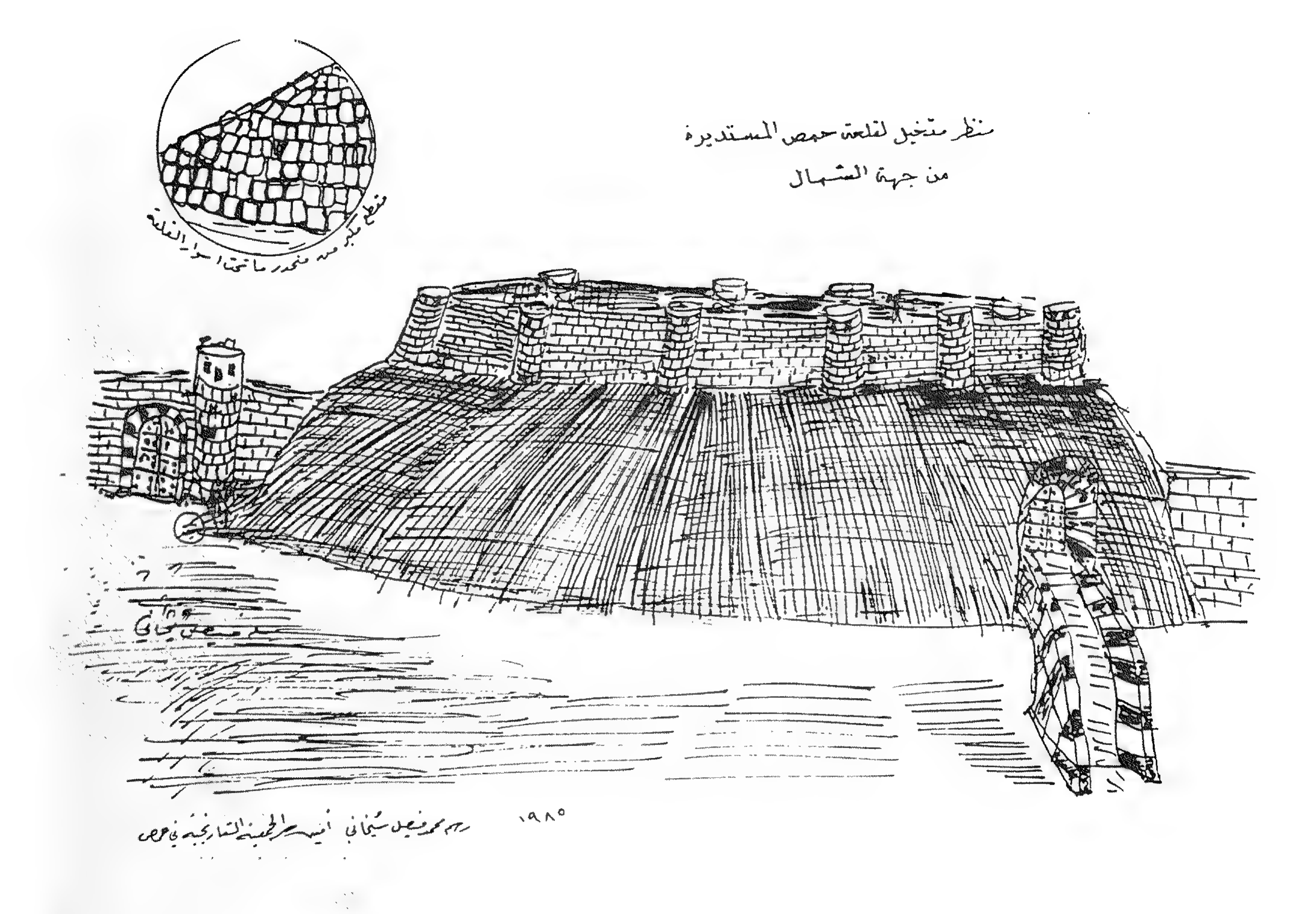
المؤمنين إنه ليس لأهلي خادم ، فأعجن عجيني ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزي ثم أتوضأ وأخرج إليهم قال وماذا تنقمون منه ، قالوا : لا يجيب بليل ، قال قد كنت أكره أن أذكر هذا . إني جعلت الليل كله لربي . وجعلت النهار لهم قال : وماذا تنقمون منه ؟ قالوا له يوم في الشهر لا يخرج إلينا فيه قال : نعم ليس لي خادم فأغسل ثوبي ثم أجففه فامسي . فقال عمر : الحمد لله الذي لم يفل فراستي فيه . يا أهل حمص استوصوا لواليكم خيراً . ثم بعث عمر إليه ألف دينار قائلاً له . استعن بها . فقالت له امرأته — عندئذ — قد أغنانا الله عن خدمتك . فقال لها : الا تدفعيها إلى من يأتينا (بها) أحوج ما كنا إليه ؟ قالت : بلى . فصرها صرراً ثم دفعها إلى من يثق به وقال : انطلق بهذه الصرة إلى فلان . وبهذه إلى يتيم بني فلان . وهذه إلى مسكين بني فلان ، حتى بقي منها شيء يسير . فدفعه إلى امرأته . وقال: انفقي هذا ، ثم عاد إلى خدمته . فقالت له امرأته الا تبعث إلي ذلك المال فنشتري لنا خادماً . فقال سيأتيك أحوج ما تكونين إليه (٤٤) . . . وبحمص من المزارات والمشاهد مشهد علي بن أبي طالب . . . وبها دار خالد بن الوليد . . . وقبره فيما يقال وبعضهم يقول أنه مات في المدينة ودفن فيها وهو الأصح وعند قبر خالد قبر عياض بن غنم القرشي الذي فتح بلاد الجزيرة ، وفي حمص قبر زوجة خالد بن الوليد . وقبر ابنه عبد الرحمن . . . وقيل بها قبر عبيد الله بن عمر بن الخطاب والصحيح أن عبد الله قتل في صفين فان كانت نقلت جثته إلى حمص فالله أعلم ويقال أن خالد بن الوليد مات بقرية على بعد نحو ميل من حمص وأن هذا الذي يزار في حمص انما هو قبر خالد بن يزيد بن معاوية وهو الذي بني القصر بحمص وآثار هذا القصر في غرب الطريق باقية . . . وبها قبر قنبر مولى علي بن

أبي طالب ويقال أن قنبر قتله الحجاج وقتل إبنه وقتل ميثماً التمار بالكوفة . . . وبها قبور أولاد جعفر بن أبي طالب وهو جعفر الطيار وبها مقام قبر يونان والحارث بن عطيف الكندي وخالد الأزرق العاضري والحجاج ابن عامر وكعب الأحبار وغيرهم . . .) .

وفي حمص قبور أو مقامات لعمر بن عبد العزيز وأبي موسى الأشعري وأبي الهول وميسرة بن مسروق ورابعة العدوية .

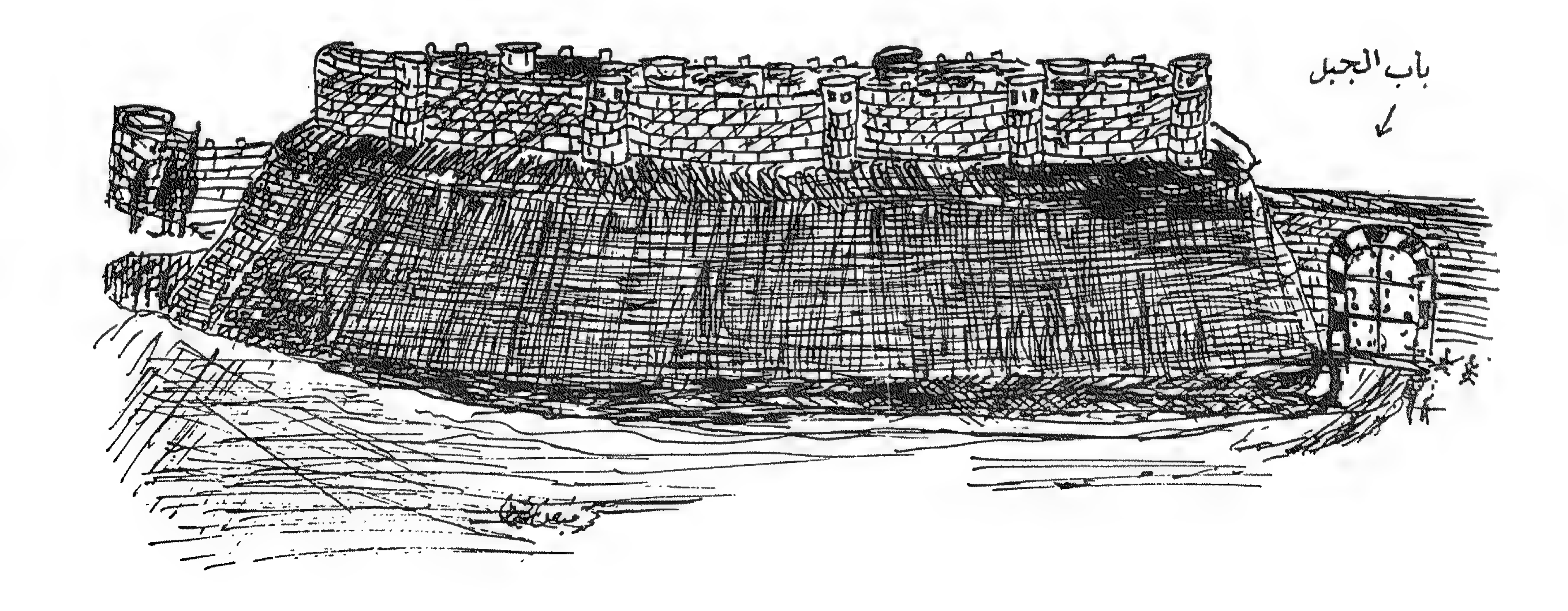
* * *

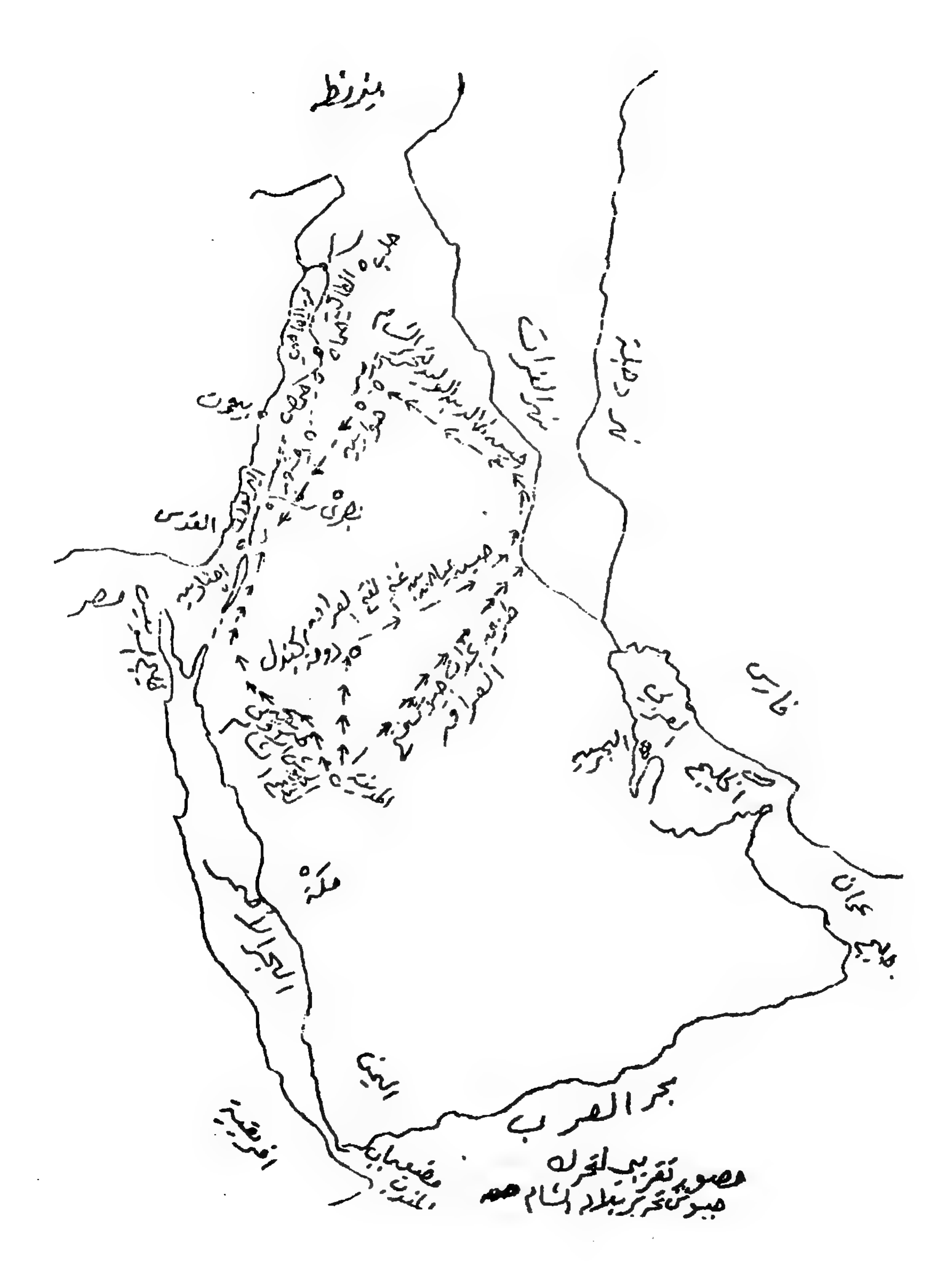



منظر متخيل لقلعة حمص المستديرة
من جهة الشمال
مقطع مكبر مما يتحدر ما تحت أسوار القلعة
١٩٨٥
رسم محمد فيصل شيخاني أمين الجمعية التاريخية في حمص

صورة متخيلة لقلعة حمص المستديرة

المنظر من جهة الجنوب





مصور تقريبي لحركة جيوش تحرير بلاد الشام

مراجع البحث

١ ـ راجع كتاب تطور نظام ملكية الأراضي في الاسلام ـ الدكتور محمد علي نصر الله .

٢ ـ راجع كتاب الأمم الإسلامية ـ الشيخ محمد الخضري ج ١ ص ٢٦٤ و ٢٦٥

٣ ـ راجع كتاب خطط الشام ـ محمد كرد علي ج ١ ص ١٠٩

٣ ـ راجع كتاب المغازي ـ الواقدي ص ٩٨٩

٤ ـ راجع كتاب المغازي ـ الواقدي ص ١١٢٤

٤ ـ راجع كتاب الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ج ٢ ص ٢٨٤

٤ ـ راجع كتاب الأمم الإسلامية ـ الشيخ محمد الخضري ج ١ ص ١٤٤

٤ ـ راجع كتاب الطريق إلى دمشق ـ أحمد عادل كمال ص ١٥٢

٥ ـ راجع كتاب خالد بن الوليد ـ الجنرال اكرم ص ٣٤٠

٦ ـ راجع كتاب الأمم الإسلامية ـ الشيخ محمد الخضري ج ١ ص ٢٨٠ و ٢٨١ .

٧ ـ راجع كتاب المختصر في أخبار البشر ـ أبو الفداء ج ١ ص ١٥٩

٧ ـ ايضاً : مجلة السريان الارثوذكس ص ٤١٥ ـ حول اضطهاد البيزنطية للمسيحيين العرب . بقلم سيادة مار اغناطيوس يعقوب الثالث بطريرك انطاكية وسائر المشرق .

٨ - راجع كتاب تاريخ الحضارة — الدكتور جورج حداد ص ٢٢٨ و ٢٣٥ و ٢٤٧ و ٢٤٩ .

٨ — راجع كتاب فتوح الشام — الواقدي ج ١ ص ٩٨

٨ — راجع كتاب خالد بن الوليد — الجنرال اكرم ص ٣٤١ و١٠١ بعدها

٩ — راجع كتاب فتوح الشام — الواقدي ج ١ ص ٩ و ١١٠ و ١٤٢ و ١٤٣

١٠ — راجع كتاب خالد بن الوليد — الجنرال اكرم ص ٤٣٩

١١ — راجع كتاب المغازي — الواقدي ص ١٠١٥ و ١١٢٤

١١ — راجع كتاب خالد بن الوليد — الجنرال اكرم ص ٣٩٨

١٢ — راجع كتاب تاريخ سورية ولبنان — فيليب حتي ج ٢ ص ١٤

١٣ — راجع كتاب خالد بن الوليد الجنرال اكرم ص ٣٢٧ و ٣٥٩

١٤ — راجع كتاب فتوح الشام — الواقدي ج ١ ص ١١

١٥ — راجع كتاب الفتوحات العربية الكبرى — جون باشون جلول ترجمة خيري حماد — الهامش للمترجم ص ٢٣٤

١٥ — راجع كتاب تاريخ بلاد الشام حتى نهاية العصر الأموي — أحمد اسماعيل علي ص ١٠٣

١٥ — راجع كتاب الفخري في الآداب السلطانية — ابن طباطبا ص ٧٥

١٥ — راجع كتاب الطريق إلى دمشق أحمد عادل كمال ص ٢٣٢

١٥ — راجع كتاب موجز تاريخ العرب — سيد أمير علي ص ٤٢

١٦ — راجع كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية — كارل بروكلمان ص ٩٤ .

١٧ — راجع كتاب خالد بن الوليد — الجنرال اكرم ص ٣٦٦

١٧ ـ راجع كتاب معجم البلدان ـ ياقوت الحموي ج ٣ ص ٣٣٩

١٨ ـ راجع كتاب فتوح الشام ـ الواقدي ص ١٤٢

١٩ ـ راجع كتاب خالد بن الوليد ـ الجنرال اكرم ص ٤٤٥ و ٥٠٩ و ٥١٤

١٩ ـ راجع كتاب الطريق إلى دمشق ـ أحمد عادل كمال ص ٤١٠ و ٤١٥

٢٠ ـ راجع كتاب خالد بن الوليد ـ الجنرال اكرم ص ٥٠٩ و ٣٥٤

٢٠ ـ راجع كتاب قصة الحضارة رول ديورانت مجلد ١٣ ص ٧٠

٢١ ـ راجع كتاب خالد بن الوليد ـ جنرال أكرم ص ٣٣٣ و ٣٦٧ و ٣٦٨ و ٣٦٩ .

٢٢ ـ راجع كتاب خالد بن الوليد الجنرال اكرم ص ٣٥٥

٢٣ ـ راجع كتاب خالد بن الوليد الجنرال اكرم ص ٤٥٥ و ٥٠٩ و ٥١٤

٢٣ ـ راجع كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية ـ كارل بركلمان ص ٧٥

٢٣ ـ راجع كتاب الطريق إلى دمشق . أحمد عادل كمال ص ٤٣٦

٢٤ ـ راجع كتاب فتوح الشام ـ الواقدي ـ ج ١ ص ٢٥ و ٢٦

٢٥ ـ راجع كتاب فتوح الشام ـ الواقدي ج ١ ص ٦٤

٢٦ ـ راجع كتاب فتوح الشام ـ الواقدي ج ١ ص ٦٥

٢٧ ـ راجع كتاب خالد بن الوليد ـ الجنرال اكرم ص ٤٣٧

٢٨ ـ راجع كتاب فتوح الشام ـ الواقدي ج ١ ص ٨٨ و ٧٧

٢٩ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي – ج ١ ص ٨٨

٣٠ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي – ج ١ ص ٨٩

٣١ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي – ج ١ ص ٨٥ و ٩٨

٣١ – راجع كتاب خطط الشام – محمد كرد علي ج ١ ص ١٠٩

٣٢ – راجع كتاب المغازي – الواقدي ص ٩٨٩

٣٣ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي – ج ١ ص ٩٢

٣٤ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي – ج ١ ص ٩٤

٣٥ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي – ج ١ ص ٩٥

٣٦ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي – ج ١ ص ٩٥ .

٣٧ – راجع كتاب تاريخ الملوك – الطبري ج ٣ ص ٦٠١ .

٣٧ – راجع كتاب الطريق إلى دمشق ، أحمد عادل كمال ص ٢٩٦

٣٨ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي ج ١ ص ٩٦

٣٩ – راجع كتاب فتوح البلدان – البلاذري ص ١٣٦ و ١٣٧

٤٠ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي ج ١ ص ٨٥

٤٠ – راجع تاريخ الرهاوي المجهول – في مكتبة سيادة مطران حمص السريان الأركوذكس ملاطيوس برنابا لدي صورة بخط سيادته عمايهم .

٤١ – راجع كتاب تاريخ الملوك – الطبري ج ٣ ص ٦٠١

٤١ – راجع كتاب الكامل في التاريخ – ابن الأثير ج ٢ ص ٣٤٢

٤٢ – راجع كتاب تاريخ الملوك – الطبري ج ٤ ص ٥٠

٤٣ ـ راجع كتاب مروج الذهب ـ المسعودي ج ٢ ص ٣٠٦

٤٤ ـ راجع كتاب معجم البلدان ـ ياقوت الحموي ج ٣ ص ٣٤٠

٤٥ ـ راجع كتاب مصور مدينة حمص عن العدد الثاني لمجلة البحث التاريخي الصادرة في حمص .

٤٦ ـ راجع كتاب مصور قلعة حمص من الشمال بالاعتماد على بعض الآثار المتبقية .

٤٧ ـ راجع كتاب مصور قلعة حمص من الجنوب بالاعتماد على بعض الآثار المتبقية .

٤٨ ـ راجع كتاب مصور حروب حركة التحرير والفتح للجيش العربي الاسلامي في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر بن الخطاب فيما يتعلق بتحرير مدينة حمص من السيطرة البيزنطية .

أسواق حمص

دراسات شاملة

محمد فيصل شيخاني

من المتعارف عليه ان سوق المدينة ظاهرة اقتصادية ولكنها في التعريف الأشمل ظاهرة إنسانية حضارية تشمل المكان مجموعة : (الحو نيت والمسقفات) والإنسان (الباعة والمشترون) والسلعة (المصنوعة أو الخام) . ومن هذا التعريف فليست السوق تعبيرا عن حياة المدينة الاقتصادية وعنوان نشاطها الصناعي والزراعي والتجاري فحسب بل هي أيضاً تعبير عن حياتها الاجتماعية وقيمها الأخلاقية وطراز معيشتها وعن سياستها . الم تكن أسواق روما منبرا لخطب الخطباء وأسواق العرب مسرحا للشعر والشعراء ، وفي سورية الم يؤثر الاضراب والمقاطعة الاقتصادية التي أعلنها الشعب العربي عام ١٩٣٦ على مجريات سياسة الانتداب الفرنسية .

لقد تميزت الأسواق العربية خلال العصور بنشاطها ويتنوعها وسيادة بعض النظم فيها كالحسبة(١) مثلاً . وأسواق حمص لا تخرج عن الصفات

(١) عالم الفكر (بحث عن المدينة الاسلامية)

التي اتصفت بها السوق العربية . فقد أخذت أشكالا معينة أو اختصت بسلعة من السلع كما أن الموقع الستراتيجي الهام قد ساهم في تنمية الحركة التجارية وأدى إلى تنشيط الأسواق فيها تجاريا ومعماريا واجتماعيا.

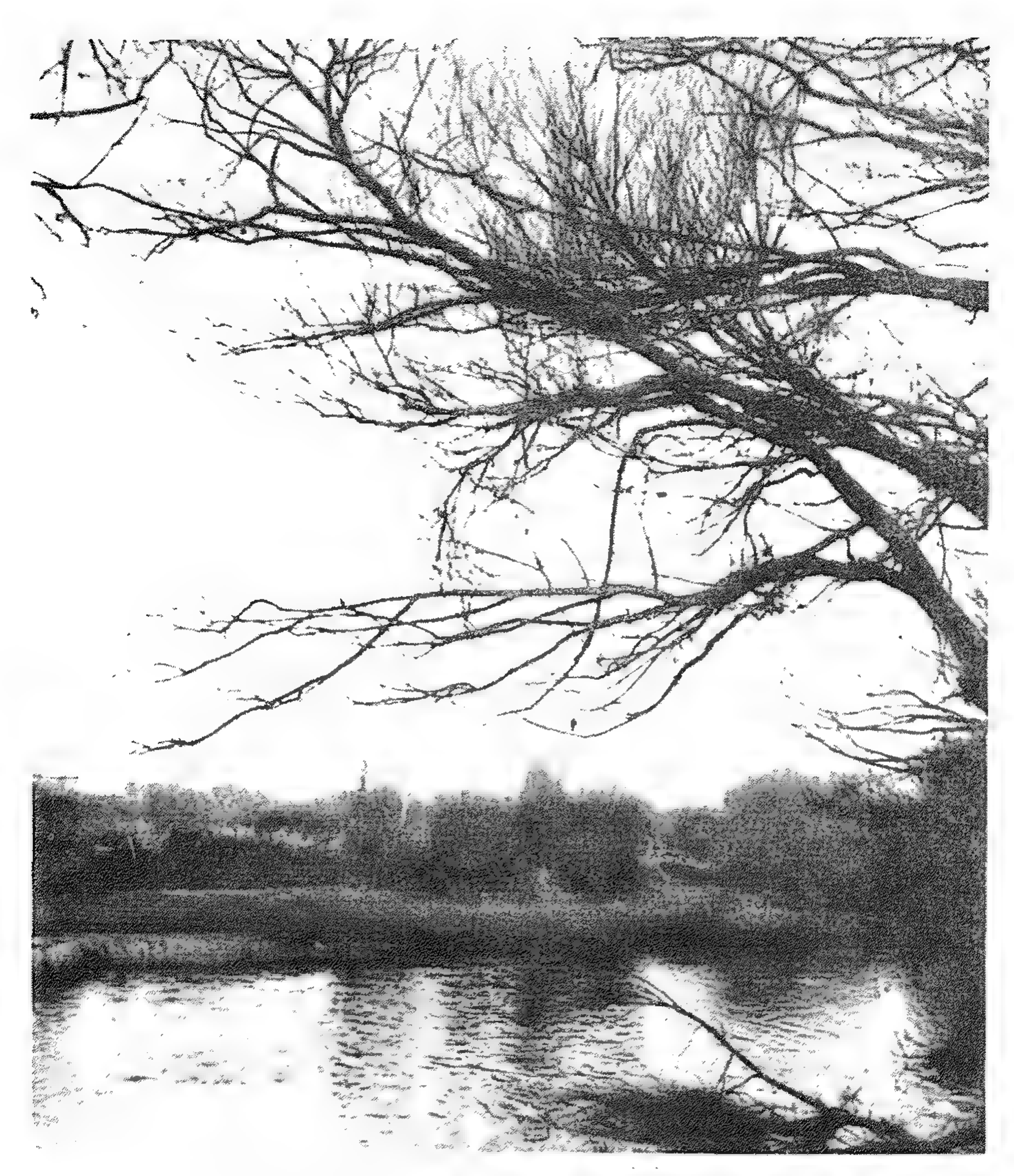
(الأهمية الاقتصادية) كون حمص مركز تجارة ريفية بلوية حضرية

لقد تميزت حمص باختلاف بنيوي وتضاريسي ومناخي مما اعطاها تنوعا في الحياة النباتية والحيوانية ونمط عيش السكان(٢) . فظهور الفائض الزراعي استتبع وجود معاصر الزيتون وصناعة الدبس وطحن الحبوب وبالتالي صناعة الأدوات اللازمة للزراعة وظهور الفائض الحيواني استتبع ظهور صناعة الدباغة وغزل الصوف وصنع البسط والاستفادة من الفرو والوبر ولحاجة المزارع والبدوي لتصريف انتاجهما وشراء حاجياتهما المصنوعة ، وحاجة سكان وصناع المدينة لهذه المنتجات وتصريف انتاجهم الصناعي نشأت أهمية حمص كملتقى لهذه الفئات الثلاث وزاد في اواصر العلاقات قرب مناطق الإنتاج من بعضها مما انتج علاقات أخرى كالسمسرة والشراكة بالاضافة إلى ان عددا كبيرا من سكان البلدة كانوا يزاولون مهنة البستنة وتأثير هؤلاء لا ينكر في اقتصاد البلدة .

ومما زاد في أهمية حمص منذ القديم كمركز صناعة وتجارة ريفية بلوية حضرية (موقع حمص المتوسط) بين الممالك والمراكز العسكرية القديمة في المنطقة مثل قطنة وقادش واريتوزا وتدمر وجوسية بالإضافة إلى ممالك حماه ودمشق .

---

(٢) ربوع حمص للدكتور عماد الدين الموصلي)



مجرى نهر العاصي حيث تستمد مدينة حمص المياه منه

الأهمية التاريخية

ومما لا شك فيه أن اعتبارات ومظاهر تاريخية متتابعة ، ساعدت على استمرار وازدهار الحياة الاقتصادية ومن أهمها .

١ ـ لقد حظيت حمص بمكانة دينية وثنية قبيل ظهور المسيحية وأثناءها فقد بنى فيها معبد الشمس الذي ضم بين جدرانه الكهنة الكثيرين

الذين كانوا يجرون طقوسهم التعبدية للمريدين من داخل المنطقة وخارجها : وحاجة هؤلاء متنوعة من مبيت وشراء تمائم وتقديم نذور وأغذية ولوازم استهلاك مما استدعى تنامي فئة التجار المنتفعة والمرتبطة مصلحيا مع طبقة كهنة الشمس والذين تآمروا جميعا في صد تقدم الدين المسيحي ولاحقوا اتباعه(١) .

٢ — وبوجود أسرة شمس غرام الملكية العربية في حمص من اواخر عهد المكدونيين واوائل عهد الرومان من — ٨١ ق.م — ٩٦(٢) م . والتي امتدت سلطتها لتشمل حمص واريتوزا وسلاميا(٣) ، استمر ازدهار الأسواق نظرا لحاجة الأسر الملكية للابهة وترابطها مع الاتباع .

٣ — عندما قضى الرومان على استقلال حمص الذاتي بقي لحمص أهميتها اذ اعطاها الامبراطور مارك اوريليوس حق صك العملة وجعلها قاعدة سورية اللبنانية . كما انتعشت المدينة عندما تزوج الامبراطور سبتموس سيفيروس ١٩٣ — ٢١١ م من جوليا دومنة الحمصية ابنة رئيس معبد الشمس . بما ظهر فيها من تحسينات في الطرق والقنوات واتبع ذلك حصولها على حقوق منزلة المدن الرومانية على يد الامبراطورين كاركلا وايلاغا بال ٢١٨ — ٢٢١ .

٤ — وعند استقلال حكومة تدمر على يد اذينة وزنوبيا واتساعها لتشمل آسيا الصغرى وسورية ومصر بقيت حمص مزدهرة كمدينة مهمة قرب تدمر . في هذه الامبراطورية الناشئة(١) . وقد جعلها اذينة مكانا لاستجمامه . وعندما قضى الامبراطور اورليان على مملكة تدمر سنة ٢٧٢ كان قد عمل على تحييد أهل حمص تجاه زنوبيا بوعده بتجديد معبد الشمس في هذه المدينة .

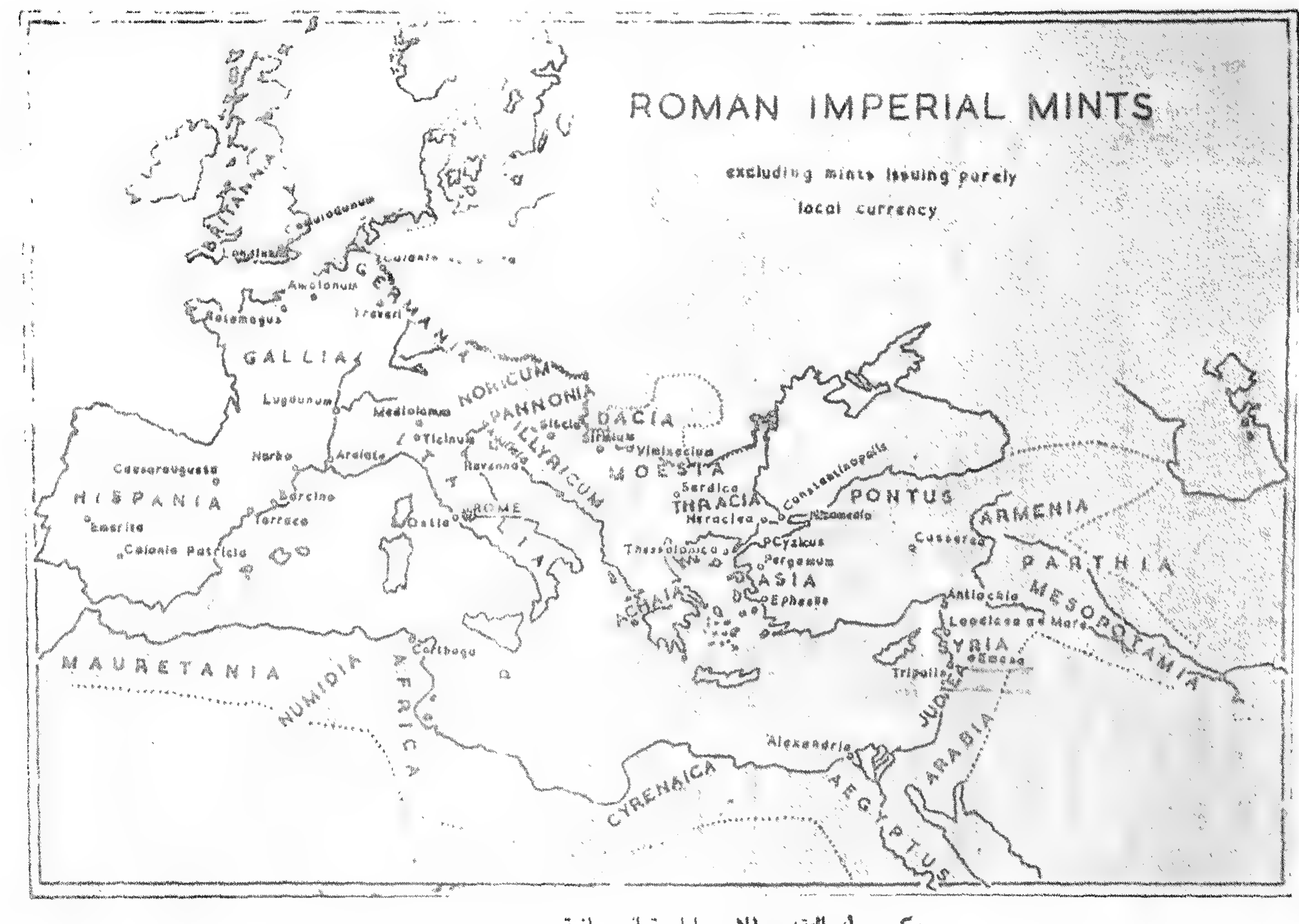
---

(١) المؤرخ الالماني هارناك

(٢) جولة أثرية لأحمد وصف زكريا ص ٣١٧

(٣) الاسم القديم (السلمية)

(١) تدمر للدكتور عدنان البني والأستاذ خالد أسعد



مراكز صك النقد الامبراطورية الرومانية
وحمص احدى هذه المراكز

٥ ـ ولما قدم العرب المسلمون لتحرير حمص من البيزنطيين ١٤ هـ / ٦٣٥ م خرج الباعة الحمصيون إلى معسكر المسلمين فباعوهم القسم الأعظم من المؤونة لما راوه من سماحة العرب في البيع والشراء .

كما جرت تبادلادت تجارية مع الجيش العربي عندما صار هريبس بطريقا على حمص من قبل هرقل وقد سر الحمصيون في أنهم كانوا يشترون من العرب ما يعادل عشرين ديناراً بدينارين(٢) .

وبعد تحرير حمص استمر ازدهار المدينة بسبب اقامة عدد كبير من الصحابة فيها :

آ ـ وبعد ما جمع هرقل الجموع للمسلمين ردوا لاهل حمص ما كانوا قد أخذوه من خراج وهو ١٧٠،٠٠٠ دينار فقال السكان : لولايتكم وعدلكم أحب الينا من الظلم والضيم ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم(٣) وهذا دليل ما ساد المدينة والمحررين من ود وثقة دعمت الحياة الاقتصادية في المدينة بالاضافة إلى توسع سلطة ولاة حمص لتشمل مدن الجزيرة شمالا . كما ان حمص حظيت بولاة عظام مثل عمير بن سعيد الذي كان يقول : ان حائط الدولة العدل وبابه الحق وان شدة السلطان تكون قضاء بالحق وأخذا بالعدل(٤) وكان عمير هذا على حمص وقنسرين والجزيرة وقد فتح عين الوردة ورأس العين ومدن الخابور وخفف الصدقة على نصارى تغلب حتى يبقوا في أرضهم ولايلتحقوا بالروم(٥) .

---

(٢) تاريخ حمص ج ٢ منير عيسى أسعد
(٣) خطط الشام محمد كرد علي ج ٢ ص ١٣٣
(٤) المرجع السابق
(٥) تاريخ حمص ج ٢ ص ٤٦

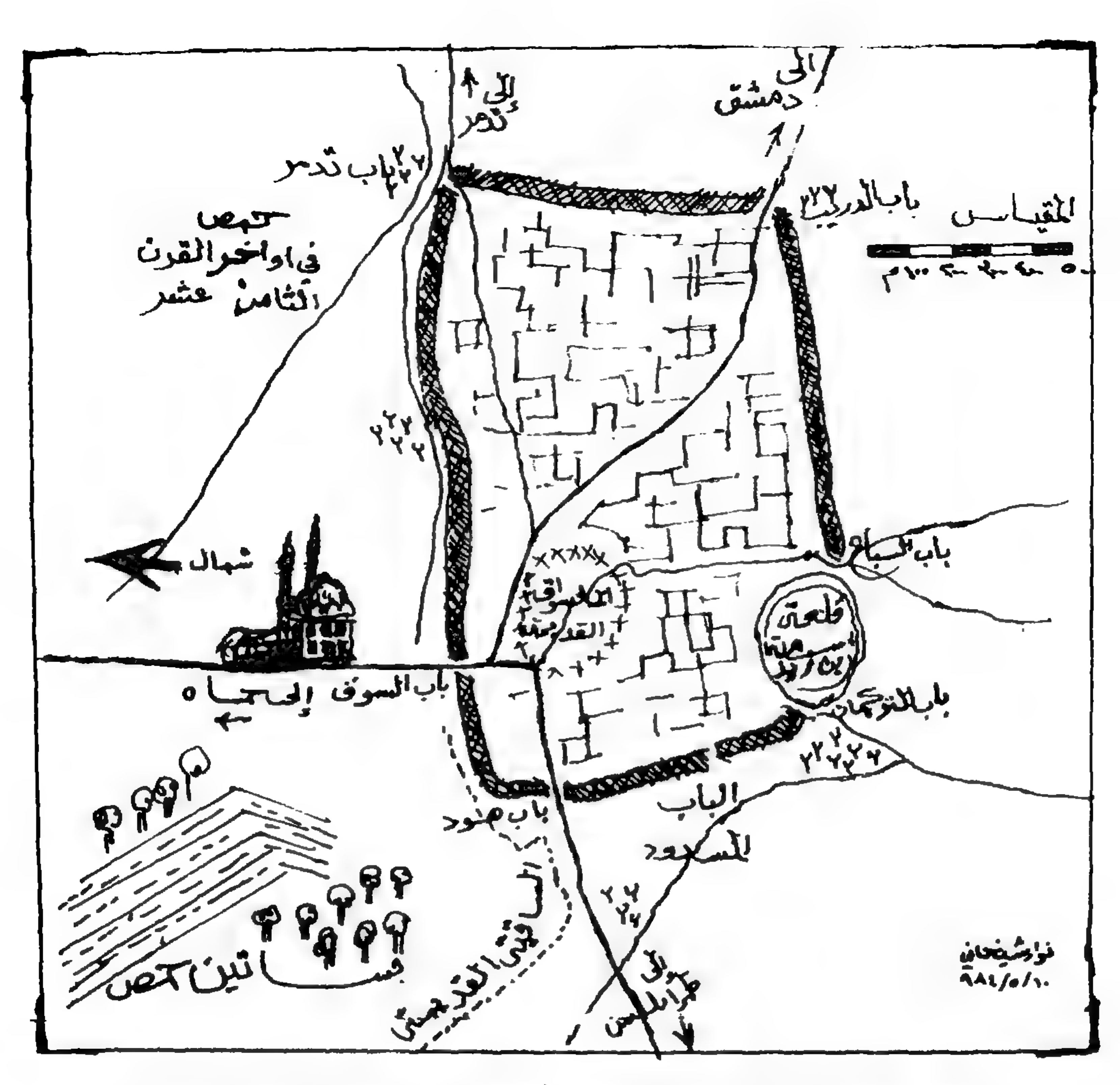
ب - وبانقضاء حكم الأمويين ورغم أن حمص بعدت عن مركزه العاصمة الجديدة بغداد بقي لها ازدهارها الاقتصادي حيث بلغت جبايتها زمن هارون الرشيد ٣٤٠ ألف دينار والف حمل من الزبيب(١) .

ج - ولا ادل على استمرار ازدهار أسواق حمص ما وصفها المؤرخون بأنها ارصفتها مفروشة بالصخر(٢) ووصفت في القرن العاشر الميلادي بان مدينة حمص في مستوى من الأرض خصبة جدا من أصح بلاد الشام هواء وتربة وفي أهلها جمال . . ولها مياه وزروع وعامة طرق حمص مفروشة بالحجارة(٣) . وفي زمن النوريين والصلاحيين صارت حمص مركز تجمع وانطلاق للجيوش العربية ضد الفرنجة وصارت عامرة بالناس والمسافرين اليها يقصدونها بالامتعة والبضائع في كل فن . وأسواقها قائمة ومسرات أهلها دائمة . . . وثراها طيب للمزروعات واقتناء الغلات وطرقها مفروشة بالحجر وزراعتها مباركة(٤) بالاضافة إلى أن أبوابها متسامية لارتفاعها تكتنفها الابراج(٥) .

هـ - وفي زمن المماليك استمر تقدم حمص الاقتصادي رغم الكساد الذي ساد المنطقة نتيجة تحول طرق التجارة من البحر المتوسط إلى الأطلس بعد الكشوف الجغرافية الأوربية وصارت حمص تتلو اسكندرية مصر ينتج فيها من الأقمشة الفائقة الجودة(٦) وان جميع شوارعها مفروشة

---

(١) خرد ذابه في جولة اثرية ص ٣٢٢
(٢) الهمداني في كتاب البلدان
(٣) العالم الجغرافي الاصخري في القرن العاشر
(٤) الاوريس ٤٩٣ هـ - ٥٦٩ هـ
(٥) ابن جبير المتوفى ٦١٤ هـ
(٦) ابن النصن انونى ٧٠٠ - ٧٤٩ هـ



بالحجر الصلد(٧) وارجاؤها موثقه وأشجارها مورقه وأسواقها فسيحة الشوارع (٨) .

حمص في أواخر القرن الثامن عشر

د – وفي زمن العثمانيين نجد الرحالة أوليا تشلبي(٩) يذكر أن حمص مركز لواء يتبع ايالة طرابلس الشام وفيها أميرلاي وبوز باشي

---

(٧) ابن الوردي ١٣٢٩ م

(٨) ابن بطوطه ٧٧٩ ه

(٩) ١٦١٣ – ١٦٧٩ م ١٠٥٨ ه

ونقيب اشراف ومحتسب وينتج فيها من الحرير مناشف ومناديل وفوط ويذكر محمد مكي بن السيد في مخطوط تاريخ حمص من عام ١١٠٠ — ١١٣٥ هـ انه في عام ١١٠٧ هـ انجز بناء السوق الجديدة ويقصد بها احدى الأسواق القديمة القائمة على أيامنا ويذكر أن الساقية في حمص قد تجمدت وبطلت حركة الأسواق .

وعندما تولى حكام محليون منطقة حمص مثل آل العظم وآل الجندي ازداد ازدهارها وقد عثرت في مخطوطات قديمة عن بناء الأسواق واورد فيما يلي شيئا عنها على سبيل المثال تاركا التفصيل في هذا المضمار لمجالات ثقافية أخرى .



شارع السراي (دار الحكومة) من اوائل القرن العشرين

---

(١٠) المؤرخ الحمصي عبد الهادي الوفائي (مخطوط)

تاريخ بناء سوق بني العظم

بديـــع في محاسنه تغــــرد
وقد أضحــى على الآفاق فــرقـد

لقد انشا بحمص الشام سوقــــا
غــــدا يزهو جمالا وقد تجـــدد

به ابتهجـــــت مدينتنـــا سرورا
فما احلاه مــــن سوق مشيـــد

بناه سيد مــــن آل عظـــم
بهمة رفعـــت زاهي محمـــد

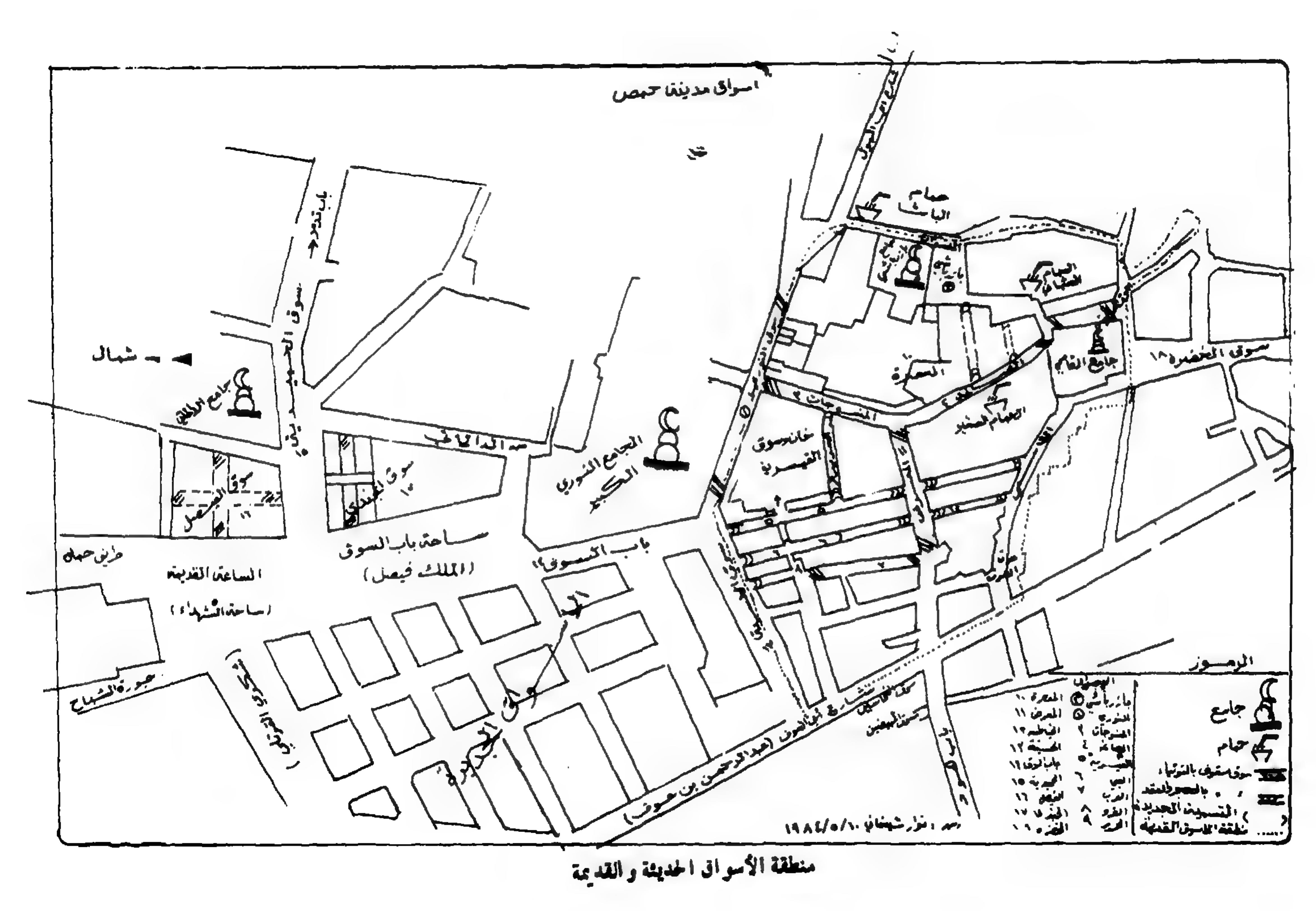
سنة ١٣١٣

وفي فترة لاحقة عبدت الطريق من حمص وطرابلس ١٨٨٤ وسارت عليه عربات تجرها خيول بادارة شركة محلية بقيت مستمرة حتى مدت السكة الحديدية عام ١٩٠٢ ونجد حتى الرحالة الأجانب يشيدون بنظافة حمص فيقول الانكليزي بورتر : حمص من أنظف البلدان وأحسنها انتظاما فجاداتها على العموم مبلطة تبليطا جيدا فلا نرى فيها غبارا ولا وحلا كما نرى في دمشق(١) . . . .

وفي عام (١٨٧٣) تعاقد أرباب السلطة في استنبول مع أحد رجال الصناعة(٢) من حمص على تقديم الأثواب الموشحة بخيوط الفضة

---

(١) تاريخ حمص ج ٢
(٢) السيد انيس مدور ١٨١٨



منطقة الأسواق الحديثة والقديمة

والذهب لرجال البلاط الهمايوني وحاشية السلطان في استنبول نظرا إلى دقة الصناعة الحمصية مقابل ١٢٠٠ قرش تركي للبذلة الواحدة كما تأسست جمعية اقتصادية حمصية هي الأولى في القطر للاستمرار في تحسين المنسوجات تجاه المنافسة الأجنبية عام١٨٩٨وقد بلغ عدد كراسي الحياكة في حمص ٨٠٠٠ وارتفع عام ١٩٠٩ إلى عشرة آلاف وصارت الأولى في بلاد الشام .

وهكذا نجد باستمرار بأن أسواق حمص كانت مزدهرة خلال العصور التاريخية رغم تعرض المدينة وأسواقها لزلازل متعددة وسيول وغزوات ولكنها بقيت صامدة لتعبر عن استمرارية البقاء ويمكن تقسيم أسواق حمص وفق ما يلي :

١ – حسب السلعة التي تباع فيها : مثل أسواق الحشيش ، الخضرة، الحبوب ، التبن، الهال (لتسويق الخضار والفواكه) ويقع الآن شرقي نهر العاصي ، الطحين، السمك، الغنم . (متنقله). الحمام، والدجاج . . . الخ .

٢ – أسواق حسب المهنة : الصاغة . النحاسين . الخياطين : النجارين ، المبيضين (تبييض النحاس بالقصدير) الخراطين . الدباغة .

٣ – أسواق باسم المالكين : سوق الفيصل (وتباع فيه اللحوم) وسوق الجندي ويقع في باب السوق لبيع الخضار والفواكه وهي سوق حديثة .

٤ – أسواق باسم من يتولى فيها : مثل سوق النسوان حيث كانت النسوة يبعن فيه الأشياء القديمة والمستعملة ويقابل سوق العتيق في دمشق أو سوق الحراج في بعض البلاد العربية .

٥ ـ أسواق بتسميات مختلفة مثل : سوق الحميدية (نسبة للسلطان عبد الحميد) وسوق الحسبة نسبة لوجود دار الحسبة فيه وسوق باب السوق .

أ ـ أما سوق الحميدية فكائنة في شمال شرق المدينة وفيها تصنع وتباع اللوازم الخاصة بابناء الريف ، كما كانت توجد فيها خانات : هي أسواق للتبادل التجاري من ابناء الريف وابناء المدينة وقد لعبت هذه الخانات دورا اجتماعيا كبيراً وبناءً اذ أن التعايش من سكان الريف وسكان المدينة قد اكسب كلا منهما عادات وتقاليد الآخر ولذلك فان ابن القرية عندما يسكن المدينه لا يشعر بالغربة(١) .

ب ـ أما سوق (باب السوق (فقد ازيلت أبنيته القديمة ومحلاته الآن تتصل بمحلات ودكاكين السوق الجديدة(٢) وساحة باب السوق . ـ والمرجح أنه كان يسمى قديما باب الرستن ـ تقع شمال الأسواق المسقوفة القديمة التي سيرد حديث خاص عنها .

جـ ـ سوق الحسبة يصل ما بين سوق النوري بشارع عبد الرحمن ابن عوف المعروف بشارع أبي العوف .

ولا يفوتنا أن نذكر الأسواق المتفرقة في الأحياء والمسماة باسمها غالبا مثل باب السباع ، وصليبة العصياتي ، باب هود ، باب الدريب ، ومحلات وأسواق الأحياء الجديدة : مثل عكرمة والنزهة والزهرة . . . وغيدهما .

---

(١) مجلة العمران عدد ٢٧ / ٢٨ بحث للأستاذ باسيل سجن

(٢) كانت تقوم مكانها الثكنة المملوكية

سوق باب السوق منذ ٧٥ عاما

هـ – ومن الظواهر الاقتصادية الحديثة في المدينة وجود المحلات التجارية الخاصة بالجمعيات التعاونية الاستهلاكية ، والمؤسسات الاستهلاكية الحكومية ومراكز وسائل النقل العامة والخاصة .

و – ومن أهم هذه الظواهر الاقتصادية الحديثة لا بد لنا من ذكر مصفاة بترول حمص ومعامل استخراج السكر من الشوندر السكري (البنجر) ومعامل الألبان والنسيج والصباغ والسماد الآزوتي وصوامع الحبوب والمخابز الآلية وغيرها كثير . ودور هذه الظواهر كبير في التجارة المحلية والتجارة الخارجية .

أسواق وتجارة حمص في أواخر القرن التاسع عشر

قبل أن نتحدث عن أسواق حمص المسقوفة القديمة نجد من الممتع والمفيد أن نذكر شيئا عن الحالة الاقتصادية للمدينة وحالة أسواقها وتجارتها في نهايات القرن التاسع عشر كانت المدينة تعتمد على الزراعة والصناعة وعليها تقوم تجارتها .

من المحاصيل الزراعية : القمح والشعير والفول والحمص والعدس وكانت تبلغ حوالي (١٤٠٠٠٠) شنبلا(١) يستهلك أقل من نصفها محليا والباقي يصدر للخارج عن طريق ميناء طرابلس الشام .

٢ – أما الصناعة وأغلبها يقوم على المنسوجات المتنوعة وفق مايلي مع ذكر أماكن التصدير .

---

(١) مايعادل ٢٠٦ كغ .

التسمية	الكمية المنتجة	مكان الاستهلاك والتصدير
قماش الملس(٢)	٣٥٠ ثوبا	البلاد العربية
آلاجه حريرية(٣)	٣٤,٠٠٠	الحجاز وازمير واليمن
زنار حريري	١٨,٠٠٠	الاستانه وازمير ومصر والشام وبيروت
ديما(٣)	٣٥,٠٠٠	إلى مصر
زنار	٤٨٠٠٠	إلى مصر وحلب

بالاضافة الف شرشف حرير و ٧٠٠٠ عباءة صوف وحرير تزيد إلى ذلك استهلاك المدينة والضواحي المتعددة والمقدرة ٣٠٠,٠٠٠ قطعة متنوعة.

٣ ـ أما عدد أنوال النسيج القديمة .

العدد	النوع	العدد	النوع
٤٣٣٠ نولا	والديما	١٠٠	دوراره للتسديد والغزل
١٥٠ نولا	للزنار	٧٠	دولابا للفتل
١٨٠ نولا	للشراشف والأعبية		

٤ ـ وكان يخصص لكل نول صانع ومعاون ولكل دولاب ٣ صناع ومعاون .

والأجرة اليومية لعامل النول من ٥ ـ ١٠ قروش عثمانية .

٥ ـ أما الواردات : فهي خيوط الغزل والحرير والأصواف والأقمشة الحريرية والطربوش . . .

(٢) حمص أم الحجارة السود للدكتور ساطع محلي
(٣) أنواع من الأقمشة الحريرية الرجالية .

وأدوات الصناعة : خشب . حديد . نحاس . رصاص ، جلود والعطور وزيت البترول والسكر والورق والعقاقير والتبغ وأكثره يرد من أوربا .

٦ — وكان الميناء المعتمد هو طرابلس الشام التي تصل بحمص بواسطة مركبات تجرها خيول تشرف عليها شركة محلية .

أسواق وتجارة حمص بعد منتصف القرن العشرين

صارت التجارة في حمص داخلية على الأغلب بين تجار المدينة وتجار المدن العربية السورية الأخرى ومع تجار القرى والنواحي التابعة لمحافظة حمص وأعراب البادية المقيمين في المحافظة حيث يقدم أصحاب المهن في المدينة للمزارعيين وابناء الريف ، المصنوعات والأدوات اللازمة لهم من مفروشات لبيوتهم (مخدات فرش لحف) وكساء لاجسامهم (عقل حطاطات قنابيز . . أحذية خاصة بالريف) وأدوات حراثة وحصاد و (من صمود . محرايث ، مناجل) وتقديم خدمات (صناعة العربات للنقل بواسطة الخيول) . . . . ولهذا كنا نشاهد سوق الحميدية الكائن في الناحية الشرقية الشمالية من المدينة ، على الطريق المؤدي إلى القرى الشرقية . يزدحم بالحوانيت التجارية الريفية . . . وقد انقرضت كثير من الحاجيات الرائجة في ذلك الوقت أو في طريقها إلى الانقراض وخاصة بعد التقدم العلمي والتقني في أساليب الزراعة والصناعة ووسائل النقل وتحسن طرق المواصلات وانارة الريف . وحتى الملابس السابقة كانت تنقرض بعد أن صارت حاجيات المواطن في الريف والمدينة متشابهة .



سوق النوري (السقف من التوتياء)

وفي حمص كانت تقام أسواق دورية مثل سوق الغنم وهي سوق بدوية حضرية بالإضافة إلى سوق الخميس وهي أشبه ما يكون بسوق عامة كتبادل مختلف الحاجات حديثة كانت أم قديمة بين أهل المدن والريف أو بين أهل المدن أنفسهم. كما كانت هناك أسواق فردية تعقد بالخانات حيث يلتجيء ابن الريف اليها بحيواناته ودواجنه ومنتجاتها وهي عنوان وظاهرة على ما يتعلق بالمبادلة من تجار المدن وأهل الريف .

ولا يفوتنا أن نذكر أن التجار الحمصيين كانوا يعتمدون زمن الانتداب الفرنسي على أسواق بيروت وطرابلس لاستيراد حاجياتهم من بلاد الغرب وبعد استقلال سورية تحول تجار حمص للاستيراد عن طريق ميناء اللاذقية .

الأسواق المسقوفة الأثرية في حمص

كانت دكاكين الأسواق في العهد الروماني مزودة باروقة جانبية تستند إلى أعمدة . وشيئا فشيئا اتصلت الأروقة لتشكل سقفا واحدة - بجملون - ثم أضيفت القباب إلى بعضها في العهد العثماني وكانت تبنى من الحجارة والأخشاب ، ثم حل الحديد مكانها في القرن التاسع عشر خشية من حدوث الحرائق(١) .

ولا تخلو الأسواق العربية القديمة من جامع ومدرسة وخان ومن حمام وسبيل ماء(٢) ودار للحسبة وشيخ للسوق . وفي حمص خضع بناء الأسواق وتخطيطها للعوامل المناخية والاقتصادية ومواد البناء المتوفرة

---

(١) دمشق للاستاذ عبد القادر ريحاوي ص ١٤٩

(٢) روائع الاثار الاسلامية ص ١١٢

في المنطقة وتمتاز أسواق حمص بالذوق المعماري المناسب للبيئة وبالتناظر الهندسي الفني المفعم بالزخارف النباتية والهندسية ، وتقع الأسواق ضمن المخطط القديم للمدينة على بعد يتراوح مابين ٣٠٠ – ٤٠٠ م من أسوارها الغربية والشمالية .

سوق النوري – القوافة(٣)

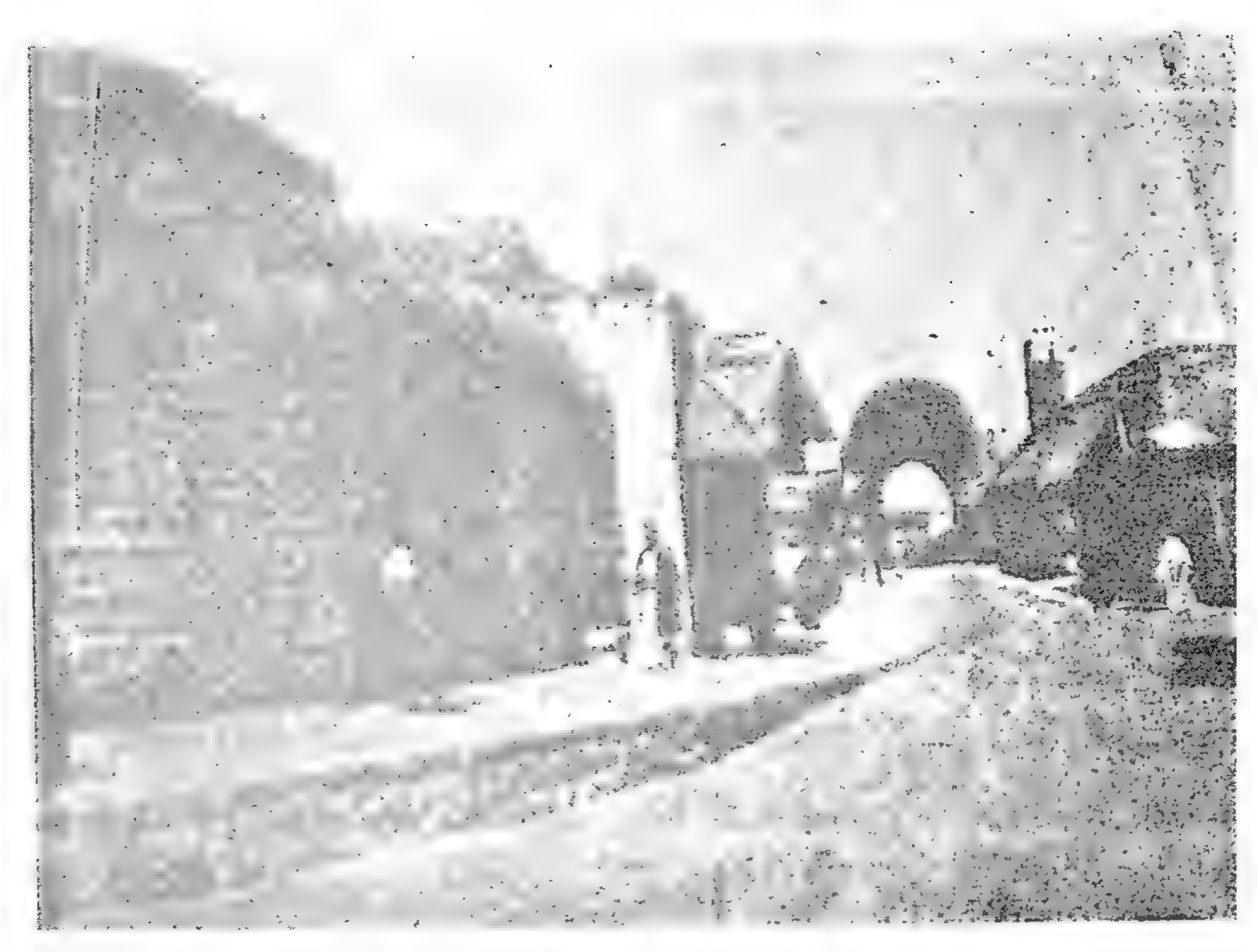
عرفت أيضاً بسوق الزلحفة نسبة لسقفها الشبيه بظهر السلحفاة القائم على عوارض مقبية بألواح التوتياء وكانت تشغل محلاتها مقاه متعددة منها مقهى الزرابليه والفاخوره .ثم عرفت باسم سوق القوافة أو الصرماتية لاشغاله من قبل بائعي الأحذية وخاصة الصرامى الحمر التي كانت رائجة قبل الأربعينات من هذا القرن . ويعرف حاليا بسوق النوري لمجاورته للمدخل الجنوبي لجامع الشهيد نور الدين الزنكي وقد بدأت البضائع المتنوعة تدخله فيما بعد الخمسينات كالفاتورة والتوفوتيه وغيرها . يرجح أن يكون بناء السوق قد تم أيام بناء سوق وخان القيسارية ١٧٤٣ – ١٧٥٦ م المجاور . لكن تجديدات قد أدخلت عليها أيام عبد الحميد باشا الدروبي حيث رصفت بالبلاط الحجري المشذب الأملس الذي غطي منذ فترة بالطبقة الاسفلتية . كما ثبتت في نهايتيه منذ فترة بسيطة أعمدة لمنع وسائل المواصلات من المرور فيه أسوة بالأسواق المسقوفة الأخرى .

يشكل سقف المحلات التجارية عقدا من الحجر الأسود المغطى بالكلس والقنب على ارتفاع أربعة أمتار تقريبا ، وتأخذ المحلات في

---

(٣) أبحاث جريدة العروبة للاستاذ رياض البدري

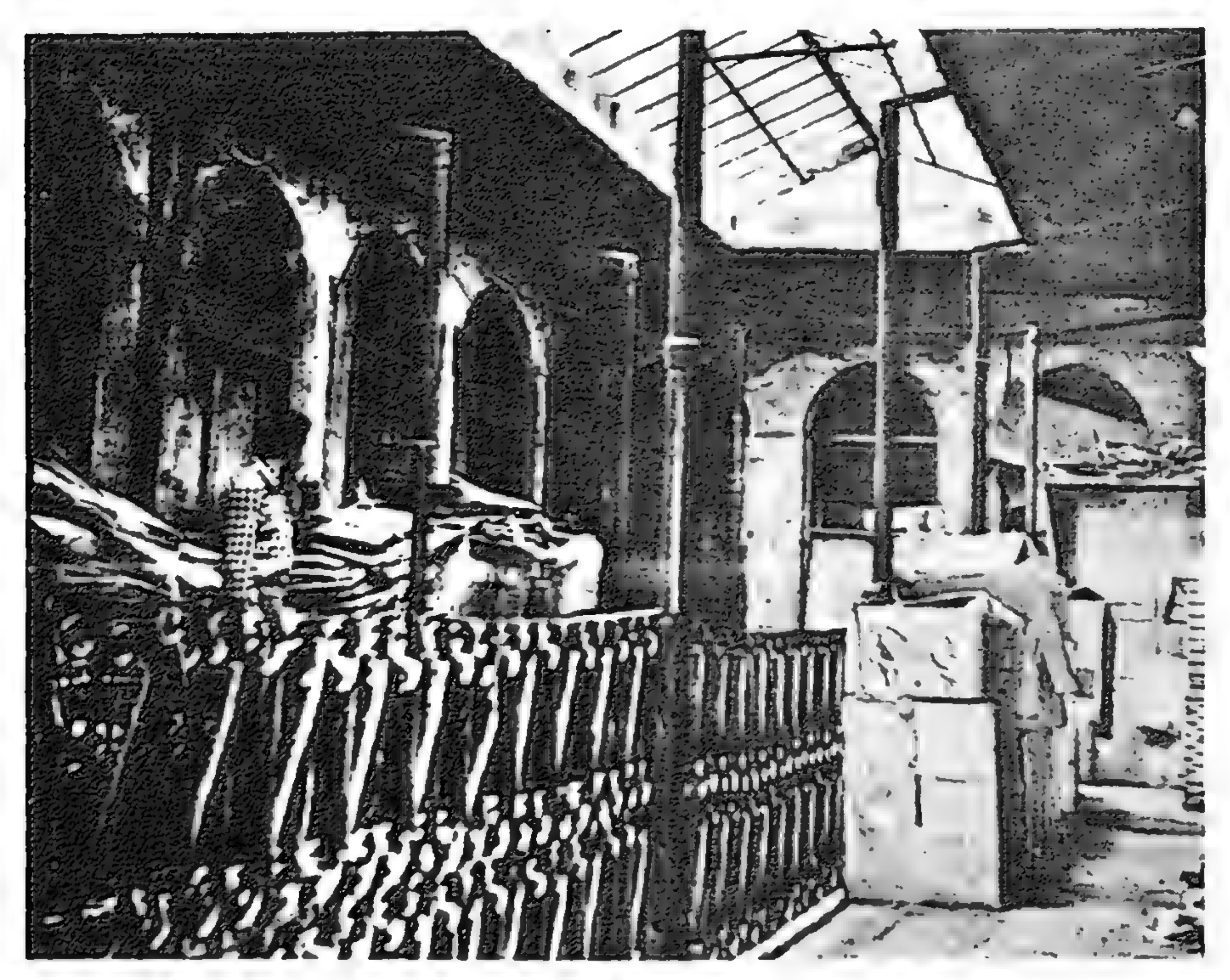
الواجهة قوسا نصف دائري . وتتوضع على عضائد المحلات أشكال هندسية تاجية ذات زخارف بسيطة .



ساحة ال الجندي وحمام الباشا وأول الشارع النوري منذ ٧٥ عاما

ويحيط بالسوق من الأعلى فوق المحلات التجارية نوافذ للتهوية والانارة ، استخدم الحجر الأسود في انشائها . وهي مستطيلة الشكل بابعاد ١٥٠ × ٧٠ سم ومحاطة بقضبان حديدية مبرومة بالإضافة إلى طاقات صغيرة بابعاد ٧٠ × ٤٥ سم تعلوها تزيينات حجرية منحوتة . ويقدر ارتفاع واجهة السوق بسبعة أمتار ترتفع عليها عوارض حديدية وخشبية على شكل سنامي وطول القسم المسقوف منه حوالي ٧٥ مترا ومن طرفه الجنوبي تمتد الأسواق المسقوفة الأخرى . وعلى امتداده من

الغرب تقع سوق (الحسبة) والذي تشغله الآن محلات لبيع اللحوم والاحشاء الداخلية (السخاتير) وبيع الأسماك ويعمل مجلس المدينة على نقلها إلى أماكن أخرى .



سوق المعصرة حاليا

بالاضافة إلى محلات متنوعة لبيع المواد الغذائية والمكتبية وغيرها ، ومن الجهة الجنوبية لسوقي النوري والحسبة تمتد الأسواق الأخرى .

(سوق البازر باشي(١))

وهي سوق مكشوفة تبدا شرقا من نهاية الجهة الجنوبية لسوق النوري ويحده من جهتها الشرقية حمام الباشا وينتهي بساحة تملؤها المحلات

---

(١) المرجع السابق

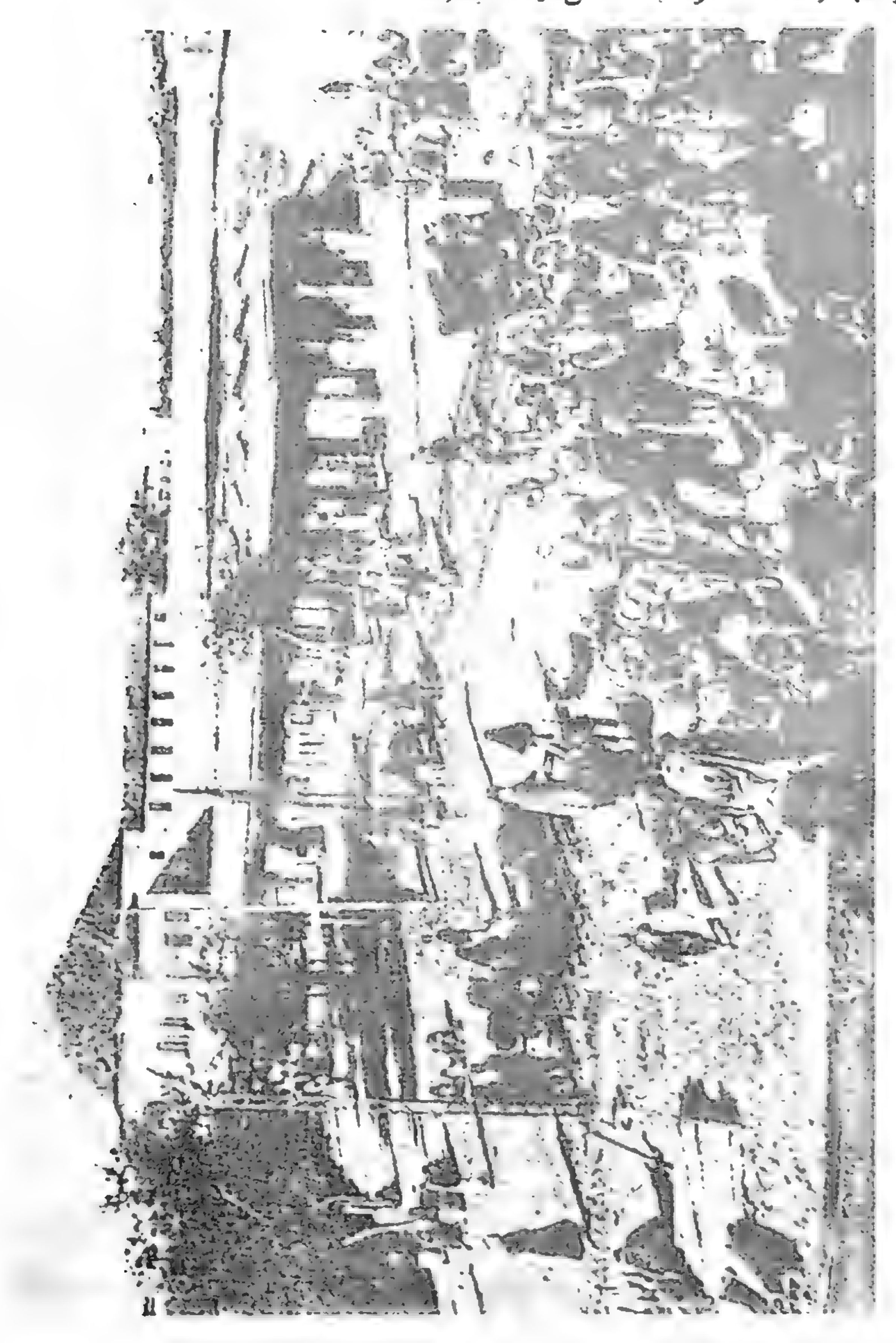
التجارية القديمة . ويتصدرها جامع بازر باشي (رئيس السوق) او شيخ السوق كما يتصل بأسواق مسقوفة لبيع الأقمشة مع سوق الصاغة كما يتصل بساحة صغيرة اخرى فيها الحمام العثماني القديم . ويتمتع بأهمية تاريخية ويعرف هذا السوق عند عامة الناس بسوق (النسوان) حيث كانت تتولى فيه النسوة بيع الأشياء القديمة او المستعملة ، وهكذا نجد ان المراة كانت تشارك في الحياة الاقتصادية عند القديم .

(سوق المنسوجات والصاغة)

وهي موازية لسوق بازرباشي مسقوفة بالتوتيا والتي تتوضع على اعمدة خشبية وحديدية وهي اطول الأسواق المسقوفة تمتد لحوالي ١٦٠ مترا وتبدا أمام المدخل القبلي للجامع النوري باسم سوق المنسوجات وعلى امتدادها تبدأ سوق الصاغة ، ويتفرع منها سوق الحرير على الجهة اليمنى ثم سوق العطارين (المعرض) كما يحتضن الحمام الصغير الأثري ومن الجهة اليسرى تتفرع منه اسواق صغيرة اخرى لبيع النسيج والحرير ولوازم الخياطة وهي في غالبيتها بسقوف من العقد الحجري تحرسها اعمدة حديدية لا تسمح لغير المشاة بالسير فيها .

وفي سوق المعصرة الذي عرف بهذا الاسم لممارسة عصر الدبس فيه قديما ، حيث تظهر في الجهة الشمالية الشرقية منه داخل احدى المحلات التجارية آثار المعصرة الحجرية لزبيب العنب ، لكن السوق تحول الآن إلى محلات تجارية ، استخدم طابقه العلوي حتى عام ١٩٥٩ م لأصحاب مهنة الخياطة ثم لبيع النوفوتيه والأقمشة ومستودعات المنسوجات يتألف طابقه الأول من ثلاثة عشر محلا تجاريا والطابق الثاني على اثنى عشر بابا وعشر نوافذ والدرج لولبي الشكل من احدى وعشرين درجة

وثلاثة عتبات ، ويحيط دهليز بالطابق العلوي (درابذين) حديدي استخدمت الأحجار البازلتية السوداء في بناء السوق والسقف من العقد والجدران مكسوة بالكلس والقنب(١) .



(١) المرجع السابق

(سوق القيسارية)

موازٍ لسوق المنسوجات ويقابل ساحة باب السوق من الشمال وقد عرف بهذا الاسم لمجاورته خان القيسارية (القيصرية) الواقع على العقار رقم ١٧٧٧ – اولى حتى أن الخان نفسه غلب عليه اسم السوق لمزاولة اعمال التجارة فيه منذ زمن بعيد الطابقية .

تم بناء الخان المذكور بأمر من الوالي أسعد باشا بن اسماعيل العظم الذي حكم ما بين ١١٥٦ – ١١٧٠ هـ و ١٧٤٣ – ١٧٥٦ م . يشكل سقف السوق عقدا حجريا يأخذ قوسا نصف دائري ، وعند تفرع الشوارع يأخذ السقف عدة قواس في نقطة المركز .

وسقف المحلات التجارية قوس حجري نصف دائري مع فتحات علوية للتهوية والانارة مربعة الشكل ٦٠ × ٦٠ سم ثبت عليها شبك حديدي وتبعد الفتحة عن الأخرى ٣.٥ مترا بالإضافة إلى نوافذ على جوانب السوق ٩٠ × ٦٠ سم من الخشب والزجاج ، والبناء بشكل عام من الحجر الأسود مورق بالإسمنت والكلس حديثا .

(سوق العبي والخياطين)

ما زالت ارضية السوق من مدخله الشمالي وحتى مدخل خان القيسارية مرصوفة بالاحجار البازلتية وقد بني السقف على شكل عقد من الحجر ، وكذلك المحلات التجارية ، وتتوضع فوق كل محل نافذة مستطيلة للتهوية بابعاد ١٠٠ × ٦٠ سم تأخذ في اعلاها شكل قوس نصف دائري أما الركائز الفاصلة بين المحلات فقد بنييت من الحجر الأسود البازلتي المنحوت بعرض ٤٠ سم ، نوافذ السقف التي تسرب الضوء والهواء مربعه والأبعاد فيما بينها غير متساوية .



سوق مسقوفة بالعقد

وسوق الخياطين كان قديما سوقا للعبي وهو تتمة له وتنشط فيه حاليا مهن الخياطة العربية والتنجيد وبيع البسط وهو على طراز وعمارة الأسواق المجاورة الأخرى(١) .

(سوق قيسارية الحرير)

تم بناؤه بامر من الوالي أسعد باشا ليكون خانا (فندق أو قيسارية) لاستقبال المسافرين من تجار وحجاج وفلاحين . ويتألف المدخل من باب كبير بمصراع واحد من الخشب المصفح بالحديد في وسطه باب صغير يسمى (خوخه) وقفل الباب (سكرة) . ويلي الباب دهليز مسقوف بعقد حيث الدرج الحجري المؤدي إلى الطابق العلوي . ويلي الدهليز باحة ٢٤ × ١٤ مترا تحط محلات تجارية تطل عليها مباشرة . والطابق العلوي مؤلف من ٢٧ محلا تجاريا على شرقة عرضيا ٢٥٠ سم تحيط بها أعمدة حجرية بيضاء تحمل السقف الخشبي الترابي . أما مواد البناء فمن أحجار حسيا وأخشاب طرابلس والمواد الأخرى محلية .



أحد الأسواق المسقوفة

كانت سوق القيسارية مجمعاً للزيت ما بين ١٨٠٠ - ١٩٠٩ م ثم استقل تجار الحرير في الطابق العلوي وتنوعت المهن بسوق القيسارية بين عام ١٩٣٩ - ١٩٤٠ . فاشتمل على تجارة بضائع جديدة كالفاتورة ومال القبان . أما المزاد العلني على الجديد من المواد أيام الأربعاء والجمعة بالإضافة إلى سوق عبدو آغا سويدان المعروف الآن بسوق الخياطين . وكان الثوار زمن فرنسا يلتجئون إليها بعد أن يقوموا باعمالهم البطولية ضد الاستعمار الفرنسي وهذه السوق ذات طابع تراثي مضمخ يعبق التاريخ واريج النضال وعظمة التجارة وجاذبية الشرق وهي نموذج مدهش من روائع العمارة العربية الإسلامية .



سوق الحرير وهي سوق مسقوفة

سوق الحرير

تصل ما بين سوق المنسوجات وسوق القيسارية . طراز بنائه يعود إلى العهد المملوكي والسقف مبنى من عقد حجري على شكل أقواس تلتقي في مركز واحد تزينها زخارف نباتية بسيطة عددها خمسة . ويتخلل السقف المؤلف من ستة عقود وأربع نوافذ للتهوية ونوافذ أخرى جوانب السوق . يحتوي مدخل السوق على سبيل للماء وأرضية السوق مرصوفة ببلاط الموازييك الحديث .

سوق المعرض

وطوله حوالي ٨٠ مترا ويعرف عند أغلب الناس باسم سوق العطارين بسبب اشغاله من قبل تجار العطورات بالاضافة إلى المنسوجات . بناء واجهات المحلات فيه من الحجر الأسود المشذب ، نحتت على بعض أجزائه أشكال هندسية،سقف السوق من الخشب والتوتياء السنمية الشكل .

يبدأ من سوق الصياغ ويتقاطع مع أسواق القيصرية والعبي والخياطين ويعود بناء السوق إلى أواخر العهد العثماني .

سوق العرب

يعرف حاليا باسم سوق العطارين اذ غلب اسم السوق المجاور وقد فقد السوق مهمته الأساسية وهي الوساطة بين البدو والحضر منذ ١٩٣٣ م .

مدخل السوق من الجهة الشمالية يتصل بسوق الحسبة ، أرضيته مغطاة بأحجار سوداء بازلتية . والسقف عقد تتخلله نوافذ علوية . بنى بأمر الوالي أسعد باشا العظم . والبناء مازال محافظا على وضعه

باستثناء ابدال الأبواب الخشبية بالدكاكين التجارية بأبواب حديدية كما أن أرضية الدكاكين جعلت بسوية أرض السوق بعد أن كانت بشكل مصاطب مرتفعة حتى المتر تقريبا يمتهن تجار السوق حاليا بيع الفرو والخيطان والألمنيوم والحبال . . . . الخ .

بني السوق من الحجر البازلتي الصغير الحجم أما السقف فمن التوتياء سنامي الشكل والمحلات لها واجهات من أقواس حجرية جيدة النحت على شكل نصف دائرة والأخرى على شكل قوس منكسر .

سوق الفرو

امتداد لسوق العرب وقد انفرد كسوق للفرو على أثر هدم حمام الجديد في باب السوق . يتجه سوق الفرو من الغرب إلى الشرق حتى الشارع المؤدي لمدخل خان القيسارية(١) .

ملامح خاصة عن حمص

(صفات الحمصي) ننقلها عن لسان الصديق الباحث باسيل سمين(٢)

« كان للمسجد والأسواق والحمامات والمضافات أثر أخلاقي روحي على الحمصين اذ فيها تكون الفلوكلور الشعبي على مر الزمان وانبثق من وجدان هذا الشعب ففي أيام رمضان كان الناس يجتمعون في هذه الأماكن (أي الأسواق الحمامات . . . .) يتبادلون أحاديث مادتها الفروسية والشهامة والمروءة . وفيها فسرت العقيدة تفسيراً إنسانيا ووضعت في اطارها الروحي الرفيع . . . وهكذا نشأ الحمصي شهماً

---

(١) المرجع السابق

(٢) مجله العمران ٢٧ / ٢٨ لعام ١٩٦٩

نبيلاً . عزيز النفس رقيق الحاشية . مطبوعاً باللطف والأدب . يلين حتى مع أعدائه . يعطف على الفقير ويؤانسه يحنو على الفقراء يندفع نحو البذل والعطاء . يحب أمته ووطنه ويضحي بماله وحياته في سبيلهما بدون غرور يتلقف الأمور الجديدة بصدر رحب . ويبتعد عن الأسفاف والتقليد الأعمى . . . . »

(تبدل السلع والأزياء)

يلاحظ ان لباس الرأس القديم للرجال في المدن (الطربوش) قد زال ومن ثم زال هؤلاء الذين كانوا يقومون بكوي الطرابيش واصلاحها أما ملابس الرأس الريفية (كالحطاطة والعقال) فلم تزل موجودة . وان كانت بعض الملابس التقليدية السابقة كالسروال الأسود والدراعة قد اندثرت وبعض الصايات ومن ثم زال استهلاك قماشها .

(نلاحظ أنه رغم وجود المتر كقياس رسمي متفق عليه فان النسوة يفضلن الشراء بالذراع الحمصي ويعادل ٦٨ سم تقريبا) أما الألبسة النسائية القديمة مثل الملاية السوداء فهي في طريق الاندثار كما زالت تلك الأحذية الحمراء التي كانت تمتلىء بها أسواق النوري والحميدية وكانت تسمى (الصرماية الحمراء) وكانت لباس الرجل المفضل لدى النساء البدويات . ومن الظريف ان اللباس الحديث (البنطلون والجاكيت) للرجال كان مستهجناً في الثلث الأول من القرن الحالي لكنه اكتسح السوق قماشا وخياطة الآن وان بقي بعض الناس يفضلون الملابس الفوكلورية .

والشيء المتميز في الأسواق الحمصية وجود الجوامع الثلاثة المتقاربة من السوق مع الحمامات وسبل الماء وغيرها من أمور حيوية .



بعض الازياء القديمة بحمص

(التآلف الاجتماعي في أسواق حمص)

تظهر خاصة عند الضيق وعندما تحل الكوارث أو المحن والشدائد على المواطنين يظهر طيبهم وتآلفهم .

في عام ١٩٤٥ م وعلى التحديد ٢٩ أيار وعندما كانت الحالة متأزمة بين المواطن السوري وحكومة الانتداب الفرنسية فقد أظهر المواطنون

تآلفا ووحدة وطنية ضد الاستعمار الفرنسي فلم تخفت ملعقة ولم يرتفع سعر وهذه الظاهرة الإنسانية بدت للعيان واضحة عام ١٩٧٣ عند حرب تشرين التحريرية وهذا الأمر معروف لدى سكان حمص وسكان المدن الأخرى ويعد مفخرة المواطن العربي السوري



طراز من الابنية القديمة في مدينة حمص

تطابق أخلاق أهالي حمص مع العرب

وتطابقت أخلاق أبناء حمص مع العرب عندما اقبلوا محررين للشام من البيزنطيين حاملين معهم ديموقراطيتهم العفوية ودينهم مؤكدين على مبدأين اثنين (لا اكراه في الدين) ولا (فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى) لذا دانت لهم أكبر القوى آنذاك وفتحت لهم القلوب قبل أن تفتح لهم الحدود . وفي حمص استقبل العرب المحررون بترحاب . ولم يستغربوا وجودهم مع أهالي المدينة بل تعايشوا معهم بسلام ومحبة وتآلف (يقول محمد كرد علي : ومما اعان العرب على تأييد سلطانهم تسامحهم مع أهل الذمة فكانوا كأنهم بين عشيرتهم لا يرهبون من وراءهم كما أنهم لم يرهبوا من أمامهم) وقد قال غوستاف لوبون :

لما دخلت العرب الشام كانت رومانية منذ أكثر من سبعمائة سنة فأبانوا عن تسامح مع كل مدن الشام ولذا رضي السكان بسلطتهم مختارين وانتهت بهم الحال ان قبلوا دين الفاتحين وتعلموا لسانهم) .

(الحسبة)

ولقد أعطى العرب الإنسانية نظام الحسبة ومنها مدينة حمص ويجب أن لا يغيب عن ذكرنا شارع الحسبة اذ يغلب على الظن ان دار الحسبة كانت في هذا المكان نظرا لتداول هذا بالتواتر بين الناس وقد ذكر أوليا سلبي وجود المحتسب في حمص عند ذكر أرباب الرتب .

ان نظام الحسبة أكثر لصوقا بالسوق من أية مؤسعة أخرى من أهم وظائف المحتسب مراقبة الأوزان والمكاييل والحسبة على العموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمن منكرات السوق التي مازالت موجودة

حتى الآن بيع الخمور ونقص الميزان والمبيعات المغشوشة ونفهم من كلام المؤرخين ان أسعار السلع كانت محددة عليها أسعارها بامر المحتسب الذي كان مشرفاً أيضاً على أخلاق المجتمع والمعاهد العلمية والحمامات والآداب العامة ومن الطريف أن ملوك اسبانيا المسيحيين عندما كانوا يحتلون مدينة عربية يبقون فيها محتسبها(١) .

وفي حمص كانت مهمة المحتسب في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري الفصل بالمسائل المتعلقة بالتجارة والصناعة وحفظ الأمن ويبدو أن صغر حجم المدينة آنذاك قد جعل دور المحتسب ضعيفا فضلا عن تمركز السلطة بيد المتسلم .

وقد أوردت بعض المخطوطات(١) ذكرا لتطبيق القانون في معاقبة المحتسب عندما يخرج على خطة المرسوم فذكر من هذه الحوادث أن (مصطفى آغا) عاقب المحتسب فجرصه بعدما فلقه وهذا يعني انه ضربه على رجليه ثم اركبه على حمار بشكل مقلوب ودار فيه في أنحاء المدينة (حمص) .

شيخ السوق البازرباشي

ثم كان هناك شيخ السوق (بازر باشي) ومشايخ الكار ولا ننسى ان هناك ساحة وجامعا باسم رئيس السوق بازر باشي و كان عمل شيخ الكار الدفاع عن مصالح مريديه وبالوقت ذاته يوقفهم عند حدهم اذا اشتطوا في رفع أسعار منتوجاتهم أو تغيير صفة بضاعتهم . والآن رغم

مجلة عالم الفكر الكويتية رقم ١١ لعام ١٩٨٠

(١) المؤرخ محمد بن السيد

وجود نقابة الحرفيين وغيرها لازال هناك شيخ الصياغ في حمص الذي تقصده المواطنات خاصة ليصادق على صحة وزن المصوغات ونسبة ذهبها .

ويحدثنا بعض المؤرخين أن بعض أحد شيوخي السوق الذي اشتط في ظلمه اشتكاه أهل حمص إلى القاضي وطلبوا اغلاق السوق لايقاف تعسفه .

وفي الختام لا بد من القول بان الأسواق التجارية في حمص . قد مرت خلال العصور التاريخية بمراحل ازدهار ونشاط ، بلا شك كما حظيت هذه الأسواق بالاهتمام المعماري عند تنفيذها فجاءت ملائمة بشكلها الهندسي والمعماري والوظيفي . وهذا ما دعا مديرية الآثار إلى الاهتمام بهذه المنشآت الهامة فسارعت إلى تسجيلها في عداد المباني الآثرية والتاريخية(٢) .

ان الحديث عن الأسواق بشكل تفصيلي يحتاج إلى عدد من الدراسات ، ولكنني وضمن الوقت المحدد لي في هذه الندوة قمت وإياكم بعرض شامل للأسواق ووظائفها – آملا أن تتاح لنا مناسبات أخرى للوقوف عند الجزئيات .

---

(٢) بالقرار رقم ١٦٨ لعام ١٩٧٩

المراجع والمصادر

١ -- تاريخ حمص للخوري أسعد عيسى ج ١ و ج ٢ للأستاذ منير أسعد عيسى .

٢ -- مجلة العمران العدد ٢٨/٢٧ لعام ٩٦٩ عدد خاص عن حمص بحث للأستاذ باسيل سمين .

٣ -- كتاب حمص أم الحجار السود للدكتور ساطع محلي .

٤ -- ربوع محافظة حمص للدكتور محمد عماد الموصلي .

٥ -- مجلة عالم الفكر عدد خاص رقم ١١ عام ١٩٨٠ عن المدينة الإسلامية .

٦ -- جريدة العروبة عام ٩٧٩/٩٧٨/٩٧٧ أبحاث بقلم للأستاذ رياض البدري .

٧ -- كتاب خطط الشام لمحمد كرد علي .

٨ -- بحث القيم والأعراف الأخلاقية لكاتب المقال .

٩ -- كتاب حمص السياحي لمؤلفيه : عبد الاله النبهان فيصل شيخاني محمود سباعي غياث القاسمي رياض البدري (قيد الطبع) .

١٠ -- جولة أثرية للأستاذ أحمد وصفي زكريا .

١١ -- تدمر للدكتور عدنان والبني الأستاذ خالد أسعد .

حمص ٢٩ / ١١ / ١٩٨٤

محمد فيصل شيخاني

عضو الجمعية التاريخية

مخطوط التاريخ الحمصي
للمؤرخ عبد الهادي الوفائي

رياض البدري

التاريخ حقل الفعالية البشرية ، وتاريخ أية أمة سلسلة متصلة الحلقات وان اهمال دراسة أية حلقة من حلقات التاريخ مهما كان شأنها يشكل ثغرة قد تؤثر في معرفتنا لحاضرنا معرفة حقيقية ، ومن ثم تؤثر في تصورنا لمستقبلنا .

لذا درج العرب منذ القديم على تأليف كتب التاريخ الشاملة ، كتاريخ الطبري . وابن الأثير كما صنعوا تاريخا خاصا بالمدن مثل : تاريخ دمشق وتاريخ حلب والاعلاق الخطيرة في تاريخ الشام والجزيرة . أما مدينتنا حمص فقصتها مع التاريخ قصة ضياع واهمال . بل قصة اللا مبالاة والكسل في التأليف والنشر . إلى أن بدأت الأيدي الأمينة تبحث وتكتب وتحقق لترفد المكتبة التاريخية بمؤلف يحكي قصة المدينة في مختلف مظاهرها العمرانية والبشرية والسكانية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها .

فحمص مدينة قديمة ، جذور تاريخها قد تعود إلى فترات تاريخية سبقت ظهور السيد المسيح وقد شغلت من تاريخ سورية مكانا ممتازا .

وتمتعت بالعديد من الميزات . وشهدت الكثير من الأحداث التاريخية ولما فتح العرب المسلمون بلاد الشام كانت حمص أحد الأجناد الخمسة ألا وهي : جند فلسطين وجند الأردن وجند دمشق وجند حمص وجند قنسرين .

وقد اهتم المؤرخون في العهد الإسلامي بهذه المدينة . فدونوا عدة كتب في التاريخ لها ، وقد عرفنا من هذه الكتب اسماءها فقط وهي التالية :

١ - تاريخ الحمصيين لأحمد البغدادي المتوفي سنة ٢٥٧ هـ

٢ - طبقات أهل حمص لمحمود الدمشقي المتوفي سنة ٢٥٩ هـ .

٣ - تاريخ من نزل حمص من الصحابة لابن صدقه المتوفي في أواخر القرن الثالث الهجري .

٤ - تاريخ الحمصيين لعبد الصمد الحمصي ، المتوفى سنة ٣٢٤ هـ .

٥ - تاريخ حمص لابن سلامة الحمصي المتوفى سنة ٣٣٠ هـ .

ان عدم وجود كتاب في تاريخ المدينة حدا ببعض ابنائها في العصر الحديث إلى محاولة كتابة تاريخ مدينتهم أو نبذة عنها ، ونستطيع أن نذكر في هذا المجال :

١ - كتاب الفه المرحوم عمر الأتاسي . سمعنا به ولم نعثر عليه . لكننا وجدنا المرحوم محمد كرد علي قد ذكره بعداد مصادر كتابه خطط الشام .

٢ - كتاب تاريخ حمص للخوري عيسى أسعد ، ويتحدث فيه عن المدينة منذ نشأتها الأولى إلى ظهور الإسلام في الفترة الواقعة من ٢٣٠٠ ق.م إلى ٦٢٢ م .

كما وقام الأستاذ منير بن الخوري عيسى أسعد في عامنا الحالي باتمام الكتاب في الجزء الثاني والذي يتحدث فيه عن الفترة من ظهور الإسلام سنة ٦٢٢ م إلى سنة ١٩٧٧ .

٣ – كتاب حمص أم الحجار السود ، تأليف د . ساطع محلي ، والمطبوع عام ١٩٦٣ . وهو كتاب صغير جيد فيه معلومات « جغرافية وتاريخية وتربوية وعمرانية عامة » .

٤ – كتاب أعلام الأدب والفن بجزئيه ، تأليف المرحوم أدهم الجندي .

٥ – كتاب ثوار وأمجاد ، للأستاذ عدنان الداعوق المطبوع عام ١٩٦٨ .

٦ – وفي عام ١٩٨١ صدر كتاب د . عماد الدين الموصلي بعنوان ربوع محافظة حمص ، إذ خصص الباب الثاني من كتابه مستعرضا الجذور الأولى للسكان والمجتمع من العصور الحجرية القديمة حتى الفتح الإسلامي . وجاءت بقية الأقسام لدراسة الجغرافية الطبيعية والمناخية والسكانية والبشرية لمحافظة حمص بين الماضي والحاضر والمستقبل .

٧ – ونشير أيضا إلى كتاب الأستاذ رضا صافي بعنوان على جناح الذكرى ، إذ عرض الأستاذ صافي حكاية الحياة . ليعرض من خلالها ملامح المدينة بدءاً من تاريخ ولادته ١٩٠٧ م .

٨ – ويشاء الأستاذ قاسم الشاغوري أن يدون كتابا بعنوان رجال من بلدي والذي طبع عام ١٩٨٣ .فجاء جهدا قيما مشكورا يضاف إلى جهود من سبقه في ميدان التأليف التاريخي ، يقول الأستاذ الشاغوري :

« ان عدم وجود تاريخ لما جرى في بلدي وحي لها هما اللذان دفعاني إلى الكتابة جهد استطاعتي وعلى قدر حالي لسرد بعض الحوادث التي وقعت في بلدي ، وذكر أعمال صدرت عن بعض رجال من بلدي منذ مطلع هذا القرن حتى منتصفه حين تم جلاء المستعمر الغاشم » .

والآن وبعد أن استعرضنا الكتب المطبوعة عن تاريخ حمص ، لابد لنا وقبل أن ندخل في صلب موضوع محاضرتنا ، من التعريف بمخطوطين اثنين لم تتناولهما بعد يد التحقيق وهما لمؤرخ واحد هو المرحوم سليمان ابن أحمد الكيالي الحسيني الحمصي . الذي عاش من سنة ١٨٤٤ وحتى ١٩١٤ م . ففي المخطوط الأول وهو كتاب الأشعار في جمع نفائس الأشعار أورد فصولا عن حمص ذكرت فيها الحوادث التاريخية شعرا « مثال : قصائد في التهنئة بمولود . والتهنئة بأعراس . ومدح لبعض الرجالات المعتبرة ، وتاريخ وفاة رجال زمانه وذكر مناقبهم ومحاسنهم وفصل في المرثيات وتواريخ القبور . وفصل آخر في تواريخ البناءات والانشاءات لبعض المساجد فضلا عن تشييد دور السكن الخاصة .

أما المخطوط الثاني وهو بعنوان : « نصح الأمة ، المؤرخ سنة ١٣٠٩ هـ ، تناول فيه فصولا عديدة ، خصص أغلبها في الكتابة عن تعليم الطفل وتعرض للأساليب الواجب اتباعها من قبل المعلم والمتعلم ، وأصول امتهان التعليم كحرفة . فكانه يعرض بذلك سيره عن كتاتيب زمانه في مدينة حمص ، ثم ينتقل بعد ذلك ليتناول دراسة تعليم الخط . وكيف يحصل الخطاط على الإجازة فضلا عن شهادة خطاطين زمانه بحسن خطه واتقانه .

وقبل هؤلاء بزمن كانت هناك محاولات تاريخية عرفنا منها محاولتين بالغتي الأهمية :

أولاهما ـ ما كتبه محمد مكي بن السيد المتوفى سنة ١١٣٥ هـ وذلك في كتاب سماه تاريخ حمص .

وثانيهما : ما كتبه عبد الهادي الوفائي المتوفى سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩٠٩ م في كتابه الذي عنونه باسم « التاريخ الحمصي » . وهو موضوع محاضرتنا بهذه الأمسية .

وقبل أن انتقل وإياكم إلى صلب الموضوع ، لا بد أن نعرف بالمخطوط الأول لصاحبه ابن السيد ، فقد اسعف الحظ مدينتنا بان ينشر تاريخ خمسة وثلاثين عاما فقط من تاريخها من سنة ١١٠٠ ـ ١١٣٥ هـ / ١٦٨٨ ـ ١٧٢٢ م وقد قام بعبء العمل في تحقيق هذا التاريخ الأستاذ عمر العمر من مدينة حماه ، فجاء الكتاب بمقدمة ممتازة ومفيدة وهو أقرب ما يكون إلى الكمال والتمام أما مؤلف المخطوط فقد نصت فهارس الجامعة الأمريكية على أنه مجهول ، لكن المحقق استطاع من خلال قراءته المتأنية والمدققة للنص أن يتوصل إلى أن المؤلف هو : « محمد مكي بن السيد بن الحاج مكي بن الخانقاه » المولود في النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي ، والمتوفى بعد عام ١٧٢٢ م / ١١٣٥ هـ لان كتابه توقف عند هذا التاريخ . ويبدو أن المؤلف كان يعمل شاهدا أو موظفا في المحكمة الشرعية بحمص أو من المشرفين على شؤون الأوقاف كما توحي بذلك بعض المقاطع من تاريخه . والكتاب عبارة عن سرد يومي لاحداث حمص وأخبارها المتناثرة بلا ضابط ولا منهج فهناك أخبار عن المسلمين ونقباء الأشراف والمفتيين والقضاة ومشاكل البدو وحوادثهم ، ويذكر أيضا الاخبار الاجتماعية ويعرج

على بعض الاخبار الاقتصادية . ويهتم باخبار الوفيات مهما كان شأن المتوفى وكذلك بأخبار الولادات . كما ذكر المؤلف في بعض الأوقات الشخصيات العلمية التي تزور حمص أو تمر بها كما يشير الكتاب إلى الأمور العمرانية ، فضلا عن الحديث دوما عن أصحاب النفوذ وتصرفاتهم هذا وتقوم أهمية كتاب ابن السيد على أنه المرجع الوحيد عن تاريخ المدينة في تلك الفترة الهامة المضطربة . كما يعد وثيقة تاريخية صادقة يمكن اعتمادها في الدراسات التاريخية .والآن وبعد هذه الجولة السريعة . والتعرف قدر الامكان بما خطته أيدي المؤرخين . وما نشرته همة الباحثين والمؤلفين عن مدينة حمص . يمكن أن نقف طويلا عند مخطوط التاريخ الحمصي ، للمؤرخ الشيخ عبد الهادي الوفائي المتوفى سنة ١٩٠٩ م ، والذي نقوم بتحقيقه بالاشتراك مع الأخ الصديق الأستاذ عبد الاله النبهان ، ولا نخفي عليكم بان سبب تأخرنا في اصدار المخطوط المذكور محققا في كتاب تاريخ مكتمل واضح مطبوع . يعود إلى الصعوبات التي عانينا منها أثناء التحقيق . إذ أن أكثر المواد اللازمة في رفد مادة كتابنا ، كانت تتطلب منا العمل الميداني ،الذي يعتمد على الجهد الشخصي والحركة المستمرة فضلا عن النشاط في جمع المعلومات والوقوف على الآثار الباقية والاتصال باسر الاعلام والشخصيات الوارد ذكرها في المخطوط ، كما أن انشغالنا في أعمال علمية وثقافية تتطلب السرعة في الانجاز دعانا في أغلب الأحيان إلى الكمون وتأجيل متابعة التحقيق . ونرجو أن نوفق في طبعه ونشره لنضعه بين أيدي القراء والدارسين .

ولد المؤرخ ، الشاعر ، الفنان المبدع الشيخ عبد الهادي بن عمر الوفائي الحمصي موطنا ، والنقشبندي طريقة سنة ١٨٤٣ م . تلقى علومه

الدينية وعلم العروض والموسيقى عن والده المرحوم الشيخ عمر الوفائي الذي اشتهر في عصره بالعلم والفضل والصلاح ، كما تعلم قدر الامكان على أيدي العلماء من أسرته وبلده خلال مجالسته لهم . فنبغ ونبه ذكره في أيامه ونظم القصائد الطوال وتغنى بذكر مدينته حمص . واشاد بجمال مغانيها وعادات ابنائها وكرمهم في شتى المناسبات — عاش مؤرخنا من العمر خمسا وستين سنة قضاها بالعز والتكريم . وقد اتصف بالخلق الكريم والصلاح والرزانه وعزة النفس .

طاف الوفائي البلاد السورية والعديد من البلاد التركية لاسباب تجارية ولزيارة احبابه وأصدقائه رفي سنة ١٨٧٣ ذهب إلى الجندية الرديفية . واستخدم كاتبا في قلم الطابور . وكان كلما سافر إلى بلد يدون مآثرها ومعالمها وما وقع له فيها بقصيدة للذكرى .

أما مؤلفاته فهي : كتابه الذي بين أيدينا ، وديوانه الحافل بالقصائد الأدبية والتاريخية وخمس مسرحيات نثرية شعرية .

أما ثقافته فيمكننا التعرف عليها من خلال ما عرف به نفسه في مقدمة كتابة التاريخ الحمصي اذ يقول : « ليُعْلم أيها السادة المطلعين على عبارة شرحي ، المخيرين بمدحي وقدحي . لاخفيّ اني رجل بسيط بالكلام لا أعرف بالنحو قليلا ولا بالنظام ، شعري كنثري ، وأرجو ممن يتبصر في حقيقة أمري أن يصفح عن أغلاطي ويقبل عذري » .

توفى الشيخ الوفائي على أثر رشحة صدرية في الخامس من ربيع الأول سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩٠٩ م وأعقب ولدين هما عبد الحميدوعبد اللطيف . وقد التقينا بالشيخ عبد اللطيف في حياته فأفادنا ببعض لوازم التحقيق موضوع المخطوط .

أما عصر المؤلف فهو النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن الحالي ، في وقت كانت بلاد الشام خاضعة للحكم العثماني فكانت حمص أول الأمر أحد الألوية التابعة لطرابلس وحدودها تمتد من حسياء إلى الرستن . أما علاقة حمص مع استانبول أو بالاحرى علاقتها بالسلطان فقد كانت ضعيفة وغير مباشرة ، وتشبه تلك العلاقة علاقة السلطان بأغلب ألوية الدولة العثمانية وكانت هذه العلاقة الضعيفة تتم عن طريق الولاة .

أما الدوافع التي حدت بمؤرخنا الوفائي إلى تأليف كتابه عن التاريخ فقد اورد في خصوصها مايلي ننقلها اليكم كما اوردها ، يقول : « لما رأيت أهل الوطن يتشوقون على قطعة تاريخ يكون تذكرة في المستقبل للعالم - ريقصد هنا الناس- الذي سيخلقون في الاعصار القادمة ، تصور في فكري أن أجمع وريقات تدل على انساب أهل الفضل والزوات على قدر معرفتي ، وأعوذ بالله من النقص والزيادة والكذب الذي يكون على غير طريق الحق والعادة فأرجو من الله التيسير وهو على كل شيء قدير وبالإجابة جدير » .

يتألف المخطوط من احدى وتسعين صفحة ، كتب بحبر أحمر ، بخط هو مزيج من الرقعة والنسخ ، وهو مقروء . أصيبت بعض سطوره بنقاط كثيفة من الحبر . قياس الصفحة من الحجم الكبير (٣٦ × ٢٤.٠ سم) وتتضمن ٣٤ سطرا ، ومتوسط كلمات السطر الواحد ثلاثة عشر كلمة . والورق أصفر سميك لا يزال قويا حتى الآن وقد اقحمت على المخطوط بعض الكلمات والتصحيحات بخط ابن المؤلف عبد اللطيف الوفائي المتوفى في شهر رجب سنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م . كما أن المرحوم عبد اللطيف قد صنع فهرسا عاما للكتاب ، وبعض التعقيبات في آخر المخطوط .

أما لغة الكتاب فقد كان المؤلف أقرب إلى العامة ، لكنه ارتفع عنهم بسبب تلقيه المبادىء الأولى ومعاشرته للعلماء ، وحضور مجالسهم لذلك فان لغته كانت عامية وما فيها من الفصحى يعود إلى كثرة معاشرته للعلماء وتأثره بعباراتهم أما عندما يكتب فانه غالبا لا يميز بين المفعول والفاعل، لكن قيمة لغة الكتاب هذه تنحصر في انه استخدم كثيرا من الألفاظ التركية التي كانت سائدة واختفت الآن .

كما استخدم كثيراً من الاصطلاحات الاجتماعية مثل : المحمل — والزاوية — والخليفة بمعنى خليفة الشيخ . والكتاب بمجمله يعد مرآة للغة العصر لا لغة الأدباء والمؤلفين . ولكن اللغة الدارجة في القرن التاسع عشر والشائعة على السنة الناس في مجالسهم ومحاوراتهم ، وما أشبه تصويره للغة عصره بتصوير اسامه بن منقذ للغة عصره في كتابه الاعتبار اذ ترك نفسه على سجيتها ونقل العبارات كما كانت حية على السنة الناس ، واذا كان اسامه الاديب الكبير قد تعمد هذا تعمدا في كتابه فان الوفائي لم يكن باستطاعته أن يفعل أكثر مما فعل ، وما أشبه صنيعه بصنيع حلاق دمشق البديري الذي دون أخبار مدينته بنفس الطريقة .

وكعادة أي مؤلف في وضع منهج وطريقة وخطه في فهرسة وتنظيم مؤلفه ، قام مؤرخنا الوفائي في وضع طريقه لتنظيم كتابه . فاورد في بداية المخطوط ما يلي :

يقول : « لقد دونت هذه الوريقات على أربعة أبواب :

الباب الأول : في الأخبار عن العلماء الذين يظن بولايتهم « يريد هنا أهل التصوف » .

والباب الثاني : يخبر عن العلماء أهل الفضل .

والباب الثالث : يخبر عن الزوات – ويقصد هنا الزاوات – ذوي الأنساب ومشايخ الطرقات وبعضا من عامة العالم أهل الورع والتقوى والصلاح .

والباب الرابع : يدل على بعض حوادث وقعت في زماني من خير وشر ان كان . . . . من رفيع ووضيع لاجل أن يتعجب القارىء ويسلا – ويقصد التسلية – ويترحم علي وعلى موتاه ولعله يقرأ الفاتحة لناظمها ويسببها تنال شفاعة الشفيع .

إلا أن المؤلف الذي لم يتمرس بمنهج علمي ولم يتلقى أي ثقافة نظامية مدرسية . ما كان باستطاعته أن يلتزم بالترتيب الذي حدده لنفسه . لذلك كثرت استطراداته وخروجه من موضوع إلى موضوع ومع ذلك فالكتاب في صورته الشاملة . فيه حد أدنى من التنظيم . بالإضافة إلى انه أضاف عدداً من الأبواب خطرت له وهو يدون . . . مثالنا على ذلك ما تعرض له في ذكر المنشآت العمرانية . والمباني التي كانت قائمة بوظائفها في زمانه . فضلا عن العديد من الحوادث والنوادر .

أما مادة الكتاب فهي عبارة عن مجموعة من الأخبار والحوادث التي دونها المؤرخ ، ونستطيع أن ننظم تنوعها على النحو التالي :

أولا : استطرد المؤلف في تراجم رجال الصوفية وأخبارهم في عصره وذلك لصلته الوثيقة بهم ولايمانه العميق بكراماتهم ، وكان محبا لهم وتابعا ومعتزا بصلاته معهم ، لذلك كتب حوالي سبع صفحات عن شيخه سليم خلف ، وعن شيخ شيخه أحمد الطزقلي ، اذ يقول عن الأخير ما يلي : « هو شيخ الطريقة النقشبندية . وهو بالقطانية

موصوف وسائر أقطار الأرض معروف ، له من التلامذة ألوف .
ارشاده ظاهر . ومدده باهر ، كالشمس يشرق على أهل البصائر »
ثم يقول « ومناقبه في حياته كثيرة ، ومكاشفاته شهيرة » . .

وقد تحدث عن كراماتهم بشيء من التفصيل يضيق بنا المجال الآن عن ذكر الأحداث كما رويت . وسنكتفي بالاشارة اليها سريعا . مثالنا على ذلك : بعض الحوادث التي دلت على كرامات الشيخ الطزقلي منها : حادثه الحج التي رواها الشيخ « محمد خالد البحلاق » ومضمونها أن النوم قد أخذه وشيخه ، مما أدى إلى رحيل الحجاج دونهم . فخاف عندها الشيخ بحلاق وطمأنه الشيخ الطزقلي وطلب منه ركوب الدابة . وهما بالطريق بين بساتين تشبه بساتين حمص . فاذا برجل حبشي يسعى اليهما ، ليرتمي أمام أقدام الشيخ ويقبلهما ويحاكيه كلام غير مفهوم . وسار معهم لحظة واذا هما بين الحجيج ، فعندها سكن روع الشيخ بحلاق وصار يبكي ، وطلب منه الطزقلي أن يكتم الأمر » وحادثة أخرى : عندما حدد يوم وفاته بالضبط قبل حدوثها بعشرين يوما . وحادثته مع الشيخ أحمد الروادي عند جسر المزرعة . وكيف دمدم الطزقلي فاذا بالروادي يرتمي على الأرض ويأخذه الجذب .

كما حدثنا المؤرخ عن الشيخ سليم صافي ووصفه بالشيخ الفاضل والأجل الكامل . . كان يحب الفقراء . ويعود مرضاهم . وكان كسابا وهابا ، وقد ربى جملة أولاد وبنات وأرامل « روى عنه الوفائي الكثير من القصص التي قصها عليه والده الشيخ عمر وعن مآثر هذا الصالح الجليل والتي تدل على التراحم والتلاحم الاجتماعي والتآخي في ازالة الحواجز الطبقية والمادية . . وعن الكثير من مكاشفاته وأسراره الروحانية .

ثانيا : تحدث عن العلماء أهل الفضل . ولم يعرف كيف يتناول الحديث عنهم ، كان يحبهم ويجلهم وكان معجبا بهم لكن حديثه عنهم كان مقتضبا وعاميا . بمعنى انه يذكر اسم العالم ويثني عليه دون أن يحدد معالم علمه ومؤلفاته وشيوخه وتلامذته في أغلب الأحيان . فهذا القسم من الكتاب على فقر محتواه يعد ذا قيمة عظيمة لانه عدد لنا اسماء أبرز علماء المدينة في ذلك الحين ، معظمهم لم يذكر إلا في كتابه ، فقد تحدث مثلا عن : الشيخ صالح الوفائي » العالم والخطاط ، وأستاذ اللغة التركية ، وعن مكتبته الفريدة في حمص ، وحبه في اقتناء الكتب والولع في قراءتها « والشيخ شريف الرفاعي » واشتغاله بامور خميس المشايخ فضلا عن امتهانه العمل بالطب النفسي « وعن الشيخ حسن باشا التركماني » وكراماته بضرب السيف — أو ما يعرف بضرب الشيش — وأكل النار التي هي عنده مثل أكل الحلاوة » . كما أورد ذكراً عن الشيخه أم محمد التلاوية « من قرية تلبيسه » متحدثا عن ورعها وتقواها .

ان تراجم علماء وشيوخ زمانه كثيرة حتى انه يضيق بنا المجال هنا عن تعداد اسمائهم ونترك ذلك للكتاب بعد التحقيق الذي سيوضع بين أيدي القراء ان شاء الله .

ثالثا : استطرد في ذكر خلافات وقفية قديمة في أسرة الوفائي والعطائي وهذه الخلافات تصور حرص الأسر آنذاك واعتمادها على عائدات الوقف مما لم تعد له قيمة اليوم مثال : « وقف جامع التركمان المعروف بجامع العمري أو النخله ، وأملاك قرية المهاجرية قرب الدوير » كما تعرض لذكر فروع وأصول كل من الوفائية والعطائية ، فبنو العطائي هم أولاد عم لبني الوفائي والجد واحد .

رابعا : وبعد العلماء مباشرة تحدث عن مجموعة من الأشخاص بعضهم كان عضوا في المجلس البلدي ، نذكر منهم « الحاج يحيى أفندي الزهراوي — سليمان آغا الجندي — نجيب أفندي رفاعي زاده » كما اسهب في الحديث عن بعض الأشخاص الذين كانوا فقراء وأصبحوا أغنياء مثل « الحاج محمد حاكمي ، الذي وصفه بالرجل العاقل الكامل المستور . ثم الباري فتح عليه وصار غنيا ، توفي سنة ١٣١٠ ، وأعقب أولادا لا يحبون الرزائل ولا يعرفون إلا الحق ، محبوبين عند كل الناس » كما ذكر سليم الدروبي : صاحب المال الجسيم والعقارات الكثيرة . وكان أول غني بحمص . ثم يقول « اخبرني من أثق به بأن المذكور كان فقيرا مستوراً فمده الله وصار غنيا وله صدقات جارية » . ثم يتحدث عن بعض التجار البارزين نذكر منهم : « صالح الحسامي ومحمد السباعي وسليم الصوفي وخضر طليمات وعيسى الخانكانوغيرهم»

خامسا : وتحت عنوان « بيان الذي حدث واستجد بحمص وهو الباب الخامس » بدأ المؤرخ الوفائي يدون وباسهاب عن العديد من المباني والمنشآت والدور السكنية والمساجد ، والحمامات والمقامات ولم يغب عن ذاكرته أن يدون شيئا عن التوسع السكاني وقد بدأ شرحه وتفصيله من أبواب المدينة وسورها القديم ، نورد فيما يلي نصا بلغة وأسلوب المؤلف اذ يقول : « ان حمص كان لها سبعه أبواب وصور من دائرها . ففي زمن السلطان عبد المجيد ، كان على الأبواب حرس كمركجيه يأخذو كمرك على البضاعة الداخله والخارجه . فدام الحرس والكمرك إلى زمان السلطان عبد العزيز . فبآخر عهده ارتفع الكمرك وبطله الحراس والكمرجية فصاره البوب متروكة بلا حرس » ويقول « ثم ان البلدية خربت الأبواب وتوسعت الطرقات وجددو البلاط وصار

سهلا على المفتح والأعمى . . . » كما ذكر المؤرخ بقية الأحداث العمرانية ننقلها اليكم بتصرف : « عندما اعتلى السلطان عبد الحميد الثاني العرش من سنة ١٨٧٦ – ١٩٠٩ م ارتفع عدد سكان المدينة مما أدى إلى الازدحام فكانت تعيش في كل بيت – خانه – ثلاث أسر إلى خمس أسر على الأقل وكان السيد سليمان صافي – المعروف باسم أبو حسن صافي الخياط – أول من اشترى قطعة أرض خارج باب السوق وبنى عليها بيتا سنة ١٨٨٧ م وسكن به فاتخذه الناس قدوة ، إلى أن صار العمران متصلا بقرية سيدنا خالد بن الوليد – حي الخالدية حاليا – وأصبح العمران خارج جميع أبواب المدينة » . ثم ينتقل المؤرخ ليحدثنا عن تخريب باب هود والأحجار الأثرية المصورة التي وجدت في أساساته ، ثم يصف لنا باب السوق وصفا معماريا وفنيا » .

ان الحديث عن المباني في عصر المؤرخ كثيرة . نكتفي هنا بذكر بعض من اسمائها ، تاركين التفصيل لمناسبات أخرى . من هذه المباني الجامع النوري الكبير ، أوقاف بني العظم ، وأوقاف سيدنا خالد ، وبحره الساحة ، وجامع الدك « الدالاتي » ، وتكية بيت الأديب ، وخانات العظم والدروبي « السلور » ودار عبد الحميد اشا الدروبي على كتف الساقية ، وحمام الفيصل وحمام الذهب ، والتكية : المولوية ، كما أورد ذكر عن تجديد بناء حارة الحميدية في زمن السلطان عبد الحميد الثاني . . إلى غير ذلك من المباني .

ولم ينسى مؤرخنا أن يذكر رؤساء البلديات في زمانه ، مشيرا إلى أعمالهم العمرانية والادارية منهم نذكر : عبد الحميد سليم الدروبي الذي انتعشت في زمنه البلدية ، وكان يحب البناء والعمران ، فقد جدد

الأسواق ، وكنار الساقية وعدل مسارها ؛ كما وسع الطرقات فأدى هذا العمل الأخير إلى خصومته مع زاوات البلد ، ورفعوا بحقه المظابط (الشكاوى) فأدى ذلك إلى عزله وقد تأسفت عليه جميع الأهالي » . ومن رؤساء البلديات نستطيع أن نذكر أيضاً .مصطفى رسلان ويحيى الترجمان ومحمد سعيد الجابي وغيرهم .

سادسا : أما القضايا الاجتماعية فقد شغلت حيزا لابأس به من المخطوط ، نورد فيما يلي شيئا عنها :

ان القضايا الاجتماعية التي تعرض لها ، وكانت متبعة في زمانه . مدليا برأيه بان بعضها كان عبارة عن خرافات « معتقدات خاطئة » مثال : عادة دفن المكوك والمطواية وبعض لوازم نول النسيج عندما تتأخر أحوال رواج البضائع ، فان هذا العمل حسب اعتقادهم يؤدي إلى تحسين أحوال الكار — أي الصنعة — وتروج البضائع .

كما ذكر غادة الحملان في الافراح مثل (الختان والزواج) . وغالبا ما يكون الحملان رزا تشارك فيه أهالي الحي بالاهازيج والرقصات وعلى نغمات الطبول . . . « كما روى حادثة افاء النذر وما تجري للخاروف المنذور من زينة ذهبية وفضية ، وكيف يطوقون به الشوارع حتى يتم ايصاله إلى بيت الشيخ . كما تحدث عن قراءة المولد عند العامة ، وسيران التركمان ونوبة مصدر ، فضلا عما ذكره عن أخلاق العصر .

سابعا : ان التفصيل في الكثير من القضايا التي تعرض لها مؤرخنا . تتطلب الوقت والشرح والتفصيل ولا أخفي عليكم أيها السادة بأن محاضرتي هذه هي ملخص عن محاضرة مطولة قمت باعدادها ، مشبعا

إياها شرحا وتفصيلا . ولكنني وجدت نفسي مضطرا ضمن الوقت الضيق المخصص لنا في هذه الندوة ، إلى تلخيص وذكر بعض من الأحداث والاعلام والمنشآت العمرانية وغيرها ، والتي وردت في كتابنا المخطوط ، آملا أن نوفق بنشره ، ليكون مرجعا وحلقة ضمن حلقات التاريخ . واسمحوا لي أن أشير سريعا إلى بعض ماجاء على لسان مؤرخنا الوفائي :

١ — هجرة الشركس ١٢٩١ « بسبب الحرب بينهم وبين الموسكوف وحدد عددهم . ومكان استقرارهم ذاكرا تقواهم وايمانهم » . ولم ينسى أيضا ذكر مهاجري كريد ١٣١٧ واستقرارهم بجوار القصير ومهاجري بخارى ولقائهم بالشيخ سليم خلف .

٢ — انحباس المطر سنة ١٣١٨ ودعاء وصلاة الاستسقاء بحضور الشيخ سليم خلف وكان عمر الشيخ آنذاك ٩٥ سنة ، ويصف كيف أخذه الجذب والبكاء حتى ابكى جميع العالم ، وكيف هطل المطر بعدها غزيرا مدرارا .

٣ — نزول اسعار العملة على اثر الثلج الذي دام طويلا سنة ١٢٩٦ هـ ١٩١١ م . وحدوث الغلاء .

٤ — كما ذكر اسماء رؤساء بعض الطوائف المسيحية بحمص سنة ١٣١٧ منهم : نسيم الصراف وابناء فركوح ، وأبناء الحموي ، وحنارزق ، وانطون طرابلسي .

وهجرة أبناء الطوائف المسيحية للعمل في امريكا .

٥ — ذكر العديد من الشخصيات والعلماء الذين مروا بحمص أمثال :

البحراوي ، واللاذقاني ، وسابا الطرابلسي ، وحبيب مرهج ، كما اسهب بذكر من استوطن حمص من العلماء أمثال الشيخ عبد الباقي الأفغاني . . وغيرهم .

٦ ـ حضور البهلوان والسباع .(السيرك) لحمص سنة ١٣١٩ .

٧ ـ تعرض للوحدة النقدية في زمانه : القرش والباره والحمره والمجيدي وغيرهم . ووحدة الأوزان الرطل والشنبل . والمهن مثال : العبجية ـ والصرماتيه ـ والبرادعية وغيرهم .

٨ ـ أما الالقاب التي كانت سائدة في عصره فقد ذكرها الى جانب الأسماء الحقيقية لاصحابها منها الطنجير ، والبجم ، وتاجو وحنجل منجل ، والزند . . وغيرها من الألقاب التي راجت في ذلك العصر .

٩ ـ أما الأمراض فقد اشار اليها عند ذكر المترجم له وكيف ادت الى وفاته منها :

« مات بحصر البول ـ داء الفالج ـ توفيء فجأة أو قهرا ـ أي بسبب الحزن والغم ـ وغيرها من الأمراض التي استعصت على أطباء زمانه .

١٠ ـ كما ذكر لباس وازياء عصره ضمن احاديثه العامة والخاصة منها : البابوجة والطربوش والعمامة والقنباز .

١١ ـ تحدث عن السكة الحجازية والتلغراف الحجازي ، ودعا للسلطان الذي أمر باقامتهما .

١٢ ـ تعرض لذكر علم الفلك وعلمائه ، فعرفنا على بعض منهم مثل محمد طه السكاف وخالد الكلاليب وأمين الطرابلسي . وروى لنا

لنا قصة مفادها ان الحاج محمد السكاف سأل خالد الأتاسي عن الأرض هل هي كروية أم بسيطة ، فقال خالد أنها بسيطة ، فأتاه السكاف بادلة وبراهين فعندها علم ان الأرض كروية وليست مبسوطة » .

و الآن وقبل ان انهي محاضرتي لابد ان اضع امامكم قيمة الكتاب في نظرنا : بالنسبة للقيمة الاجتماعية والاقتصادية : فاننا من الكتاب يمكن ان نرسم صورة صادقة لطبقات مجتمع المدينة ، فهناك طبقة الأغنياء والمتنفذين (الزاوات) وهي تشمل التجار والولاة والأقطاعين . ثم طبقة الفقراء . وتشمل على جمهور العلماء والصوفية وسائر أبناء الشعب .

والكتاب لايصور العلاقات بين الطبقات على نحو واضح لكن الدارس المعاصر يستطيع ان ينفذ من جملة أخبار الكتاب الى كثير من الحقائق المتعلقة بالتكوين الطبقي وبالعلاقات بين الطبقات التي كانت سائدة آنذاك . وكذلك تعرض لقضايا ارتفاع الأسعار المفاجيء . . . . بالاضافة إلى الكوارث الطبيعية التي أصابت المدينة في عصره . أما القيمة السياسية ، فان الكتاب يظهر السلبيات السياسية المتمثلة بانعزال المجتمع عن أي فاعلية سياسية فالمجتمع كان دائما متأثرا وليس مؤثرا .

أما الناحية العلمية ، فان الكتاب يقدم صورة واضحة عن الحركة العلمية وطبيعتها ويظهر لنا كيف أن العلوم كانت تدور في اطار الفقه واللغة وما أشبه ذلك . وليس هناك أي مظهر بارز لتأثر المدينة بالعلوم الحرفية على الرغم من أن المؤلف اشار إلى بعض ذلك مثال : (كروية الأرض عند السكاف) .

لكنه بحكم ثقافته المحدودة وانجرافه وراء الصوفية لم يستطع أن يتحدث بالتفصيل عن بعض مظاهر التنوير التي نظن أنها كانت موجودة لدى نفر من طبقة العلماء في ذلك الوقت .

كما أن الكتاب يصور ملامح عن البنية الاجتماعية الضعيفة التي كانت سائدة في المدينة في أيام الدولة العثمانية ، بسبب سياسة الانعزال والكبت الذي فرضه نظام الدولة العثمانية آنذاك . بقي لنا أن نقول بان الكتاب المخطوط موضوع دراستنا في هذه الندوة يبقى المصدر الوحيد لتاريخ المدينة في ذلك العصر ، ونحن لا نشك اطلاقا في صدق الكاتب ؛ ربما بسبب بساطته وتدينه ، وعدم وجود الأغراض والمنافع الشخصية التي قد تجرفه في تيار دون آخر .

شكرا لاصغائكم والسلام عليكم

حمص في ١٩٨٤/١١/٢٩

رياض البدري
معاون مدير آثار حمص

* * *

الفهرس

مقدمة	٥
الطوبوغرافية التاريخية للمدن القديمة في وسط سورية	٧
معركة قادش	١٧
قطنة وقادش	٢٧
تاريخ حمص	٣٩
حمص واسهامها الفني والجمالي في العصر الهلنستي والروماني	٥٥
تحرير حمص من السيطرة البيزنطية	٧٥
مراجع البحث	٩٧
أسواق حمص	١٠٣
المراجع والمصادر	١٣٩
مخطوط التاريخ الحمصي	١٤١

الاسبوع التاريخي الأول

للجمعية التاريخية في حمص

بمناسبة

مرور سبعة قرون على خروج الصليبيين "الفرنجة"

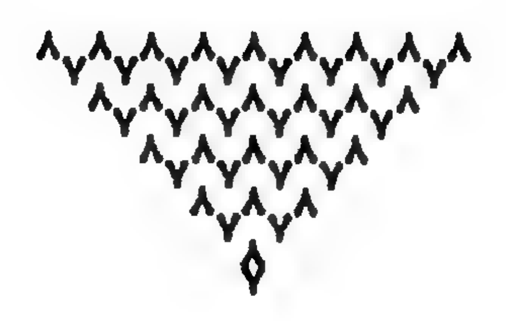
من بلاد الشام

من ٢٤-١١/٢١-١١-١٩٩١

* الفهـــــرس *

=•ז•ז•ז•ז•ז•=

	من الصفحـــة
١- المقدمة (الاستاذ محمد عبدالصمد الشاطر) •	٥ - ٧
٢- الحملات الصليبية - التسمية والدوافع (الدكتور صالح حمارنـة)•	٩ - ٢٤
٣- الصليبيون والفاطميون في ملابسات الموقف على الجبهة الاسلامية في بلاد الشام •(الدكتور ابراهيم بيضون)•	٢٥ - ٥١
٤- المقاومة العربية - الاسلامية للتوضع الافرنجـــي الصليبي (شوقي شعث) •	٥٢ - ٧٣
٥- كيف جاءت نهاية الحرب الصليبية ونتائجهـــا (الدكتور سهيل زكار)•	٧٥ - ١٠٩
٦- صراع على ضفتي البحر(الدكتور محمد حرب فرزات)•	١١١- ١٤٠
٧- حكاية الصليبيات (الدكتور شاكر مصطفى) •	١٤١ - ١٦١



صدر عن الجمعية التاريخية

١ـ العدد الأول من مجلة البحث التاريخي .

٢ـ العدد الثاني من مجلة البحث التاريخي .

٣ـ العدد الثالث من مجلة البحث التاريخي .

٤ـ ندوة حمص الأثرية التاريخية الأولى .

٥ ـ العدد الرابع من مجلة البحث التاريخي .

٦ـ العدد الخامس من مجلة البحث التاريخي .

٧ - الاسبوع التاريخي الاول .

بين يدي الذكرى[1]

الاستاذ محمد عبد الصمد الشاطر

نقدم لقرائنا الاعزاء ثمرة أعمال الاسبوع التاريخي الاول الذي أقامته الجمعية التاريخية في حمص في الفترة الواقعة بين ١٩٩١/١١/٢٤ - ١٩٩١/١١/٣١ ، بمناسبة مرور سبعة قرون على خروج آخر فلول الفرنجة الغزاة من وطننا العربي ،فيما اصطلحوا على تسميته // مؤخرا // بالحروب الصليبية .

سبعة محاضرين أساتذة كبار تكرموا بالحديث عن هذه المناسبة فأغنوا الموضوع بسرد تاريخي منهجي موفق ،نفروا خفافا وثقالا من أرجاء المعمورة العربية ،وهبوا متطوعين بنجدة يعربية تثمنها الجمعية ومدينة ابن الوليد قاطبة وتشكر لهم أريحيتهم النبيلة وعطاءهم الفياض مدفوعين بأحاسيس وطنية وعلمية خلاقة .

لم يكن الحدث التاريخي موضوع الاسبوع عاديا ولم تكن فترته الزمنية قصيرة أو نتائجه هينة ، ان كل شيء في هذه الحروب القاسية كان مدمرا وعاصفا .

بدأت حروب الفرنجة والوطن العربي في أشد حالات ضعفه فحكامه وجلهم من غير العرب يتصارعون على السلطة ناسين أو متناسين الخطر الداهم الذي راح يحيق بهم غير عارفين مداه أو هويته .

أمام التشرزم السلجوقي والفاطمي والضياع العباسي وتناحر القادة وشماتة بعضهم بالبعض الاخر . سهل على الغزاة "بعد عدة محاولات التغلب على المقاومة المبعثرة هنا وهناك وحصلوا على موطيء قدم لهم ثم انساحت أقدامهم وسيوفهم تعمل في رقاب عباد الله المستضعفين بعد أن خزلهم حكامهم المتقاعسون حتى عادت الصحوة التي بدأها زنكي/عماد الدين/ باستعادة الرها ،وقام بعده بالجهد الوحدوي الموفق ابنه محمود/نور الدين/ عندما استطاع بدهائه وقوته أن يجعل رايته

تخفق على خمسة عواصم عربية هي /دمشق - الرها - حلب - الموصل - القاهرة / وبدأت بذلك الخطوة الصحيحة المؤدية الى طريق التصدي لهذا الاستعمار الاستيطاني المقنع .

جهود كبيرة تلك التي بذلها نور الدين وآمان عريضة رُسمت في مخيلة المواطنين ... غدا يوم الثأر قريبا ،هاهو المنبر قد صمم في حلب لنقله الى الاقصى والكل ينتظر .. المنية عاجلت صاحب الخطة والمنبر لم تمهله طويلا ،خطفته المنون بغتة ،مما أفسح المجال للناهض في مصر/ الناصر صلاح الدين/ لان يستثمر هذه المنجزات ويستأنفها بهمة وتصميم أنست الجموع الكارثة وحجمها الكبير ،فكان خير خلف لخير سلف .

هو صاحب حطين ومحرر القدس من الغزاة المعتدين . نعمت البلاد في عهده بالقوة ونشوة الظفر وجاء (الممزقون) من الايوبيين بعده ، فهدموا ما بناه صلاح الدين ، ولحق الامة بسببهم خذلان مبين ،فأعادوا بيت المقدس صلحا في معاهدة اسطورية مع ملك الالمان وضاعت دماء المحاربين وجهود المصلحين حتى حين ...

لكن المسيرة لم تتوقف فقد تابعها قطز والظاهر بيبرس وقلاوون ، وأنهى الملحمة الاشرف خليل بعمله المبدع السريع وحرر عكا ،فانتهى الامر بالفرنجة الى الرحيل عن الارض العربية .

وكانت جهود جبارة قد بذلت قبل هؤلاء القادة لزحزحة الفرنجة أو طردهم لكنها لم تؤت أكلها على عظم الجهد وكثرة التضحيات ،غير أن ذلك كله كان ارهاصا بتلك الملاحم الشهيرة .

ويمكن أن نذكر من أصحاب هذه الجهود الخيرة (ارتق)وابنه (سكمان) و(جزكمش) و(مودود) و(البرسقيان)و(زنكي) و(آل عمار) في طرابلس ان جهود هؤلاء كانت صادقة ،لكنها تفتقد العمل الجماعي الموحد الذي اكتشف أهميته (نور الدين) وسار على طريقه وتابعه بعده صلاح الدين صاحب الدولة التي امتدت من الفرات الى النيل ومن دياربكر الى اليمن .

بهذه القوى رمى جموع الصليبيين في حطين ومثله فعل سلاطين المماليك الكبار فماذا كانت النتائج ؟ وماذا كان الحصاد ؟ .

دام الحصار قرابة مئتي سنة بين كر وفر ،كنا فيها مدافعين حينا ومهاجمين حينا آخر لتحرير مدينة أو استعادة قلعة أو حصن وكانت ساحة المعركة دائما هي الارض العربية ... كل شيء للمعركة وفي سبيلها كل شيء يهون .

وتعددت المجازر الجماعية التي حصدت مئات الالاف الذين ماتوا وهم ينتظرون ساعة الخلاص ولاتسل عن طريقها ... هدمت مدن كاملة وأزيلت من الوجود ،وأحرقت الزروع واقتلعت الاشجار ،وهلك الحرس والنسل .... عزاؤنا الكبير كان في النصر وقد كان ولكن بأي ثمن كان ؟!
لقد صب معظم هذه الصواعق على بلاد الشام ،وتناثر بعض رذاذها فطال مصر فترة محددة ،فتحمل بذلك (الشوام) العبء الاكبر وتجلدوا أمام المصيبة الى أن هبت الرياح المواتية من دمشق والقاهرة وتجاوبت معها بقية العواصم العربية فقدم الشاميون كل مايستطيعه المضحي وطال الزمن .... وفي كل شيء لايسرك طول ... فكيف والزمان زمان المحن ؟ .

هذه صورة مقتضبة وسريعة لما حدث في المواجهة الكبرى ولبعض انعكاساتها على الاجيال اللاحقة ،ولابد من قراءتها مفصلة في مظانها الاساسية وفي محاضرات الاسبوع التاريخي التالية.
ان ماقدمناه جهد متواضع بين يدي حدث كبير ،فليعذرنا العارفون ... وفي واقع الحال الكثير مما قدمناه ونقدمه مدين بالجميل والايادي البيضاء للسادة المسؤولين وللسادة الاساتذة المحاضرين الذين تجاوزوا الصعاب والمعيقات وأعطوا ماأفاد وأثرى ،فلهم جميعا خالص شكر الجمعية وامتنانها . والله الموفق .

محمد عبد الصمد الشاطر

الحملات الصليبية ـ التسمية والدوافع

الدكتور صالح حمارنه
الجامعة الأردنية

أود في بدء حديثي أن أتعرض الى المصطلح مصطلح الحروب الصليبية او لنقل الحملات الصليبية ،وغرضي هو جلاء ما يلحق بهذا المصطلح من مفاهيم ودلالات خاطئة وبما تحمل في طياتها من تناقض فيما بين دلالة المصطلح اللغوية وحقيقته التاريخية .

فأول هذه الامور هو أن ربط هذه الحركة بالصليب هو ربط انتهازي ومريب ،والحقيقة أن هذا الربط لم يكن منذ بدء الهجمة الفرنجية على بلادنا ،بل ـ لقد تم ذلك بعد حوالي قرن ونصف القرن من دوران عجلة أحداث الحملة الصليبية .

صحيح أن الذين قاموا بالحملات الصليبية كانوا على الاغلب الاعم مشبعين بالعاطفة الدينية ولكنها عاطفة امتزجت في أفعال أصحابها بالوحشية والقسوة ناهيك عن التعصب ودلالاته المقيتة ،وأهم من ذلك كله ان أعمال وحروب الصليبيين تتناقض تماما مع تعاليمهم المسيحية السمحة ورمزها الصليب ،الذي هو رمز الفداء والتضحية في سبيل الاخرين ((فمن اراد ان يتبعني فلينكر نفسه ويحمل صليبه)) ،هذا ما جاء في بشارة متى وورد أيضا طوبى لصانعي السلام فانهم أبناء الله يدعون ،فجوهر المسيحية هو المحبة والسلام ،فلم يكن الصليب ابدا رمزاً للحرب والقتال اغتصاب أرض الاخرين .

ومعلوم ان جميع المؤرخين والجغرافيين العرب المسلمين الذين تناولوا الحركة الصليبية ،وهم كثيرون : ابن الاثير ، ابن العديم ، ابن شداد ، ابن واصل ، ابن القلانسي ،المقريزي ،العماد الاصفهاني ،القلقشندى ،جميع هؤلاء وغيرهم لم يستخدموا أبدا مصطلحات مثل الصليبيين ، او الحملة الصليبية وانما تكلموا على الدوام بمصطلح الفرنج ،وغزوة الفرنجة ،على الرغم من أن كثيرين من المؤرخين العرب المسلمين كانوا يفرقون بين الجرمان والانجليز مثلا ،وغيرهم من شعوب اوربا .

فالكلمة الانجليزية Crusade والالمانية Kreuzzady
كلاهما قد أبتكرتا في العصور الحديثة ،حيث ان المؤرخ الفرنسي لـويـس
مميور والذي خدم في بلاط الملك لويس الرابع عشر ،كتب كتابا عن هــذه
الحروب سمّاه تاريخ الحروب الصليبية وذلك عام ١٦٧٥ وتبعه المؤرخ الالماني
ليسينغ واستعمل نفس التسمية وتبعهما اخرون ،ومع الاسف نهج المؤرخون
العرب نفس المنهج في اكثر الاحيان محاكاة للمستشرقين .

في حين عند قيام الحملات الصليبية كان الغربيون يطيب لهـــم
تسميتها بالحرب المقدسة Holy war او الحرب العادلة ist'ssim Bellum
كما استعمل تعبير الترحال ، او التطواف wander Pemogrintio
وببساطة تعبير الحملة Expeditio والطريق الى الارض المقدســة
Inter in terram Sanetum والسير على درب الرب .

غير ان تعبير الحروب الصليبية او الحملات ،هو الذي شــاع منــذ
استعمل حتى أيامنا هذه . . واليوم كما تعلمون نحتفل بخروج آخــر
جندي من جنود هذه الغزوة منذ (٧٠٠) سنة من مدينة عكا الفلسطينية
وأرض الشام .

هذا وان الباباوية و الاقطاعيين الغربين رفعوا شعار الحــروب
الصليبية والحرب المقدسة ضد كثير من خصومهم السياسيين والايدولوجيين
فتحت رايات الحملة الصليبية شنت الباباوية منذ القرن الثالث عشــر
وبعده في الغرب نفسه حروبا كثيرة ،واود هنا للاختصار ان انتقــي
انتقاء بعض الامثلة . فالفرسان الالمان كانوا يطبقون سياسة ،درانغ
ناخ ، اوستن ،بما يمكن ترجمته للعربية سياسة الزحف الى الشرق،وهنــا
الشرق الاوربي لا العربي اي غزو مناطق البلطيق الشرقية والجنوبيــة ،
واستعباد الشعوب البولونية والروسية الشمالية الغربية ،تماما كمــا
فعل في بلدان الشرق العربي فرسان رهبنة القديس يوحنا ،وفرسان رهبنة
الهيكليين اللتين وطدتا بالسيف سيطرة الدولة اللاتيينة والفرســان
والتجار في ما اسموه بمملكة القدس،التي زرعوها في فلسطين وبلداننا

العربية ،فقد نشرت على نفس الغرار رهبنة الفرسان التوتونيين أو رهبنة حملة "السيف الالمانية التي نشأت سنة ١٢٠٢ م،نور الايمان الحقيقق،فلاجل انتصار الصليب سفك فرسان هذه الرهبنات دماء السلافيين والبروسيين والليتوانيين والاستونيين ٠

ومثل آخر : فتحت راية الصليب ايضا في سنوات (١٤٢٠ - ١٤٣٠) شن البابا مرشينيوس الخامس خمس حملات تأديبية بقوات الفرسان الالمان ضد المنتفضين الهوسيين الثوريين من اهل تشكوسلوفاكيا،وكان غالبيتهم من الفلاحين والحرفيين الذين هبوا للنضال من أجل خلاص بلادهم من نير الفرسان الالماني والسلطة البابوية وفي سبيل استقلالهم القومي ٠

(الهوسيون هم اتباع رجل الدين والمصلح التشيكي يان هوس (١٣٦٩-١٤١٥) الذي قاد ثورة ضد البابوية من اجل استقلال بلاده،واستقلال الكنيسة الوطنية ٠

ومع مرور الزمن وتحت تأثير وسائل الاعلام الغربية التي قامت - ولاتزال - لخدمة الاهداف الاستعمارية الغربية،فقد تحول المصطلح صليبي لدى الغربين الى مثال براق يوحي بالشجاعة والتضحية في سبيل المثل العليا ،حتى استقر في الوجدان الشعبي الاوربي -الامريكي ٠

وان الحملة الصليبية لابد ان تكون وبالضرورة حملة خير،نبيلة القصد والهدف ٠ فقد حملت هذا المفهوم الموروثات الشعبية من أغبان وملاحم عن الحروب الصليبية ،واصبحهذا الموقف ينسحب على الفرد العادى في الغرب وعلى الانسان الرسمي ٠ بل اننا كثيرا ما نرى قادة الرأى والسياسة الغربيين يستخدمون مصطلح صليبي بهذا المفهوم النبيل والخير والعادل ٠ ما خلا قلة من الكتاب والمفكرين من بينهم الماركسيون - فهؤلاء قدرجوافي كتاباتهم على تضمين الصليبية معنى مجازيا سلبيا ٠

فكثيرا ما كان يستعمل التعبير الحروب الصليبية أيام كانت الحرب الباردة على أشدها كحرب ضد الاشتراكية مثلا ،وقد نبه العالم الكبير

جوليو ـ كوري الى خطر بعث جو الحرب الصليبية ضد الاشتراكية بعد هزيمة الفاشية في الحرب العالمية الثانية فقد دعا الى نبذ روح الحرب الصليبية ووضع حد لمحاولات خصوم السلام والتعايش السلمي لاثارة التعصب بين الناس فاننا سنناضل ضد الكذب وضد الخرافات والآراء الباطلة ،وطبعا ضد الحرب •

بقي أن اقول ان مصطلح الحروب الصليبية استعمل ضد العرب المسلمين قبل غزوة الفرنجة الى الديار المقدسة ،ذلك انه استعمل ضد العرب المسلمين في اسبانيا (الاندلس) ،وفي صقيله لابل ان ترهات الغربيين وانتقاءهم المجحف لما يسمونه حقائق تذهب الى أبعد • فمثلا هم يرددون وحتى اليوم اسطورة تقول بان الملك شارلمان الكبيربسط حمايته على الديار المقدسة ، وتسلم من البطريرك مفاتيح القدس ، ردده‌ذه الاسطورة مبتدعها الراهب سنت كول بعد خمسين سنة من وفاة شارلمان،هذه الاسطورة ضمنها اينهارد Enhard في كتابه حياة شارلمان وقد رددها الكتاب الغربيون والصهاينة ،واستسلم لها مع الاسف بعض المؤرخين العرب زاعمين ومرددين ان علاقات ودية قد قامت بين الخليفة هارون الرشيد،ومعاصره شارلمان ضد عدوهم المشترك العرب في الاندلس •تصوروا معي هذا التخبط وهذه المزاعم الكاذبة ،مع ان مصادرنا العربية الاسلامية لاتذكر البتة مثل هذه العلاقة ،كما ان التحليل المنطقي للتاريخ يرفضها تماما • لا أريد هنا ان اخرج عن الموضوع ،لذا اعود فاقول ان حرب الاسترجاع التي شنها الاسبان ورهبان الكلوني على عرب الاندلس أخذت تسمى أيضا بالحرب الصليبية فتشير الحقائق التاريخية بان القرن الحادى عشر وعلى امتداد سنيه الطويلة قد حفل بمغامرات جماعات الفرسان وحملاتهم اللصوصية ،فحيثما كانت تنشب حرب كان يتواجد عدد كبير من الراغبين في اشهار السيف أملا في غنيمة سهلة المنال،وهذه الحملات العدوانية الاغتصابية قد استرعت انتباه الكنيسة الكاثوليكية • فقد استحث

رهبان كلونى الاسياد،والفرسان الفرنسيين،وبجميع الوسائل على الاشتراك في استعادة اسبانيا (الريكونكيستو)،وحبذت لابل شجعت البابوية هذه الحملات،لتكسب مكانة ارفع لكرسي البابوية في الفاتيكان.فاعتبرتها حربا مقدسة حربا صليبية ،قبل الحروب الصليبية في الشرق العربي،فقد رفعت نفس الشعارات تقريبا ،ولبس القائمون عليها نفس الالبسة ورفعوا نفس الرايات،وكان رهبان كلوني العنصر المحرك لهذه الحروب فأعلنوا الحرب ضد المسلمين في الاندلس وسموها حربا مقدسة بمباركة البابا والكنيسة ،فقامت على هذه الاسس الحملات سنة (١٠٦٣ - ١٠٦٤) وغفرت الكنيسة خطايا كل من ذهب وتطوع للحرب بهذه انحملة ،من اجل قضية الصليبهلابل ان البابا غريغوريوس السابع (١٠٧٣) م سمح فيما بعد بامتلاك الاراضي التي ينتزعها المسيحيون من الكفار .

ولنركز الان على الغزوة الفرنجية على بلادنا ...

يقول واط : يصطدم باحث الدراسات الاسلامية حين ينظر الى اوربا في العصور الوسطى لأمرين بارزين، اولهما : الطريقة التي بموجبها اخذت الصورة المشوهة للاسلام شكلها في اوربا بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر،والتي استمرت بعض الشيء بالسيطرة على التفكير الاوربي، اما الامر الثاني : فهو الحالة الاستثنائية التي سيطرت فيها فكرة الحروب الصليبية على قلوب الاوربين الغربيين وعقولهم ،وقد يندهش المرء أكثرحين يأخذ بعين الاعتبار التهور والدونكيشوتية التي كانت عليها سلسلة المغامرات بأجمعها فالحركة الصليبية تشكل افرازا للتفاعل ما بين الكنيسة الكاثوليكية والاقطاع ،وكانت الكنيسة ترمي من خلالها الى تحقيق اهدافها . واهمها السيادة المطلقة للبابا على العالم المسيحي .

كما وان الحركة الصليبية كانت من ناحية اخرى محاولة لتحقيق اهداف الناس العلمانيين الذين خضعوا للتنظيم الاقطاعي سواء كانوا

من النبلاء وفرسانهم او حتى من الفلاحين العاديين،فلقد كان النبلاء الاقطاعيين يتطلعون الى بناء سلطتهم الاقليمية على حساب الملكية ، ولعل هذا هو السبب الذي جعل البابا أربان الثاني يوجه خطابه الشهير الى الفرسان الفرنسيين بالذات لان فرنسا كانت لاتزال الدولة الاقطاعية الوحيدة آنذاك (وفي شمالها خاصة كان حق الارث قاصرا على الابن الاكبر) .

فجاءت الحملة الصليبية متنفسا لطبقة الفرسان التي كان عددها ينمو باستمرار،كما ان الزيادة السكانية ايضا في غرب اوربا في القرن الحادى عشر قد حفزت أبناء الغرب على البحث عن ارض جديدة خارج اوربا فجاءت الدعوة الى التوسع في الشرق العربي وبمباركة الكنيسة الكاثوليكية بمثابة الحل السعيد للمشاكل الناجمة . وظهرفي عائلات الاقطاعيين عدد لايستهان به من الابناء الاصغرسنا المحرومين من الارض وكانوا يلقبونهم ألقابا سخرية تطابق وضعهم الاجتماعي بالمعدمين او البلا ارض .

اما الفقراء والمستضعفين في الارض فلقد ربطوا احوالهم الاجتماعية المتردية باعتقادهم بقرب نهاية العالم التي ستنقلهم الى اورشليم السماوية . فلم يكن في وسعهم ان يفرقوا بين اورشليم في فلسطين واورشليم في السماء،ذلك لان الناس في الغرب الاوربي عشية الحروب الصليبية عاشوا في احباط وبؤس ،فانهم رأوا في الدعوة الصليبية فرصة كبيرة اختلط فيها الطمع الدنيوى بالرغبة في الخلاص .

ولتوضيح ذلك نكرر القول انه في القرن الحادى عشر توطد نظام الاقطاعية والقنانة في بلدان اوربا الغربية ،فكان الاقطاعيون يكثرون من نهب الفلاحيين بشتى الضرائب ،ويسوقون بالسخرة جمهور الاقنان . ومع ظهور المدن تطور التجارة تعاظمت شهوات الاسياد الاقطاعيين فكثرت مطامعهم وطفقوا يبتزون الاموال اكثر فاكثر وسنة بعد سنة فادخلوا فريضة المدفوعات النقدية عوضا عن الجزية العينية ، الامر الذى

كان مرهقاكل الارهاق للفلاحين وبهذا أصابهم الفقر المدقع وانزلقوا الى الهاويـــة .
بجانب ذلك كانت الحروب الداخلية متواصلة وقد نشبت في كل مكـان في القرنين العاشر والحادى عشر،فكانت هذه الحروب عاملا لايستهان به مـن عوامل افقار الريف واملاقه،فامسى الريف في اواخر القرن الحادى عشر يمر بزمن عصيب جدا عرف بالسنوات السبع العجافه والتي سبقت مباشرة الحملـة الاولى للصليبين الى الشرق،لذا وجدوا في هذه الحملة وما تلاها الـخلاص فانخرطوا بها .
اما البرجوازية الناشئة ممثلة في القوى التجارية الايطالية علـى وجه الخصوص،فقد رأت في المشروع الصليبي فرصة هائلة للسيطرة على تجارة البحر الابيض المتوسط وتجارة العالم آنذاك،وضرب قوى المسلمون الصاعدة في مجال التجارة والتقدم،ولذلك سارعت بالانضمام الى المشروع ....
ففي منتصف القرن الحادى عشر كانت البندقية قد بنتا سطولها القـوى وشاركتها في التجارة المدن الاخرى مثل جنوة وبيزا،وقد لعبت هاتـان المدينتان دورا هاما في الحملة الصليبية الاولى في مقابل السيطرة علـى موانئ شرق البحر الابيض المتوسط وهكذا،ففي اثناء هذه الحروب الصليبية فقد قام تحالف مابين الكنيسة الكاثوليكة والاقطاع من جهـة وبـين البرجوازية التجارية الاوربية في مدن اوربا خاصة ايطاليا من جهة اخرى لضرب تجارة المسلمين ووقف تقدمهم الى جانب الكنيسة الكاثوليكية قـد رأت في هذه الحروب فرصتها لتوحيد الكنيسة كلها تحت سيطرة البـابـا . ثم للقضاء على مراكز الفكر العربي المتقدم الذى ومنذ زمن اخذ يقـض مضاجعها ويسبب لها القلق الشديد خاصة بسبب تغلغل الثقافة العربيـة الاسلامية وانتشارها عبر قنوات عدة ابرزها من خلال الاندلس .
لقد الكنيسة الكاثوليكية عشية الحروب الصليبية الأبعد نظرا في المجتمـع الاقطاعي والاكثر غنى وجبروتاً،فاخذت على عاتقها ان تنقذ الوضع وتخلص الطبقة السائدة التي تمثلها من البلايا،فجاءتها الفرصة الذهبية فـي

استنفار أرسله عام ١٠٩٤م، الامبراطور الكسيوس كومنينوس امبراطور بيزنطالى البابا أربان الثاني في الفاتيكان بيزنطة وذلك عندما غشى السلاجقة املاك الامبراطور الاسيوية ،فاكتسحوها حتى بحرمرمره وهدد السلاجقة القسطنطينية نفسها،ولاشك أن البابا قد رأى في ذلك الاستنجاد فرصة لارجاع الكنيسة الشرقية الى حظيرة روما،وكان انشقاق الطائفتين الاخير قد حدث عام ١٠٥٤ م ٠ وفي تشرين الثاني ١٠٩٥ م عقد بابا روما أوربان الثاني مجمعا لرجال الدين في مدينة كليرمون فران الفرنسية،بعد ان طاف على الاديرة الكلونية في جنوب البلاد،حيث كان هو نفسه رئيسا لدير كلوني،وفي هذا المجمع اتخذ قرار الحرب المقدسة لخلاص القبر فأعلن ذلك في خطبته التي ألقاها في احتفال كبيردعا البابا الكاثوليك الى حمل السلاح لأجل الحرب ضد ما سماه قبيلة الاتراك الفارسية الذين آسروا المسيحين ودمروا الكنائس ـ يعني السلاجقة المسلمين ـ واجتاحوا مملكة الرب (يقصد دولة بيزنطة) وهذا يعني انه اطلق من كليرمون النداء الذى دعا الغرب الى حرب صليبية في الشرق ٠ وقد قوطعت الخطبة بصرخات هذه هي ارادة اللهDeus lo voltوقد دعا البابا الفرسان الى وقف الحروب والمذابح والتحرك الى فتح البلدان الشرقية "روحوا في الدرب المؤدى الى الدرب المقدس" ٠ هؤلاء الفرسان العلوج الذين كانوا مرتزقة لقاء أجر زهيد،والذين خاطبهم البابا كانوا يتحرفون الى الدور والعقارات والى القطع النقدية الرنانة ٠ ووجه البابا خطابه للفقراء((اما بلدان الشرق فانها تفيض بالعسل والسمن والقدس هي محور الكون،هي الجنة الثانية)) ٠ وكذلك فان الفقراء والحزانى في الارض سيكون لهم الفرح والغنى هناك في السماء ٠

ولايخفى أن خطاب البابا هذا لقي التحبيذ من الاقطاعيين،فان الاقطاعيين كانوا يتصورون الاهداف الفعلية من الحرب اى اهداف النهب والسلب مغفلة بغطاء ديني في انقاذ المقدسات المسيحية ولم يكن ثمة تناقض بين الغرض الديني والدنيوى بنظرهم ،كما وكانت الحرب الصليبية ضرب من الحج المقدس لكثير من الناس ولكنه حج مسلح هذه المرة ٠ وتكون لدى الفرسان وغيرهم ايمان يجمع بين نكران الذات الديني مع الافكار عن

المكافاة الارضية السخية .

وكما قلنا فان خطاب البابا لم يستمع له الأسياد والفرسان وحدهم فقد استمع اليه أهل الريف والفقراء المتضورون جدا والمعذبون في عبودية القنانة . فكان الفلاحون يرغبون في التخلص من نير الاقطاعيين فاندفعوا الى ملاقاة القدس السماوية ،ولكن سرعان ما أحس القائمون ان هؤلاء الفقراء اصبحوا عبئا عليهم،ولم يكن ممكنا ايقافهم . وتنتهي المأساة بان الفلاحين لم يكسبوا في الشرق الارض والحرية بل كسبوا هلاكهم وحسب .

يذكر ابن الاثير ان الفرنجة عند دخولهم بيت المقدس قد قتلوا فيها من المسلمين ما يتجاوز السبعين الف انسان ،ويذكر ايضا ان اليهود قد تجمعوا في كنيس فاحرقه الفرنجة بمن فيه فماتوا . هذا المثل الوحيد قد سقته لادلل على الجرائم التي ارتكبها الفرنجة باسم الصليب في بلادنا ضد السكان جميعا .(ولا أريد في هذا البحث الخوض بردة الفعل عند العرب المسلمين،فهذا الموضوع الهام سوف يتناوله الاخوة الباحثون الاجلاء) .

كما ان بلدان البلقان المسيحية ،قد عانت من وحشية الصليبيين الشيء الكثير كما راحت الامبراطورية البيزنطية واملاكها ضحية بعض الحملات الصليبية (الحملة الرابعة في مطلع القرن الثالث عشر) وظلت هذه المناطق تئن تحت وطأة الصليبيين اكثر من نصف قرن،فلو كان لهذه الحروب حظ ولو ضئيل من القيم والافكار النبيلة والاهداف الدينية لما صدق عليها ذلك التعبير الذى قاله عنها غليوم الصورى ان الصليبي كان يرى في الشرق - فحسب - عدوه اللدود مسلما كان الشرقي او نصرانيا فقد عامل الصليبيون هؤلاء النصارى كما يعامل الاعداء . صحيح ان بين النصرانية الشرقية وبين حكامها اللاتين رابطة الدين المشترك ولكنها كانت ترتبط كذلك مع اخوانها المسلمين بروابط التاريخ واللغة والعادات . يبدو ان المسيحين الوطنين لم يوفروا الاساس الراسخ للحكم اللاتيني،بل زادوا من مشاكل الافرنج العسكرية ،فقد رفض واغتاظ البطريرك السورى من معاملة

الافرنج له . ويقرر كذلك كل من ميخائيل الصوري،ومؤرخ مجهول،في فقرات متعددة مفادها : ان اللغة المشتركة والجنس المشترك اللذين اشتركا فيهما النصارى العرب السوريون مع الكثير من المسلمين امكن ان يشكلا رابطا أقوى من العقيدة المسيحية التي اشتركا فيها مع الافرنج .

ولقد ذكر المؤرخون والاخباريون الغربيون منهم والشرقيون ان الكراهية كانت متبادلة بين النصارى العرب والمسيحيين الشرقيين عموما وبين المحتلين الغربين الافرنج واللاتين. اي ان الصليبي كان يرى في الشرقي عدوه اللدود،مسلما كان الشرقي أو مسيحيا .

فمنذ وصول اللاتين لاول مرة الى بلاد الشام كان العديد منهم يميلون الى اعتبار كافة المسيحيين حتى اليونانين مهرطقين (اى اصحاب بدع في مفهومنا) وطيلة القرن من عمر الاحتلال الافرنجي كانت هنالك ادلة كثيرة على الكراهية الفطرية المتبادلة والتي كان ثمة مجال لوجودها بين النصارى الشرقين والاوربين الغربين . ولقد اضطر الأرثوذكس لتقديم الطاعة وضريبة العشر الى رجال الكنيسة والمنتمين الى جنس دخيل والممارسين طقوسا مختلفة . لذا يقرر رنيسمان،فلا عجب انه عندما كان صلاح الدين يحاصر القدس عام ١١٨٧ م وعدت الطوائف الارثوذكسية الموجودة داخل الأسوار بتقديم المساعدة له،وانه تلقى تهاني الامبرطور اسحاق انجيلوس عند فتحة للمدينة المقدسة .

واذا ما نظرنا الى الامر بشكل واقعي ومبسط فالمسألة لا تبدو معقدة ولاصعبة خاصة اذا ما وضعنا جملة من الحقائق الثابتة أمام أعيننا . فالنصارى العرب هم عرب اولا وهذه الديار ديارهم حررها اخوانهم العرب المسلمون من المحتلين البيزنطيين القدامى،وبعد ان قاموا بنصيبهم في عملية الفتح،شارك النصارى في بناء دولة الخلافة وفي ازدهار الثقافة العربية الاسلامية،هذه المشاركة التي فتح التسامح الشرع الاسلامي المجال واسعا امامها . وعلى مر الايام والسنين أخذت اعداد من النصارى تدخل في الدين الاسلامي،وهذا أمر طبيعي ومنطقي ، اما الذين بقوا على نصرانيتهم،بقوا في نفس الوقت على ولائهم لوطنهم مشاركين

ابناء مجتمعهم في عمل البناء لاوطانهم .وكما ذكرنا فان النصارى العرب والشرقين عموما بقوا على خلاف وخصومة مع المذاهب الكنسية للاتين والكنيسة الغربية ،لذا ففي ظل دولة اللاتين الفرنجة بدا الخلاف المذهبي أوسع واعمق واوضح . فالنصارى العرب بحكم انتمائهم لوطنهم ولجنسهم ولتاريخهم وللغتهم يرون في اللاتين الفرنجة محتلين غاصبين،فكان انضمامهم لصفوف اخوانهم المسلمين امرا طبيعيا ومنسجما تماما مع منطلقاتهم الروحية والاقتصادية حتى والمذهبية .

اما حال الفرنجة أنفسهم الذين تألفت منهم مملكة بيت المقدس الصليبية (٤٩٢ - ٦٩٠ هـ ١٠٩٩ م -١٢٩١ م)،هذه المملكة التي اعتبرها غروسية اول توسع استعمارى غربي في الشرق العربي الاسلامي،فقد ظلوا غرباء عن البلاد،لم يتعاون معهم الفلاحون الذين يؤلفون غالبية السكان وكثير من اهل الاراضي تركوها،فقل عدد السكان وقل معهم الدخل والانتاجية فضاقت الارض بهم على وسعها ،ذلك ان أعقد المسائل التي واجهت الفرنجة في بلادنا هي نقص القوى البشرية وعدم تعاون السكان أهل البلاد مع المستعمرين،فاحس الفرنجة انهم جسد غريب ضمن المجموع السكاني المتجانس فبالرغم من أنهم ملكوا (الى حين) الارض والمدن بالقوة ،واستمروا بفضل المدد الاجنبي الخارجي يدافعون عن وجودهم وبقائهم لم يستطيعوا اقامة أى جسر واضح من الصلة بينهم وبين أهل البلاد،فما ان انقطع عنهم المدد الخارجي الغربي،من المال والرجال،حتى تقرر مصيرهم وذلك بالجلاء الاجبارى وطردهم من البلاد التي اغتصبوها .

وبعد فهل ثمة وجه مقارنة ما بين غزوة الفرنجة لبلادنا وبين الحركة الصهيونية ودولة اسرائيل المحتلة لارضنا العربية ، ان أشد ما يقض مضاجع الصهاينة هي مقارنة غزوتهم لارضنا واستيطانهم بديارنا ، بالغزوة الفرنجية الصليبية ،ذلك لانهم يعتقدون انهم انما جاءوا ليبقوا وعلينا ان ننس فلسطين والقدس . ولكن،فان الحقيقة الساطعة الاولى التي لايستطيع المتتبع ان يغض الطرف عنها ،هي ان الحملات الصليبية والتي قامت مع نهاية القرن الحادى عشر للميلاد لغزو شرقنا العربي انما هي

اولى المشروعات الاستعمارية الاوربية لاحتلال ارضنا المقدسة ،وكانت هي السابقة البارزة ،التي تقدمت مرحلة الاستعمار الحديثهفضلا عن انها كانت الهاما للتجربة الصهيونية العنصرية ذات الاهداف الاستيطانية في ارضنا.

ومعلوم أن أوربا قبل مايسمى بالاصلاح الديني لم تكن تعتبر اليهود الشعب المختار الذى قدر له ان يعود للارض المقدسة ،بل اكثر من ذلك اذا كان اليهودى مختارا لامر ما فانه اللعنة . فكان اليهود يعتبرون مارقين ويوصمون بانهم قتلة المسيح ولم تكن هناك ذرة من حب عاطفي للتراث العبري،كما لم تكن هنالك بارقة أمل في اعادة بعث اليهود روحيا أو قوميا .

ولم تكن هنالك ايضا أدنى فكرة عن تملك اليهود لفلسطين،كانت الصهيونية غير اليهودية غائبة تماما عن أوربا في العصور الوسطى، وكانت اسرائيل مجرد اسم لديانة . وبالتالي لم يكن استيلاء اليهود على فلسطين لالف عام أمر يدور في أذهان حجاج القرون الوسطى ،حتى قام الاستعمار الغربي الحديث ـ الفرنسي والانجليزى والالماني فبدأ يتكالب على الاستعمار بلادنا ونهبها ... فقامت خدمةلهذا الغرض حملة جديدة تسربلت هي ايضا بلباس الدين عرفت بالحملة الصليبية السلمية ،وبشر بهذه الحملة كثيرون منهم بحاثة في الامور الفلسطينية اسمه توبلر Tobler وقد لاقت الحملة الصليبيةالسلمية هذه انتشاراً واسعا في اوربا خاصة في المانية بين الكاثوليك ففي اجتماع عقد عام ١٨٥٨ م ردد المتحمسون من الاعماق دعاء

((أيها الرب ساعد الارض المقدسة ،حرر القبر المقدس من أيدى الكفار)) ، تماما كالصرخات التي بدأت مع الحملة الصليبة الاولى في اواخر القرن الحادى عشر م وبدا للناس ان استرداد فلسطين وخلاص القبر بات على الابواب فان خيط التاريخ الذي انقطع سنة ١١٨٧م قد أعيد وصله وقال آخر((ينبغي لأزمان الحروب الصليبية أن تعود)) .

وما ان تلاشى بريق الحملة الصليبية السلمية حتى فسحت المحال كفكرة اشد ضررا اعلينا هي فكرة أعادة اليهود Restovation of the jews هذه الفكرة التي وجدت غذائها الفكرى في النظرية الالفية،هذه النظرية التي اخذت اسمها من كلمة خلياس اليونانية Chiliasim بمعنى الالف وتتمحور هذه النظرية حول عودة وتملك المسيح في اورشليم بعد الالف .

ولاقت هذه الدعوة انتشارا واسعا بين الكنائس البروتستانتية في كل من امريكا وانكلترا في حين ان جميع الكنائس الاخرى ترفضها،وقد اصدر الفاتيكان مرسوما عام ١٩٤٤،يدينها ويعتبرها بدعة وهرطقة، وحركة اعادة اليهود تهدف اولا وقبل كل شيء تفريغ فلسطين من اهلها العرب وتسكين المهاجرين اليهود مكانهم،ذلك ان الفلاحين الفلسطينيين سوف يتركون ارضهم لو توفرت لهم ظروف افضل الى بلد اخر كسوريا او بابل مثلا .

وقام تساؤل خبيث مفاده : من سيقع عليه اختيار العناية الالهية. لتكون اعادة اليهود لارض الميعاد على يديه ؟

للحظة ما لمع اسم نابليون بونابرت الذى جاء ارض مصر غازيا ثم زحف بعد ذلك الى فلسطين عام ١٧٩٨ - ١٧٩٩ بانه هو الشخص الذى وقع عليه اختيار العناية الالهية لهذه المهمة . ولكن مع تلاحق الاحداث بدا يتضح باضطراد ان هذا الدور في نظر كثير من المنظرين والدعاة هو نصيب بريطانيا . ((هللي يابريطانيا... هكذا ورد في نشرة خلال حرب القرم فقد اختارك القدر لتعيدى اتباع جنس يهوذا المهمل المشتت)) .

ان المناخ الذى ساعد على ذلك هو انه مع نهاية حرب القرم ازداد نفوذ الدول الاوربية وبخاصة بريطانيا وفرنسا في البلاد العثمانية وانحسر نفوذ روسيا القيصرية حيث ان العثمانين وباحساس من عرفان الجميل نحو فرنسا وبريطانيا لمساعدتهم اياها في حربها ضد الروس قد فتحوا ابواب البلاد امام التغلغل الغربي اقتصاديا وسياسيا .فبدا من الناحية العملية نشاط القناصل الغربيين خاصة القنصل البريطاني (فن) الذى عمل بلا كلل على تقوية الطائفة البروتستنتية لتكون ركيزة بريطانيا ضد الكاثوليك

الذين يعتقد انهم يشكلون ركيزة لفرنسا، واتجه البريطانيون كذلك - وهذا الخطر - الى تبني اليهود وتقويتهم بالترغيب بالهجرة الى فلسطين ارض الميعاد . وكانت تعتبر حماية اليهود جزءاً من مهام القنصل البريطاني، بل وابرز مهامه ... وكان عليه ان يضفي حمايته ورعايته على جميع اليهود سواء أكانوا من الرعايا البريطانيين أم لا ... فبريطانيا العظمى هي الحامي الطبيعي لليهود والبرتستنت .

وقامت مقارنة ما بين الحركة الصهيونية في مطلع القرن العشرين والحملة الصليبية في القرون الوسطى تقول : لم تكن الحملات الصليبية غارات وحشية على فلسطين أدت الى البؤس والدمار بل كانت مملكة القدس نموذجا للحكم العادل والمعتدل كالذى نفخر باننا قدمناه للهند في ظروف مشابهة . ونشرت الصهيونية مقالة بعنوان ((مستعمرات القرن الثاني عشر في فلسطين)) جاءفيها: ان المشكلات التي واجهها المستوطنون الصليبيون ونجحوا في التغلب عليها تشبه من نواح كثيرة تلك المشكلات التي تواجه المستوطنين اليوم في فلسطين، هناك أوجه شبه بارزة في الظروف التي أحاطت بالتجربتين الماضية والحاضرة .

وبكلمة : فالارهاصات الاولى للحركة الصهيونية كانت في المحيط الديني للدول الانجلوساكسونية البروتستانتية التي أتاحت الفرصة للنهضة اليهودية القومية، وشجعت على عودتهم الجماعية الى فلسطين وهي التي فوق ذلك، ابتدأت سجلا جديداً للصهيونية كعنصر مهم في اللاهوت البروتستانتي . هذا اللاهوت الذى أصر على اعادة اكتشاف العهد القديم لتعزيز النزعة اليهودية ومدها بأعظم شيء تفتقده الا وهو الايديولوجيا والتراث والتاريخ .

فالتزوير الصهيوني الحالي للتاريخ الذى يدعي حقا تاريخيا في فلسطين، فانما اكتسب مادتة من اللاهوت البروتستانتي وذلك في التمسك بحرفية الكتاب والعهد القديم خاصة .

فالحركة الصهيونية غير اليهودية هي التي ساعدت اليهود ودفعتهم الى تكوين حركتهم الصهيونية قبل اجتماع بازل ١٨٩٧ م برئاسة

الصهيوني هرتزل .

فمن المستبعد جدا ان يكون اى حل يقدمه الغرب الاستعمارى للمشكلة الفلسطينية عادلا للفلسطينين ما لم يتصد الغرب نفسه ببسالة للطبيعة الحقيقية للصهيونية ويتحرر الغرب أولا من افكارها التي لاشك انهااصبحت راسخة الجذور . حيث تروج الابواق الصهيونية بان العالم يريد تدمير اليهود والرد المعقول الوحيد هو الصهيونية المحاربة المتحفزة باشد الصور.

ان تحرير العالم من الحركة الصهيونية العنصرية هذا التحدي الكبير قد وقع على عاتق العرب فهل هم فاعلون ؟

سؤال يبدو ساذجا أو مكابرا او عنيدا أمام الانتصارات الضخمة التي تحرزها الصهيونية مدعومة من الامبريالية العالمية من جهة وأمام التمزق والتجزئة والخسران والواقع المر العربي من جهة أخرى . واخيرا.. هل كل ماسبق وقلناه هو صورة عن الصراع مابين الشرق والغرب .... ((الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا)) هذا ما قاله الشاعر الانجليزى الفكتورى كبلنج، ولكن الشاعر والكاتب الوطني الاردني ابراهيم العجلوني يزيد : ((لكن ما يقف دون التقائها الانساني الحميم هو هذا الكيد العريض الذى هو رخيص في الوقت نفسه ....))

من ابرز المصادر والمراجع :

١ – ابن الاثير : الكامل في التاريخ دار الكتاب العربي بيروت ط ٦ الجزء الثامن ١٩٨٦
٢ – اسامة بن المنقذ : كتاب الاعتبار بيروت الدار المتحدة ١٩٨١
٣ – ابو شامة : كتاب الروضتين القاهرة ١٩٦٢
٤ – الشارترى فوشيه : تاريخ الحملة الى القدس ترجمة زياد العسلي عمان ١٩٩١
٥ – سيفن ونسمان : تاريخ الحروب الصليبية ترجمة السيد الباز العريني دار الثقافة بيروت ١٩٦٧
٦ – سعيد عاشور : الحركة الصليبية ١ و٢ القاهرة ١٩٨٢
٧ – اسكندر شولتس : تحولات جذرية في فلسطين ترجمة كامل العسلي عمان ١٩٨٨
٨ – ريجينا الشريف : الصهيونية غير اليهودية عالم المعرفة الكويت ١٩٨٥
٩ – زابوروف ميخائيل : الصليبيون في الشرق ترجمة الياس شاهين دار التقدم موسكو ١٩٨٦ ٠
١٠– قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية عالم المعرفة الكويت ١٩٩٠ ٠
١١– صالح الحمارنة : الناس والارض دار الينابيع عمان ١٩٩١ ٠

الصليبيون والفاطميون في ملابسات الموقف على الجبهة الاسلامية في بلاد الشام

الدكتور ابراهيم بيضون «الجامعة اللبنانية»

كان قد مضى وقت طويل ،والقرون تطوي بعضها على ايقاع الهزيمة وأخبار الحروب ما انفكت تملأ السمع وتنتشر على صفحة الوجوه الرمادية وقد حفر فيها الحزن وأزمن اليأس . كانت السياسة محظورة على الخليفة الذي انقطعت أخباره عن النهار .. ولعله لم يعرف أن خليفة آخر قام على أطراف مملكته التي لاتغيب عنها الشمس ،وأن ثالثا تجرأ في الطرف المقابل وأعلن الخلافة . ولو عرف ذلك ،ربما احتج كثيرا ، أوبلغ به الامر خلع نفسه ،لان الخلافة لاتتجزأ ،كون القائم بأمرها خليفة رسول الله ،ولكنه نسي أن للخلافة شروطا ،يجب أن تتوافر فيمن يحمل اسمها والعبء ،وفي أولها حماية الدماء وصيانة الثغور .

ألم يكن الجهاد ماسوغ اعلان الخلافتين : الفاطمية والاموية في المغرب والاندلس .. الاولى ضد البيزنطيين والثانية ضد الاسبان ؟ فالخليفة العباسي تخلى أو أرغم على التخلي عن ركن أساسي في الاسلام الذي يحكم باسمه ،وهو الجهاد ،فتولى دوره الخليفة الفاطمي (المعز لدين الله) الذي كان سبب مجيئه الى مصر ،فيما يرويه المؤرخون هو الجهاد ضد الروم بعد استيلائهم على عدد من الثغور الشامية (1).

واذا كان الخليفة الاموي قد تصدى لهذا الدور ،ولكن في اطار جزئي ،على طرف مفصول عن الخلافة ،فان المعز الفاطمي - بعيدا عن دوافعه الفكرية والصراع السياسي مع العباسيين وكان يطرح نفسه لهذا الدور الذي عجز عن القيام به خليفة بغداد ،المنزوع السلطة والقرار.

لقد أعرض المعز عن الاندلس التي وجد فيها تكاملا مع دولته الصاعدة في المغرب ،بعد أن أخذ المشرق الاسلامي بكل اهتمامه ،في

---

(1)- ابن تغري بردي الاتابكي ،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٤ ص ٧٢ . وزارة الثقافة والارشاد القومي . القاهرة (د . ت).

وقت كانت السلطة في دولة البيزنطيين ،قد انتقلت الى أسرة مشحونة بالروم الطيبية ،وهي الاسرة المقدونية . فاصطدمت هذه الروح بنزعة جهادية بارزة لدى الفاطميين ،بالغة ذروتها في عهد المعز الذي رأى في الجهاد تكريسا لشرعيته في الخلافة ،بعد أن تخاذل العباسيون عنه ،مما أدى الى اهتزاز شرعيتهم لدى المسلمين . وكان الفاطميون قد تنبهوا مبكرا الى أهمية السلاح البحري في الصراع مع البيزنطيين الذين احتفظوا بتفوقهم في هذا المجال ،وصدوا المحاولات التي استهدفت القسطنطينية نتيجة لذلك . وهكذا ترافق نمو القوة البحرية مع قيام دولة للفاطميين ،وتجلت " المهدية " كثغر بحري منيع ،أكثر مما هي عاصمة سياسية أو ادارية . ولقد بدا حينذاك أن الفاطميين كانوا واثقين من السيطرة على البحر المتوسط [1] الذي تحول في أواخر القرن العاشر الى بحيرة فاطمية .

وقد أعاد لويس (أرشيبالد) تراجع الاسطول البيزنطي ،الى تمرد الاجناد البحرية على الامبراطور ،وافتقاده عددا غير قليل من السفن،مما جعل قوة الفاطميين البحرية في سورية ومصر تتفوق تفوقا واضحا على منافستها البيزنطية " [2] واذا أضفنا الى ذلك ، استخدام الفاطميين السلاح النفطي [3] ذلك السلاح الذي تفرد به البيزنطيون وقتا طويلا ،وصدوا بفضله محاولات الاستيلاء على القسطنطينية من جانب العرب المسلمين ،فان الفاطميين قدر لهم في تلك الفترة ، اعادة رسم خطوط الصراع ،ليس فقط على صفحة البحر المتوسط ،حيث حققوا نفوذا هاما ،ولكن على مساحة المنطقة الشامية التي شهدت تجاذبا حادا ، سيؤدي أحيانا الى خلط الاوراق وقلب التحالفات ،في ضوء ماتفرضه

---

(١)ـ ارشيبالد لويس ،القوى البحرية والتجاريةفي حوض البحر المتوسط ترجمة أحمد محمد عيسى . مكتبة النهضةالمصرية (د.ت)ص ٢٥٤

(٢)ـ المرجع السابق ص ٣٢٣

(٣)ـ المرجع السابق ص ٢٤٢

مصالح القوى المتصارعة .

على أن المشروع الفاطمي ،الذي استمد حيويته من التصدي للبيزنطيين وملء الفراغ السياسي في بلاد الشام ،على حساب الخلافة العباسية ،مالبث أن اصطدم بقوة اسلامية جديدة تمثلت بالترك السلاجقة الذين نافسوا الدور الفاطمي في التصدي لخطر التوسع البيزنطي في الشام وبينما شغل الفاطميون في محاولة السيطرة على المنطقة ،وهدروا وقتا في مقارعة القوى المحلية صرفهم عن التفرغ للجهاد ضد البيزنطيين، كانت قوة السلاجقة الفتية ،تخطف الضوء منهم ،وتحقق انتصارا رائدا في هذا المجال ،دون ثمة مايجول في ذلك الوقت ،واستثمار هذا النصر في منطقة النفوذ الفاطمي بالشام .

والواقع أن سنة أربعمائة وثلاث وستين للهجرة ،وهي الموافقة ميلاديا لسنة احدى وسبعين بعد الالف ،ستكون منعطفا بالغ الاهمية في الصراع على بلاد الشام بين الفاطميين والسلاجقة . ففي هذه السنة حقق السلطان السلجوقي (ألب أرسلان) ،نصرا مدويا على الامبراطور البيزنطي(ديجين) في ملاذكرد ،حيث أسر الامبراطور ودمر جيشه . هذا النصر الذي أرسى برأي " ايليسيف " أسس الامبراطورية العثمانية المقبلة (١) . وعلى جبهة الشام ،شن السلاجقة في السنة ذاتها ،حملة على الرملة ،فسقطت في يدهم ،ومنها زحفوا الى بيت المقدس التي سقطت أيضا (٢) ،موجهين ضربة عنيفة للنفوذ الفاطمي في بلاد الشام .

وهكذا يتحول الدور الجهادي لدى القوتين الاسلاميتين، الى دور تقسيمي ،قد لاتستطيع قطف ثماره الدولة البيزنطية الهرمة ،ولكن قوة جديدة ستخترق معادلة الصراع في المنطقة ،وتحقق انتصارات على

---

(١)ـ الشرق الاسلامي الحديث . ترجمة منصور أبو الحسن . مؤسسة دار الكتاب الحديث (د.ت) ص ٣٥٥

(٢)ـ ابن الاثير ،الكامل في التاريخ ـ دارصادر بيروت ١٩٧٩ ج١٠ص٦٨

حساب هذا التمزق الاسلامي بعد نحو ربع قرن فقط ،وهي القوة الصليبية القادمة من الغرب الاوربي . ذلك أن فشل البيزنطيين في العودة الى الشام ،كان أحد أبرز الحوافز لتشكيل الحركة الصليبية ،ومحاولتها تحقيق ماعجز البيزنطيون عن تحقيقه . ولم تكن استغاثة الامبراطور لتهز مشاعر البابوية والامراء الاقطاعيين في أوروبة ،لان العلاقة الفاترة ،الناجمة عن خلافات مذهبية مزمنة ،كانت تحول دون الوصول الى تلك المشاعر ،وليس أدل على ذلك ،ما أنزلته الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٤م) بالقسطنطينية ،لم يكن أقلها الاستيلاء على العرش وكرسي البطريركية الذي كان من نصيب التجار البنادقة ،على الرغم من اشعار البابوية لهذا الانحراف الذي حاد بالحركة الصليبية عن أهدافها (١).

ولكن المؤرخ لايمكنه نفي العلاقة تماما ،بين ماحدث للامبراطور البيزنطي في ملاذكرد ،وبين تسريع الحركة الصليبية لحملتها الاولى على الاقل فقد كان الجو العام في أوربا مهيأ لمثل هذه الحركة التي كانت في طور التكوين العفوي والمباشر . ولعل البابوية كانت الاكثر اهتماما لتوظيف هذه الحادثة ،في اطار مشروعها الذي سارت شوطا فيه . واذا كان لايعنينا التوغل بعيدا في الاحداث الاوروبية لتلك الفترة ،وهي معروفة في كثير من دوافعها والمسوغات ،فانه من الممكن التوقف عند طبيعة الحركة الصليبية ،لارتباط عناصرها بالتطورات التي رافقت توسعها في المشرق أو نتجت عنه . فقد تأسست هذه الحركة بناء على تحالف مثلث ،جمع معا الدين والسياسة والتجارة ، أي أن ثمة غلبة كانت للجانب الدنيوي السياسي ، ممثلا بالاقطاع والمدن الايطالية ،على الجانب الديني الروحي الممثل بالبابوية

---

(١)- باركر ،الحروب الصليبية ،ترجمة السيد الباز العريني - دار النهضة العربية - بيروت ١٩٦٧ ص ١٠٣ - ١٠٤

مما أدى الى خلل في تكوينها ،وشكل عائقا أمام بلوغها النجاح التام دون أن تكون البابوية من جانبها منطلقة من اعتباراتها الدينية فقط ، اذ رأت في السيطرة على بيت المقدس ،تعزيزا لنفوذها الاوروبي أكثر مما هي مسألة دينية ترتبط بأمن الحج المسيحي الى كنيسة القيامة

لقد كانت الصورة متنافرة الالوان ،كما تبدو لنا في الغرب الاوروبي ،ولكن المصلحة قاربت بين الالوان وجمعت الاطراف المتناقضة الى جبهة واحدة ، أو بمعنى آخر ، ان توق البابوية الى أن تكون كلمتها فوق كلمة الملوك ،والى أن يتم لها احتواء الامراء الاقطاعيين ،وسقي هؤلاء الى تحقيق انتصارات يجري توظيفها سياسيا في أوروبة بالنسبة للملوك ، أو سلطويا بالنسبة للاقطاعيين ،عبر تأسيس امارات في المشرق ،فضلا عن الهم التجاري لدى المدن الايطالية ،التي كانت الحركة الصليبية في منظورها ،مشروعا لايتعدى التجارة ،كل ذلك أسهم في توحيد الجبهة الاوروبية ،وجمع كلمتها تحت شعار الصليب .

وكانت في المشرق صورة متنافرة ألوانها أيضا ،ومتزامنة مع تلك التي كانت في الغرب ،ولكن الصورة الشرقية ظلت على تنافرها وتناقضها . ولم يحدث مايقارب بين القوى الاسلامية ،حتى في الوقت الذي دنا فيه الخطر الصليبي من الشام . فقد اتخذ الصراع بين هذه القوى فكريا ،كان أكثر حدة من الصراع السياسي وربما الديني ،مما جعل النفوذ الفاطمي ،القائم على دعوة ودولة في آن ،غير مقبول لدى الغالبية من أهل الشام الذين حافظوا على انتمائهم للخلافة العباسية والدويلات التابعة لها بصورة مباشرة أو غير مباشرة وكان الصراع الفاطمي ـ السلجوقي ،العامل الاكثر خطورة في تضعضع الجبهة الشامية عشية الغزو الصليبي .

واذا كان التاريخ لايكتب بناء على افتراض ماسيحدث ،بل انطلاقا مما حدث ،فانه لو جاز لنا تصور قيام وحدة سلجوقية ـ فاطمية في ذلك الوقت ،لكان من الصعب على الغزو الصليبي أن يخترق بلاد الشام . ولعل باركر جوز لنفسه مثل هذا الافتراض ،مقتبسا عن مؤرخ أوروبي

لم يذكر اسمه هذا القول : أن الصليبيين لو تقدم مجيئهم عشر سنوات أو تأخر قدومهم عشر سنوات ،لقذف بهم المسلمون الى البحر ،وذلـــك بسبب ماكان عليه السلاجقة زمن ملكشاه من القوة والمناعة ،وماكـــان للفاطميين من قوة بحرية وعسكرية ضخمة [1]. ولاشك أن هذا القــول ينطوي على فهم عميق لظروف الجبهة الشامية ،والتناقضات التي باعـدت بين القوى الرئيسية فيها ،وأفقدتها الفرصة التاريخية للقيـــام بواجبها الجهادي ضد الغزو الصليبي . ومن هذا المنظور ،فان كلا مـن السلاجقة والفاطميين ،يقع عليه عبء التقصير ،ويتحمل مسؤولية تضعضع الجبهة ،وبالتالي التسهيل ربما عن غير قصد للتقدم الصليبي في بـلاد الشام .

والواقع أنه كان من المتعذر جدا ،التعايش بين الفاطميــين والسلاجقة ،والانضواء معا في ظل جبهة واحدة . فثمة هوة عميقة تفصل بينهما ،وثمة تناقض حاد ،يجعل مشروع كل منهما متضاربا مـــع الاخر ومنافسا له ،في وقت ربما بدت العلاقة بين كل منهما والعـدو أقل حدة مما هي بين الطرفين الاسلاميين ،على نحو ماحدث من تنسيـق بين الفاطميين والبيزنطيين [2]،في وجه تحالف غير معلق بيــن الصليبيين والسلاجقة . هذا اذا لم نتوقف عند اتصال مشبوه بيــن الفاطميين والصليبيين ،تحت وطأة الهاجس السلجوقي نفسه .فقد روى ابـن الاثير المعروف بتعاطفه مع السلاجقة خبر هذا الاتصال ،ولكن بشيء مـن الارتياب بصحته : " وقيل ـ والكلام لابن الاثير ـ ان أصحاب مصر مـن العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها علـى بلاد الشام الى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهـم..

---

(١)ـ ارنست باركر ،الحروب الصليبية ص ١٥٣

(٢)ـ امين معلوف . الحروب الصليبية كما رآها العرب ترجمة عفيـف دمشقية ـ دار الفارابي ـ بيروت ـ ص ٦٩ .

خافوا وأرسلوا الى الفرنج يدعونهم الى الخروج الى الشام ليملكوه ويكونوا بينهم وبين المسلمين ،والله أعلم (١).

ولكن هذه القوة التي خشيها الفاطميون ،لم تحل بينهم وبين العودة الى بيت المقدس ،مستغلين ضعف السلاجقة وتخاذلهم في الدفاع عن انطاكية ،وهرب صاحبها ياغي سيان(٢) وفقا لرواية ابن الاثير أيضا واذا أضفنا الى ذلك ماكان في الشام من صراع شديد بين الاخوين رضوان (صاحب حلب) ودقاق (صاحب دمشق) ،وهما ابنا تاج الدولة تتش(٣) ،فان الحالة في الشام وصلت الى درك من الفوضى ،لم تعد مجدية في ظلها أية محاولة للوقوف في وجه الزحف الصليبي بعد سقوط انطاكية ولم يشأ الفاطميون اضاعة تلك الفرصة ،وما أصاب الجبهة السلجوقية من ارتباك ،فتقدموا الى بيت المقدس بقيادة الافضل ،وتمكنوا من دخولها بعد نيف وأربعين يوما من الحصار (٤).

وفي ذلك الوقت الذي كانت الجبهة الاسلامية بطرفيها السلجوقي والفاطمي منهكة الى حد كبير ،كانت الجبهة الصليبية في وضع جيد نسبيا خصوصا بعد الاستيلاء اليسير على انطاكية التي كان لسقوطها تأثير سلبي كبير على الروح المعنوية عند المسلمين . ولم يدخر الصليبيون فرصة لاستغلال التناقض الاخذ بالجبهة الاسلامية ،والتآمر عليها ماستطاعوا سبيلا الى ذلك ،ويبدو أنهم أجروا اتصالات مبكرة مع المسلمين ،بعد نزولهم في القسطنطينية(٥) ،ربما تندرج في سياقها دعوة الفاطميين التي مر ذكرها . الا أن ماأورده ابن الاثير،لايدع

(١)ـ الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٢٧٣

(٢)ـ المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٧٥، ٢٨٣

(٣)ـ المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٤٦

(٤)ـ ٤٨٩ هـ المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٨٣

(٥)ـ ستيفن رانسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ترجمة السيد الباز العريني . دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٧ ص ٣٢٥

مجالا للشك بأنها مبادرة منهم (الفاطميون) ،قد يكون الغرض منها - عدا الفصل بينهم وبين السلاجقة - تأخير التقدم الطليبي نحو منطقة النفوذ الفاطمي . ويعتقد رانسيمان أن الامبراطور البيزنطي ،نصح الطليبيين " بأن يسعوا للوصول الى نوع من الاتفاق مع الفاطميين في مصر ، اذ أن الفاطميين كانوا من أشد الناس خصومة للترك ولايقبلون مطلقا مصالحتهم(١) ،حسب قوله .

هكذا اذن تذلل السياسة العوائق ،وتقارب بين المواقف البعيدة حين يجد الامبراطور نفسه - ان صح اعتقاد رانسيمان - محاطا بثلاثة من الاطراف ،لم يكن أقربها (الطليبيون) سوى حليف بالضرورة ،في الوقت الذي يكن لابعدها (السلاجقة) حقدا شديدا ،بينما يصبح الطرف الثالث (الفاطميون) متوسطا بين الاولين ،وتشده اليه مواقف متقاربة من الخطر المشترك . فالسلاجقة هم جوهر المشكلة بالنسبة للطرفين البيزنطي والفاطمي ، اذ استعان الاول بالطليبيين كوسيلة القضاء عليهم ودفع خطرهم عن القسطنطينية ،بينما حاول الاخر موادعة الاثنين للغرض نفسه ،وربما اعتقد الفاطميون أن الطليبيين مجرد مرتزقة (٢) يعملون في خدمة الامبراطور ،واجدين فيهم حالة تشبه حالة "المردة" في العهد الاموي ، الامر الذي سينتهي بهم الى الانسحاب بعد أداء مهمتهم ،أو لعلهم قصدوا (الفاطميون) من اتصالهم بالطليبيين الى تقسيم النفوذ في بلاد الشام ،بحيث تبقى لهم مواقعهم القديمة في الاجزاء الجنوبية منها ،بينما ينتشر الطليبيون في منطقة نفوذ السلاجقة . ولكن نظرية الفاطميين أثبتت خطأها بعد أن تجلت أبعاد الغزو الطليبي كمشروع مستقل عن الدولة البيزنطية .

واذا كان الطليبيون قد وجدوا في الفاطميين ،العدو الاقل خطرا من السلاجقة ،فان صلاتهم مع هؤلاء لم تكن مقطوعة ،دون أن يكون

(١)- تاريخ الحروب الطليبية ص ٣٢٥

(٢)- المرجع نفسه ص ٣٢٦

الهدف منها سوى التضليل والحؤول دون توحيد الجبهة السلجوقية ،لاسيما وأن هذا الاتصال تم خلال حصار انطاكية [١]. ولاشك أن سقوط هذه المدينة المنيعة، أحدث ارتباكا مريعا على جبهة المسلمين بشكل عام كما سبقت الاشارة . وكان السلاجقة الاكثر تأثرا بتلك التطورات السلبية ،حين استشرى الصراع بين السلطانين الاخوين :بركياروق ومحمد [٢] بمثل ماستشرى من قبل بين الاخوين الاخرين : رضوان ودقاق في الشام .

ولعل الوزير الفاطمي (الافضل) ،كان مايزال معتقدا ان الصليبيين مجرد أداة في يد البيزنطيين [٣] ومع ذلك لم يفارقه القلق الذي آخذ يتفاقم بعد سقوط انطاكية وتقدم الصليبيين نحو الجنوب . فلم يكن بوسعه سوى المبادرة الى استعادة بيت المقدس من السلاجقة ،لتدعيم وضعه الدفاعي ،وهي خطوة تمت على الارجح ،نتيجة لتغير النظرة الفاطمية الى الغزو الصليبي ،مما جعل الافضل يتخذ قراره بالتصدي له أو لانه رأى في احتلالها ورقة رابحة في سياق الاتفاق على اعادة رسم النفوذ في المنطقة .

ولعل فشل السلاجقة في صد الغزو الصليبي الذي تكرس بعد سقوط انطاكية ،وقبلها سبع مدن في آسية الصغرى دون مقاومة جدية [٤] فضلا عن سياسة التخويف التي لجأ اليها الصليبيون وعمليات القتل الجماعي ،خصوصا في معرة النعمان [٥]. كل ذلك أدى الى احداث شيء من

---

(١)- ابن الاثير ،الكامل ج ١٠ ص ٢٧٥

(٢)- ابن القلانسي،ذيل تاريخ دمشق . مطبعة الاباء اليسوعيين - بيروت ١٩٠٨ ص ١٣٧.ابن الاثير الكامل ج١٠ ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٣)- أنظرفي هذا السياق أيضا :قاسم عبده قاسم ،ماهية الحروب الصليبية سلسلة عالم المعرفة - الكويت ١٩٩٠ .

(٤)- باركر،الحروب الصليبية ص ٣٥.زابوروف : الصليبيون في الشرق دار التقدم - موسكو ١٩٨٦ ص ١١٩ .

(٥)- ابن القلانسي ،المصدر السابق ص ١٣٦ .

الصدمة لدى الفاطميين الذين كانوا يتعاطفون مع الغزو الصليبي من خلال علاقتهم العدائية بالسلاجقة. ولاشك أن هذه الانتصارات لم تكن ببال الصليبيين، أو على الاقل بمثل هذه السهولة، الامر الذي شجعهم على المضي مباشرة الى بيت المقدس، فنزلوا في الرملة[1] وأخذوا يستعدون فيها لمحاصرة الاخيرة.

وقد يتساءل المؤرخ هنا عن مسؤولية الفاطميين في سقوط بيت المقدس التي تولى الدفاع عنها افتخار الدولة، على الرغم من تعزيز حاميتها وضخها بالجنود. ولكن المدينة لم تكن قادرة على الصمودوقتا طويلا من دون دعم خارجي، مما يجعل الافضل، الوزير الارمني الاصل، في موضع التهمة بالتقصير، اذ وصلت حملته لنجدة المدينة بعد فوات الاوان[1]. ومع ذلك فان سقوط بيت المقدس، لم يكن سهلا، أو تسليما من جانب الحامية الفاطمية، التي صمدت وقتا، وظلت تقاوم حتى تمكن الصليبيون من اختراق السور والسيطرة على المدينة[2]. وقد تحدث ابن الاثير عن هذه المقاومة قائلا: لبث الفرنج في البلدة أسبوعا يقتلون فيه المسلمين، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داوود، فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، فبذل لهم الفرنج الامان، فسلموه اليهم ووفى لهم الفرنج، وخرجوا ليلا الى عسقلان فأقاموا بها[3].

واذا كانت المصادر لاتتفق على هذه الرواية، فانها متفقة على المجزرة التي ارتكبها الصليبيون بعد استيلائهم على بيت المقدس، وهي

(١)ـ ابن القلانسي المصدر نفسه ص ١٣٧.

(٢)ـ سقطت بيت المقدس يوم الجمعة في ١٣ شعبان سنة ٤٩٢هـ حسب ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ القاهرة (د.ت) ج ٥ ص ١٦٤. أو في ٢٢ من الشهر نفسه حسب ابن القلانسي. ص ١٣٧.

(٣)ـ ابن الاثير، الكامل ج ١٠ ص ٢٨٣.

برغم المبالغة في رواية ابن الاثير[1]،كانت من دون شك ،ردة فعـــل على المقاومة الفاطمية ،تلك المقاومة التي لم تنته فصولها باســتلام المدينة اذا كان نزول الافضل في عسقلان ،مبعث قلق بالنسبةللطيبيين، مما يفسر اطلاق بقية المقاومين في محراب داوود ،ربما من بـــاب التودد للافضل ،مخالفين أسلوبهم الدموي الذي تتوج في المجزرة التـــي مر ذكرها . والواقع أن سقوط بيت المقدس لم يكن نهاية المطـــاف للطيبيين ،بقدر ماكان بداية المتاعب التي سرعان ماهبت عليهم مـــن الجبهة الفاطمية . فقد تبين لهؤلاء بعد وقت قصير ،أن انتصاراتهـــم لم يكن وراءها التفوق العسكري ،ولكنها ناتجة عن تفكك الجبهـــــة الاسلامية[2]،التي يبدو أنها استسلمت حينذاك للهزيمة ،باستثنـــاء الطرف الفاطمي الذي بذل محاولات اتسم بعضها بالجدية،لاسترجاع بيـــت المقدس ،ولكنها لم تحقق كثيرا من النجاح . على أنها شكلت سابقـــة مهمة في التصدي للواقع الجديد ،وأوقعت هزة في أوصال الجبهة الاسلامية التي كان لابد لها أن تتحرك بعد وقت .

ولكن هذه الجبهة كانت ماتزال حينذاك غائبة عن ذلك الواقـــع ومنصرفة الى صراعاتها الداخلية التي توّجها حروب الاخوة في العـــراق والشام ولم تجد استغاثة من أسماهم ابن الاثير بـ " المستنفريـــن " الذين وردوا على بغداد ،يتقدمهم قاضي دمشق أبو سعد الهروي بعيـــد سقوط بيت المقدس . فذكروا مادهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال وسبي الحريم والاولاد ونهب الاموال[3]. فلم يكن بوسع الخليفة العباسي ،برغم تأثيره الشديد ،أن يفعل شيئا ،وعـــــاد

---

(١)ـ يروي ابن الاثير أن الفرنج قتلوا في المسجد الاقصى مايزيد على سبعين ألفا من المسلمين . المكان نفسه .

(٢)ـ سعيدعبدالفتاح عاشور،الحركة الطيبيةفي العصورالوسطى ج١ ص ٢٩٠ .

(٣)ـ الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٢٨٤ .

المستنفرون " من غير بلوغ أرب ولاقضاء حاجة" كما يقول المؤرخ نفسه(١) بيد أن مذبحة القدس، كان لها وقع آخر في الشام، تعدى " بكاء العيون ووجع القلوب "(٢). فالمشروع الصليبي وان كان بطيء التنفيذ بعد سقوط بيت المقدس، فهو في صميمه مشروع توسيعي، ولاينفك خطره مهددا بلاد الشام، ساحلها والداخل .

ولعل هذا السقوط الدموي لبيت المقدس، ستكون من نتائجه القريبة اعادة خلط الاوراق في المنطقة، وظهور مايمكن أن نعتبره حالة توحيدية ، أو بداية لها . وثمة مؤشران مبكران في هذا الاتجاه ، أحدهما ورد في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، حين التمس صاحب طرابلس فخر الملك بن عمار، المعونة من دمشق، بعد أن اشتد ضغط الصليبيين على المدينة بقيادة ريمون دي سانجيل (٣). فخرجت حملة بقيادة الامير جناح الدولة، صاحب حمص، لنجدة ابن عمار، سرعان ماتصدى لها الصليبيون وأوقعوا بها هزيمة قاسية(٤). وبعد مرور سنوات ثلاث على هذه الحادثة، تجلى المؤشر الاخر، عندما شن الافضل حملة على الرملة، وطلب المساعدة من أتابك دمشق (طغتكين)الذي أمده بألف وثلاثمائة فارس، حسب رواية ابن الاثير (٥). ولم يكن لهذا الامر أن يحدث سواء بالنسبة لصاحب طرابلس، أو بالنسبة لوزير مصر وكلاهما على خلاف جذري مع السلاجقة وأتابكتهم في الشام، لولا شعورهما بفداحة الخطر الذي يتهدد مصيرهما ومصير المنطقة بكاملها. وسيكون هذان المؤشران نواة التحول الاتي بعد حين، معبرا عنه الاستنهاض الشعبي والسياسي بزعامة الاتابكة الزنكيين في القرن التالي(الثاني عشر الميلادي) .

(١)ـ المكان نفسه
(٢)ـ المكان نفسه
(٣)ـ ابن القلانسي ص ١٤٠ .
(٤)ـ المصدر نفسه ص ١٤٠ ـ ١٤١
(٥)ـ الكامل في التاريخ ج١٠ ـ ص ٣٩٤ .

بيد أن هذا التحول مبني أيضا على تراث الفاطميين في محاولاتهم المتكررة لاسترجاع بين المقدس . ولعل بعض هذه المحاولات حقق من النجاح ماكاد يصل الى تهديد فعلي للدولة اللاتينية ،ومع ذلك يظل الدور الفاطمي لدى غالبية المؤرخين ،مشوبا بالادانة والتقصير،فضلا عن التقليل من أهميته أو طمسه . وهو تقويم ربما ينطوي على بعض الحقيقة أو كثير منها ،لان الفاطميين في النتيجة ــ ومهما كانت الدوافع ــ تقع عليهم مسؤولية سقوط بيت المقدس . ولعله من سوء حظهم ،أنهم استعادوا المدينة من السلاجقة ،عشية الاجتياح الصليبي لها ،فالتصق بهم ماكان سيلتصق بالسلاجقة من اتهام بالتخاذل .. هذا اذا كانت لهؤلاء المؤرخين النظرة الموضوعية ذاتها الى الطرفين ،وهي نظرة كما بدا لم تكن كذلك ، اذ تغافلوا عن تخاذل السلاجقة في مواقع فاقت أهميتها العسكرية بيت المقدس ولم يظهروا مقاومة جدية لعرقلة تقدم الصليبيين نحو الاخيرة . فالسلاجقة في منظورهم جزء من الشرعية الممثلة بالخلافة العباسية التي يقيمون سلطناتهم تحت مظلتها السياسية ،وهي الشرعية نفسها التي انضم اليها معظم المؤرخين ،ممن عاصروا الاحداث أو كتبوا عنها فيما بعد . وفي ضوء هذا التسويغ ، يمكن فهم التغاضي عن تخاذل السلاجقة ،وهذه الادانة لتقصير الفاطميين أو حتى تخاذلهم ،لان وحدة الخلافة ،هي وحدة الاسلام في المنظور الفقهي لهؤلاء المؤرخين ،في وقت كان مايزال التاريخ قريبا من الفقه دون أن تكون هذه الخلافة برأيهم سوى الخلافة العباسية .

واذا كانت الحامية الفاطمية في بيت المقدس ،قد قاومت بضراوة قبل سقوط المدينة ،فان تثاقل الوزير الافضل في نجدتها ،مما يدعو الى التساؤل ،وربما الى الاستغراب ،في وقت يفترض أن وضع الحامية لم يكن خافيا عنه . فلعل الوزير كان يدرك أن ميزان القوى ليس لمصلحته خصوصا بعد التوغل السريع للصليبيين في الشام ،مما جعله يتردد في نجدة بيت المقدس التي كانت شبه ساقطة حينذاك في ظل حاميتها الصغيرة وقد سوغ ابن القلانسي هذا التثاقل . بأن الافضل الذي نزل

في عسقلان ،كان منتظرا لوصول الاسطول في البحر والعرب [1] أي أنه كان يترقب تدخل المدن الساحلية ،وربما نجدة السلاجقة في الشام الا اذا كان المقصود بالعرب هنا ، احدى القبائل التي صادف تحركها في المكان ،وفقا لما أورده مؤرّخ معاصر [2]. ولعل ذكر العرب من باب التمييز لهم عن السلاجقة الاتراك ، اذ شاركت قبائل منهم في القتال ضد الطيبيين ،في المناطق النازلة بها أو المتاخمة لهم. وقد أشار ابن القلانسي أيضا في سياق أحداث السنة الخامسة بعد الخمسمائة للهجرة الى وصول رجالة كثيرة من جبل عاملة " الى صور للدفاع عنها ابان حصار الطيبيين لها ،مع جماعة وافرة من الاتراك ، أرسلها ظهير الدين أتابك دمشق [3].

وثمة من يعتقد أن الافضل كان مطمئنا ،الى أن عمليات الطيبيين لن تتجاوز حدود نفوذ السلاجقة،العدو المشترك للطرفين ،مما جعله يصاب بخيبة أمل كبيرة [4] بعد سقوط بيت المقدس ،ويرسل الى الفرنج منكرا عليهم مافعلوا ويتهددهم حسب قول ابن الاثير [5]. وان صح هذا الاعتقاد ،فهو يعبر عن قصر نظر فادح لدى الافضل ،وعن سذاجة يستبعد أن تصل به الى هذا الحد ،بعد وضوح معالم المشروع الطيبي وغاياته في تلك الفترة ،الا اذا كان الامر تواطؤا منه ،يرمي الى تسهيل وصول الطيبيين الى بيت المقدس ،واعتبار الاخيرة حدا فاصلا بين نفوذ الطرفين . وفي هذه الحالة يمكن تفسير نزوله في عسقلان في ذلك الوقت المتأخر ،بأنه عملية وقائية للحؤول دون توغل

---

(١)ـ ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧

(٢)ـ عاشور : تاريخ الحركة الطيبية ص ٢٩١

(٣)ـ ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٨ .

(٤)ـ عاشور ،المرجع السابق ص ٢٥٥

(٥)ـ الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٢٨٦ .

الطليبيين جنوبا نحو مصـــر [1].

والواقع أن مسألة التواطوً ،برغم تلكوً الافضل تبقى غامضة ،فـي حين يبدو التنسيق مع الطليبيين أقل غموضا ،ولكن من دون تفاصيـــل بشأن رسم الحدود ، ان صح الاعتقاد بحصول مثل هذا الامر . بيـــد أن حسابات الوزير الفاطمي ،سواء كانت مبنية على اتفاق مسبق أو علـــى تقدير خاص ،لم تكن مصيبة في النهاية ، اذ وجد نفسه أمام مواجهـــة حتمية مع الطليبيين ،لم تكن بيت المقدس سوى الهدف المركزي فيهـــا . ولعل موقف الطليبيين في المقابل لايدع مجالا للشك في هذه المسألـــة ، توًكد ذلك سرعة الحركة لاحباط المشروع الفاطمي وابعاد خطره عن بيـــت المقدس . فقد سارعت قياداتهم السياسية والدينية الى الخروج بحملة الى الرملة بعد خمسة أيام [2] فقط من وصول الافضل الى عسقلان ، مما شكل مفاجأة للقوات الفاطمية التي أصابها الارتباك ،وتراجعت مهزومة الى مصر، بينما فرض الطليبيون على عسقلان ضريبة عالية [3]. ولاشك أن هذه المعركـــة التي تندرج في الاسلوب نفسه الذي اعتمدته القوات الطليبية مع السلاجقة اذ كان لعنصر المفاجأة دور بارز فيها أسفرت عن نتائج هامـــة على الصعيدين العسكري والمعنوي في آن . فقد كشفت هذه المعركة ضعـف الدولة الفاطمية التي فتكت بها حينذاك الصراعات الداخلية ،وأظهـــرت عجزها عن متابعة دورها الجهادي الذي تجلى سابقا ضد الخطر البيزنطي

ولعل الفاطميين بات عليهم بعد معركة عسقلان ،أن يكونوا أكثر انفعالا بتلك التطورات ،وأكثر دقة في تقويم نتائج الاحتلال الطليبي

(١)ـ يقول ابن أياس :جاءت الاخبار بأن الفرنج استولو على مدينـــة عكا ونابلس و انقطع الدرب الشامي من السلوك و أشرف الفرنج على أخذ مصر ووصلوا الى العريش ،بدائع الزهور في وقائع الدهور ج١ص ٢٢٤ .

(٢)ـ وصل الافضل في الرابع من آب الى عسقلان ،بينما خرجت الحملـــة الطليبية من بيت المقدس في التاسع منه . عاشور المرجع السابـــق ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦

(٣)ـ ابن القلانسي ص ١٣٧ ، ابن الاثير ج ١٠ ص ٢٨٦

(٤)ـ المصدر نفسه ص ١٤١ .

لبيت المقدس التي كانت ستلحق بها عسقلان . لولا الخلاف بين الطيبيين عليها [1]. فلم تكن هذه المعركة مجرد هزيمة للفاطميين ،بقدر ماكانت تهديدا لنفوذهم في بلاد الشام ،ذلك النفوذ الذي اهتز عمليا في عسقلان ،نقطة التوازن الاخيرة بين الطرفين . وهكذا لم يعد أمام الفاطميين ووزيرهم الافضل ،سوى خيار الحرب التي أخذ يمتد سعيرها في منطقة نفوذهم ، انطلاقا من القاعدة الطيبية في يافا بشكل خاص [2].
وكان سقوط هذا الثغر البحري الهام ،قد مهد للاستيلاء على عدد من المدن الساحلية ،وفي مقدمتها حيفا (٤٩٤ هـ)،ثم أرسوف التي استسلمت من دون قتال وأرغم أهلها على الخروج منها ،وأخيرا في هذه السنة خضعت قيسارية بعد مقاومة عنيفة [3]. ويبدو أن الجنويين قاموا بدور بارز في هذه العمليات البحرية ،لاسيما التي استهدفت أرسوف وقيسارية ونالوا نصيبهم منها لقاء مشاركة اسطولهم ،وهو الحصول على ثلث الغنائم ،وهي في سوق كل من المدينتين [4]. وقد تكرر هذا الشرط من جانب الجنويين ، أثناء حصار طرابلس فيما بعد ففرضوا على ريموند أن يكون لهم الثلث من البلد ومانهب منه [5]

واذا كانت الاحوال الداخلية الصعبة ،قد أعاقت خطط الفاطميين لاسترجاع بيت المقدس ،فان الطيبيين كانوا منهمكين حينذاك في حرب الثغور البحرية التي أصابوا فيها الكثير من النجاح . ولكن هذه المصادر توقفت عند حملة فاطمية صغيرة ،في سياق العام ٤٩٥هـ ،حين خرج ماسمي بالعساكر المصرية لانجاد ولاة الساحل في الثغور الباقية في أيديهم منها على منازليهم من أحزاب الافرنج ووطت

---

(١)ـ عاشور ،المرجع السابق ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨ .

(٢)ـ ابن الاثير ج ١٠ ص ٣٢٤ .

(٣)ـ المصدر نفسه ج ١٠ ص ٣٢٥

(٤)ـ عاشور المرجع السابق ص ٢٩٣ .

(٥)ـ ابن القلانسي ص ١٦٣ .

الى عسقلان(١) التي باتت خط الدفاع الاخير عن بيت المقدس . ولقـــد تداخلت هذه الحملة في بعض أحداثها مع حملة فاطمية أخرى قامت بعد عام منها ،والتي أسفرت عن أسر الملك بلدوين (٢). وقد أورد ابـــن الاثير حادثة الاسر مرتين ،أي في سنتي ٤٩٥ و ٤٩٦ للهجرة ،بينمـــا اقتصر ابن القلانسي على ذكرها في أحداث السنة الاولى ،مشيرا الـــى انتصار الحملة الفاطمية التي ربما كانت واحدة ،للتشابه الواضح فـــي كثير من أحداث ونتائج الحملتين عند ابن الاثير(٣) .

ولكن الحرب الفعلية بين الصليبيين والفاطميين ،بدأت في العـــام التالي (٤٩٦هـ) ،حين أوفد الافضل ـ الذي احتفظ بموقعه بعد وفـــاة الخليفة المستعلي والبيعة لابنه المنصور(٤)ـ حملة لقتال الصليبييـــن في الشام ،بقيادة سعد الدولة(٥). وقد نزلت هذه الحملة في عسقـــلان قبل أن تغادرها نحو بيت المقدس التي سارع الى الخروج منها بلدويـــن على رأس قواته ،وهم على درجة عالية من الحماسة ،فالتقى بيـــن الرملة ويافا ،بالقائد الفاطمي الذي هزم وسقط صريعا عن جواده(٦)بيد أن هزيمة القائد لم تحسم المعركة ،فما لبث الفاطميون أن استعـــادوا زمام المبادرة ،اذ أرسل الافضل ابنه (شرف المعالي) في جمع كثيـــر حسب رواية ابن الاثير(٧)،والتقى بالصليبيين في يازور على مقربـــة من الرملة ،موقعا بهم هزيمة قاسية(٨). وقد طارد القائد الفاطمـــي

(١)ـ ابن القلانسي ص ١٤١ ،ابن الاثير ج ١٠ ص ٣٤٧

(٢)ـ المصدران السابقان ١٤١ ،ج ١٠ ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦

(٣)ـ ابن الاثير ج ١٠ ص ٣٤٦ ، ٣٦٤

(٤)ـ ابن القلانسي ص ١٤١ .

(٥)ـ ابن الاثير ج ١٠ ص ٣٦٤

(٦)ـ المكان نفســـه

(٧)ـ المكان نفســـه

(٨)ـ المكان نفســـه

فلوء الصليبيين الى قصر بالرملة ،حيث تجمع سبعمائةمن أعيانهمومعهم الملك بلدوين . واذ خرج الملك متخفيا الى يافا ،أحكم الفاطميـــون قبضتهم على المحاصرين ،فقتلوا منهم أربعمائة وأسروا الاخريـــن.

وكان من الممكن أن تحدث هذه المعركة ،تعديلا في الموازيـــن لمصلحة الدولة الفاطمية ،لو قدر لها استثمار النصر الباهر ومتابعة التقدم الى بيت المقدس ،أو مايحيط بها من المدن الساحلية لفرض حصـار عليها ،ولكن ذلك كان يفترض تحركا مماثلا من دمشق أو حلـــب ، والتنسيق معا ضد الصليبيين وهو ماكان يحول دونه صراع المدينتيـن من جهة ،وصعوبة اندراجها في جبهة واحدة مع الفاطميين من جهـــة ثانية . وقد روى ابن القلانسي في هذا المجال ،أن الافضل كتب فـــي استدعاء المعونة من العسكر الدمشقي ،فأجيب الى ذلك وعاقت عن مسيـره أسباب حدثت وصوادف صدفت [١]. وفي المقابل لم تكن الدولةالفاطميـة مهيأة للمضي بعيدا في حربها ضد الصليبيين فيظل أوضاعهاالداخلية المعقده ونظامها الذي يسير نحو الانهيار . وقد حال هذا الواقع دون اتخـاذ سياسة واضحة ازاء تغيرات المنطقة ،بحيث يلتبس على المؤرخ الامـر فيما اذا كانت الحملات الفاطمية في تلك السنوات القليلة التي أعقبـت سقوط بيت المقدس ،ترمي الى استعادة هذه المدينة ،أم الى ابعاد الخطر الصليبي عن مصر . فقد كانت السلطة الفعلية في قبضة الافضل ،الرجـل القوي في هذه الدولة ،بينما كان الخليفة (المنصور) مغلوبا علـــى أمره ،مستسلما لوزيره ،منصرفا الى حياته الخاصة [٢]. ومن هـــذا المنظور فان دولة أصابها هذا الاختلال ،وخرجت على تقاليدها التـي جسدها الخلفاء الاوائل ،من المرجح أنها افتقدت في ذلك الوقـــت حوافزها الجهادية تحت قيادة الافضل الذي كانت هواجسه محصورة فـي

---

(١)ــ ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٢ .

(٢)ــ ابن آياس ،بدائع ص ٢٢١ .

الحفاظ على موقعه في السلطة ،هذا الموقع الذي عززته نسبيا حملاتـــه المتكررة ضد الطليبيين ٠

وهكذا بدا موقف الفاطميين مرتبكا ٠ بعد الانتصار في الرملـة ، مما جعلهم يترددون في المسير نحو بيت المقدس ، أو التقدم الى يافـــا للسيطرة عليها ٠ وكانت الانظار على مايبدو متجهة الى هذه المدينـــة الساحلية ،لما تتمتع به من أهمية عسكرية ،ولكن ماحدث على جبهـــة الطليبيين أعاق مثل هذه الخطة ،فقد صادف حينذاك وصول خلق كثيـــر في البحر الى الفرنج ،قاصدين زيارة بيت المقدس حسب رواية ابـــن الاثير[1] ،فوجدها بلدوين سانحة للثأر من هزيمة الرملة ،وقام باعداد حملة مالبث أن نزل بها في عسقلان حيث كان شرف المعالي بانتظاره[2] ولكن كلا من الطرفين تفادى المواجهة ،فانسحب القائد الفاطمي الى مصر بينما تهيب الطليبيون حصانة عسقلان فرحلوا الى يافا[3] ولاينفـــك الموقف الفاطمي مرتبكا ،وتفوته عملية الاختيار المناسبةللانقضـــاض على الطليبيين ،برغم القرار السريع الذي اتخذه الافضل ،بايفـــاد كبير مماليكه (تاج العجم) ،ومعه أربعة آلاف فارس الى عسقـــلان، والقاضي ابن قادوس على رأس قوة بحرية الى يافا[4]. فقد بدا التنافر واضحا بين القائدين ٠ واستنكف تاج العجم عن التنسيق مع ابـــن قادوس ،مما دفع الافضل الى التدخل والقبض على قائد الحملة البريـــة وتعيين قائد آخر (جمال الملك) مكانه بينما اكتفى القاضي بحصار يافا عشرين يوما وعاد أدراجه الى مصر[5].

وهكذا تصاب بالفشل محاولة أخرى من جانب الدولة الفاطميـــة ضد التوسع الطليبي ،في منطقة النفوذ التابعة لها في الشام٠ وقـــد طغى على حركتها الركود في تلك الفترة التي بلغ فيها ضعف الدولـــة

(١)ــ الكامل ج ١٠ ص ٣٦٥ ٠
(٢)ــ المكان نفســـه ٠
(٣)ــ ابن الاثير الكامل ج ١٠ ص ٣٦٥ ٠
(٤)ــ المكان نفســـه
(٥)ــ المكان نفســـه

حدا كبيرا ،دون أن يكون ذلك خافيا على القوات الطيبية [1]،فلجأت الى الافادة من هذا الركود والسيطرة على عكا (٤٩٧هـ)بمساعدة الاسطول الجنوي[2]،بعد مقاومة من قائدها (زهر الدولة)الذي اضطر الى التخلي عنها والتراجع الى مصر ،وفقا لرواية ابن الاثير[3]،بينما يجعل ابن القلانسي تراجعه الى دمشق ،حيث أكرمه أتابكها دقاق[4]. في هذا الوقت كان الموقف على جبهة السلاجقة في الشام ،مضطربا الى حد كبير ،ومأخوذا بالنزاعات الداخلية ، فانصرفت بدورها عن الاهتمام بالتوسع الطيبي . وكانت طرابلس تحت وطأة حصار شديد ،دون أن تحرك معاناتها أحدا من الاتابكة ،برغم مكاتبات فخر الملك بن عمار ورسله من طرابلس ،بالاستصراخ والاستنجاد على الافرنج النازلين عليها [5].

ومن أسوأ ماحدث على هذه الجبهة في تلك الفترة ،أنه بعد وفاة دقاق صاحب دمشق (٤٩٧هـ) ،سيطر أتابكة طغتكين على زمام الامرفيها، فبايع ابنا لدقاق ،ثم بايع عمه ،وعاد فبايع الاول ،بينما قصد الثاني(بكتاش)بعلبك خوفا من طغتكين [6]. ومالبث أن لحق به صاحب بصرى(ايتكين الحلبي) ،فأقاما في حوران وقتا ،حيث انضم اليهما عدد من الانصار ،واتصلا بالملك بلدوين يحرضانه على المسير الى دمشق[7]ولما أبطأ الملك الطيبي ،ذهبا اليه وأقاما عنده مدة[8]دون

---

(١)ـ ابن تغري بردي ،النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٩ .ابن القلانسي ص ١٤٤

(٢)ـ المكان نفسه ص ١٤٤ .

(٣)ـ الكامل ج ١٠ ص ٣٧٣ .

(٤)ـ ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٤

(٥)ـ المصدر نفسه ص ١٤٦ .

(٦)ـ ابن الاثير الكامل ج ١٠ ص ٣٧٦

(٧)ـ ابن القلانسي ص ١٤٤ . أنظر أيضا ابن الاثير ج ١٠ ص ٣٧٦ .

(٨)ـ ابن الاثير ج ١٠ ص ٣٧٦ .

أن ينالا شيئا من وعوده [1]، اذ تهيب بلدوين مجاراتهما في مثل هـذه المغامرة ،التي صرفه عن ركوبها ،ماكانت تتعرض له جبهته الجنوبيـــة من خطر .

وكانت آخر المحاولات الفاطمية ضد الصليبيين ،تلك التي حدثت في العام ٤٩٨ للهجرة (الموافق عام ١١٠٥ ميلادية) ،حين حشد الافضل قوة من خمسة آلاف مقاتل في عسقلان ،بقيادة ابنه الاخر (سناء الملك حسين) [2]. وتأتي أهمية هذه المحاولة في اشتراك سلاجقة الشام لاول مرة الى جانب الفاطميين ،في مقاومة النفوذ الصليبي ، اذ أمدهم طغتكين بألف وثلاثمائة فارس [3]. ويبدو أن صاحب دمشق الذي اغتصب السلطة فيها ،كان يرمي من هذه المساعدة ،الى تحسين صورته أمام المسلمين، وتعزيز وضعه في عاصمته ،ضد خصومه الذين لجأوا الى الصليبيين لتأليبهم عليه . ولكن هذه المبادرة برغم أهميتها جاءت متأخرة ولم تحدث تغييرا جديا في وضع الجبهة الشامية التي ظلت تنخرها الصراعات ،فتحول دون توحيدها ،والانخراط الفعلي في مشروع مضاد للمشروع الصليبي .

ولقد كان بلدوين في يافا ،حين بلغته أنباء الحشود الاسلامية في عسقلان ،فسارمنها في ألف وثلاثمائة فارس وثمانية آلاف راجل [4]. بالاضافة الى جماعة من المسلمين بقيادة بكتاش [5]،الى الرملة ،التي آثر الصليبيون تجميع قواتهم فيها لمواجهة الحملات الفاطمية ، اذ رأوا فيها خطأ دفاعيا هاما عن بيت المقدس ،الى جانب يافا التي شكلت الخط الاول للعاصمة الصليبية . ويبدو أن خطة الحملة الفاطمية

---

(١)ـ ابن القلانسي ص ١٤٥ .

(٢)ـ ابن الاثير ج ١٠ ص ٣٩٤ .

(٣)ـ المكان نفسه . أنظر ابن القلانسي ص ١٤٩ .

(٤)ـ ابن الاثير ج ١٠ ٣٩٥ .

(٥)ـ المكان نفسه .

كانت تهدف هذه المرة الى السيطرة على يافا ،فخرجت باتجاهها من عسقلان معززة بالدعم السلجوقي ،حيث دارت المعركة بين المدينتين[1] وأسفرت عن هزيمة المسلمين ومقتل والي عسقلان ،حسب رواية ابن القلانسي[2]،ولكن ابن الاثير في رواية تلتقي جزئيا مع رواية المؤرخ السابق ،يذكر أن المعركة كانت سجالا ولم تظهر احدى الطائفتين على الاخرى ،فقتل من المسلمين ألف ومائتان ،ومن الفرنج مثلهم [3]، واذا صح ذلك ،فانه يعود الى تكافؤ القوى بين المتحاربين ،مما حمل الفاطميين على التراجع الى عسقلان ،بينما انسحب قائد السلاجقة (حباوة) الى دمشق[4].

وانكفأت بعد ذلك ،القوات الفاطمية ،فلم تقم بعد هذه الحملة بعمليات كبيرة ،مقتصرة على بعض تحركات لاسطولها بين حين وآخر فقد سقطت طرابلس[5]بعد تكتل القوى الطيبية وتدخل الاسطول الجنوي[6]، دون أن يتمكن الاسطول الفاطمي من الوصول اليها بسبب عرقلة السفن المعادية ومعاكسة الرياح له [7]. ولم تلبث الثغور التي كانت ماتزال تقاوم الحصار الطيبي ،آن سقطت تباعا ،فاستسلمت بيروت وجبيل بعد طرابلس ،ثم لحقت بهما صيدا (٥٠٤ هـ) وصور في العام التالي(٥٠٥هـ)[8]

---

(١)- يافا وعسقلان

(٢)- ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٩ .

(٣)- الكامل ج١٠ ص ٣٩٥. ذكر ابن القلانسي أن الذين قتلوا من المسلمين ازاء الذين قتلوا من المشركين ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٩ .

(٤)- ابن الاثير ج ١٠ ص ٣٩٥ .

(٥)- يجعل ابن تغري بردي سقوطها سنة ٥٠٢هـ (النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٧٩) بينما يجعله ابن الاثير سنة ٥٠٣ هـ (الكامل في التاريخ ج١٠ ص ٤٧٥).

(٦)- ابن القلانسي ص ١٦٣ .

(٧)- المكان نفسه ابن تغري بردي ،النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٧٩ .

(٨)- أنظر ابن الاثير ،الكامل ج ١٠ ص ٤٧٥ ، ٤٧٩ ، ٤٨٨ .

مما عزز الجبهة الصليبية في الشام ،وجعل مقاومتها أكثر صعوبة مـــن السنوات الماضية ،حين تفرد الفاطميون أو كادوا لهذه المهمة . ولكن ابن تغري بردي الاتابكي ،يضع مسؤولية انهيار الجبهة الشامية علـى الوزير الافضل،لتقاعسه عن قيادة الجيوش بنفسه (١) ،من غيرآن يشيـــر الى تقاعس السلاجقة ،ربما انطلاقا من روية خاصة ،أو اعتقادا منـــه بأهمية الدور الذي كان باستطاعة الفاطميين القيام به ،لما تمتعـــوا به من قوة بحرية وتجربة مميزة في هذا المجال . ولكن هذه القــــوة باعتراف المورخ نفسه ،كانت قد فقدت أهميتها ،ولم تعد لها تلـــك السيطرة السابقة على مياه البحر(٢). وهكذا يتجاهل المورخ الاتابكـي مسؤولية سلاجقة الشام وأتابكتهم ،ملقيا على الفاطميين وحدهـــــم وزر التقصير ،أو ماوصفه بـ " تقاعدهم عن المسير" (٣)معتبرا ذلك فــي مقدمة الاسباب التي أدت الى تفوق الصليبيين وانتشار نفوذهم فــــي المنطقة . أما السبب الثاني ،فهو " ضعف العسكر الذي أرسلوه مــــع اسطول مصر" (٤). بينما يعود السبب الثالث الى عدم خروج الوزيــــر الافضل بالجيوش ،كما كان يفعل والده بدر الجمالي من قبل (٥).

هذه هي الاسباب الثلاثة برأي المورخ الاتابكي ،لانهيار الجبهـــة الشامية أمام الغزو الصليبي في سنواته الاولى ،وهو رأي يحمل بعـــض الحقيقة أو كثيرا منها ،لان الدولة الفاطمية ،برغم محاولاتهاالمتكررة لاستعادة بيت المقدس ـ ان كان لديها مشروع في هذا السبيل ـ لـــم تحسن التوقيت في تحركها ،للحوول دون وصول الصليبيين الى المدينـــة .

---

(١)ـ النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٩ .

(٢)ـ المكان نفســـه .

(٣)ـ النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٩ .

(٤)ـ المكان نفســـه .

(٥)ـ المكان نفســـه .

كان هذا الخطأ المركزي الذي ارتكبه الفاطميون ،حين تلكؤوا في المسير الى بيت المقدس تاركين حاميتهم الصغيرة أمام مواجهة صعبة وغير متكافئة . أما الخطأ الثاني فقد تجلى في اهمالهم للثغور الساحلية وعدم التنبه لما يمكن أن تقوم به من دور حيوي في حصار بيت المقدس بعد سقوطها ،وعرقلة وصول الامدادات للصليبيين من الخارج فتساقطت الواحدة بعد الاخرى ،من دون تدخل فاعل من الاسطول الفاطمي.

وخلاصة القول أن الدولة الفاطمية التي أرست نفوذها في المشرق الاسلامي في ظل شعار الجهاد ،كسبيل الى تحقيق وحدة الخلافة تحت رايتها ،بعد تقاعس الدولة العباسية عن التصدي للاخطار الخارجية ، كان قد خبا فيها الالق الجهادي ،وركدت الحماسة من أجل الخلافة الواحدة . فقد اصطدمت بسد منيع من جانب القوى الاسلامية المؤيدة للحكم العباسي وانكفأت عشية الغزو الصليبي على ماتحقق لها من نفوذ في الاجزاء الجنوبية من الشام ،دون أن تكون الدولة من الداخل ،بعيدة عن المتاعب التي أخذت تتراكم في ذلك الحين . ولذلك فان جهودها في مقاومة الصليبيين ،لم يكن باعثها الجهاد الذي عبر عنه سابقا ، خليفتها الرابع ،المعز لدين الله ،بقدر ماكانت ترمي الى حماية نظامها المضطرب ودفع الخطر عنه . ولكن مهما كان الاختلاف في تقويم هذا الدور الفاطمي أو حوافزه ،فليس بوسع المؤرخ سوى الاعتراف بما كان له من أهمية في مواجهة الصليبيين وعرقلة تقدمهم نحو الجنوب وليس بوسعه أيضا سوى الاعتراف ،بأنه جسد المقاومة الوحيدة التي تصدت لهم بالمقارنة مع دور السلاجقة الذين تراجعوا عن مدنهم بالقليل من المقاومة (١) ،وطغت أخبار صراعاتهم على أخبار الغزو الصليبي في البلدان الخاضعة لهم .

بيد أن المسألة في النهاية تتجاوز المقارنة ،بعد فشل الدولة

---

(١)_ باركر الحروب الصليبية ص ٣٣ _ ٣٥ .

الفاطمية في تحقيق أهدافها ،الى ضلوع الطرفين في التقصير،والوقـــوع معا في خطأ التقدير للمشروع الصليبي وخطورته ،فالفاطميون ظلـــوا على اعتقادهم ،بأن الحملة الصليبية لاتستهدف سوى السلاجقة،حتـــى فاجأتهم بحصار بيت المقدس،دون أن تكون لديهم معلومات دقيقة عـن وصولها أو حركتها ،دون أن يكونوا في المقابل على أهبة القتال[1] حسب رواية ابن الاثير . والسلاجقة بدورهم وقعوا ضحية تضليـــل الصليبيين ،حين كتب هؤلاء الى صاحبي حلب ودمشق ،بأنهم لايقصـدون غير البلاد التي كانت بيد الروم[2] أي أنهم لن يتعدوا انطاكية،حسب الرواية نفسها . ولم يكن ولاة الثغور الساحلية وأمراؤها،أسوأ ظنـا بالصليبيين من الطرفين السابقين ،فقد نظروا اليهم أيضا باستخفـاف وبحذر أقل من الحذر نحو السلاجقة[3].

وهكذا فاجأ الصليبيون القوى الاسلامية في الشام . وهي على هـذا النحو من الانقسام والعداوة فيما بينها ،من غير أن يدفعها الشعـور بالخطر الى تجاوز خلافاتها ،والتصدي جبهة واحدة لهم . واذا كان قـد حدث تعاون بين أطراف هذه القوى ،فان التعاون كان باهتا ولم يسفـر عن أي تعديل في الموازين التي ما انفكت لمصلحة الجبهة الصليبيـة فلم يستطع الاسطول الفاطمي المعول عليه ،دفع الخطر عن المدن الساحلية التي واجهت مصيرها منفردة أمام ضغط الحصار الصليبي ،فكان يصـل متأخرا ،أو متعللا باعاقة الرياح عن الوصول . وظل السلاجقة في نظـر الفاطميين هم الاعداء ،ولم يكن هؤلاء غير ذلك بالنسبة للسلاجقة الذيـن لم يحركوا ساكنا أمام الزحف الصليبي الى بيت المقدس ،وحملات الفاطميين بعيد سقوط الاخيرة ،واقتصر تدخلهم على مرتين : الاولى ،عندمـا

---

(١)ـ الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٢٨٦ .

(٢)ـ المصدر نفســه ج ١٠ ص ٢٧٥ .

(٣)ـ زابوروف ،الصليبيون في الشرق ص ١٨٩ .

لبى طغتكين دعوة الافضل وأنجده بفرقة الى عسقلان (٥٠٠ هـ)،ربما ردا على انضمام خصميه (بكتاش وايتكين) الى بلدوين كما سبقت الاشارة ،والثانية والاخيرة ،حين حاصر الملك الطيبي صيدا ،التي وصل اليها الاسطول الفاطمي ،في وقت اتجه الى العسكر الدمشقي ،مما حمل الطيبيين على رفع الحصار عنها[1]،وهو استثناء لم يكن ناتجا عن تنسيق أو خطة جدية مشتركة بين الفاطميين والسلاجقة.

واذا كنا نتجنب في الخاتمة ،الخوض في التمنيات بعيدا عن ذلك الواقع الصعب ،من غير أن تأخذنا مقولة التوقيت السابقة ،عن ابكار الطيبيين أو تأخرهم في المجيء الى الشرق ، اذ ربما اتخذت الاحداث مسارها الاخر ،فان التمزق الذي ساد الجبهة الشامية مع قدوم الحملة الطيبية الاولى ،كان من أهم عوامل نجاحها ،وذلك النجاح الذي لم يكن نابعا من قوتها الذاتية ،المنطوية بدورها على انقسام كان يفوق كثيرا انقسام القوى الاسلامية . وقد يكون التساؤل حينئذ ممكنا ،فيما اذا كان مصير هذه الحملة سيختلف عن مصير تلك التي سبقتها وانتهت بها الى التدمير[2]،قبل بلوغها حدود الشام ،لوكانت جبهة الاخيرة على قدرمن الوحدة أو التنسيق .. فلعلها لقيت المصير نفسه ،ولكن ركود المواجهة على جبهة السلاجقة ،وتثاقل الفاطميين في التحرك ،جعلا الطريق شبه مفتوحة أمام هذه الحملة .

فالمسألة اذن هي ضعف الجبهة الاسلامية وانقسامها ،وليست قوة قوة الطيبيين وتفوقهم في الحرب . والصدمة التي كان ينبغيأن تحدث في وقتها المناسب ،تأخر حدوثها بضع عشرات من السنين ،ولكن خارج الشام حين تلقاها أتابكة الموصل الذين يعود اليهم الفضل فياستنهاض المسلمين ،واحياء المقاومة ضد الغزو الطيبي . واذا كان الزنكي

---

(١)ـ ابن القلانسي ص ١٦٢ .

(٢)ـ باركر ،الحروب الطيبية ص ٢٦ .

عماد الدين وأبوه أقسنقر رائدي هذا النهوض ،الهادف الى وحدة الجبهة الاسلامية ،فان نور الدين محمود (ابن الاول) ،هو المجسد لهذه الوحدة التي تم على أساسها تحرير بيت المقدس ،بقيادة صلاح الدين ،بعد خمس وستين من الاعوام[1] على انكفاء آخر حملة للفاطميين عنها .

د. ابراهيم بيضون

أستاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة اللبنانية

(١)ـ ابن الاثير ،الكامل ج ١١ ص٥٤٦ ومابعدها .

المقاومة العربية الإسلامية للتوضع الافرنجي الصليبي

الدكتور شوقي شعث
أمين متحف حلب

لم يشعر البيزنطيون بالخطر الحقيقي على دولتهم ابان الفترة التي حكم فيها الحمدانيون والمرداسيون حلب ،وكذلك ابان حكم الفاطميين لمصر ،فقد كان الحمدانيون زعماء امارة عربية صغيرة لايمكن أن تهدد امبراطوريتهم الكبيرة وظل الامر بينهما مقتصرا على غزوات كر وفر وكذلك ابان الحكم المرداسي ،ولم يحدث أي تغيير ملموس في الحدود أو أي اخلال في موازين القوى . أما مصر ابان الحكم الفاطمي وان نافست الدولة البيزنطية في أول أمرها على امتلاك بلاد الشام أو جعلها اماراتها تقدم لها الولاء كما فعل الحمدانيون والمرداسيون بحلب وآل الجراح بفلسطين أو غيرها فقد اختلف الامر فيما بعد وكانت أعمالهم صرفا لانظار الناس عن الاوضاع الداخلية فيها فقد أجهدها الوضع الداخلي بسبب تقلب الخلفاء والوزراء ،وفي بعض الاحيان اشتركت الطبيعة في تعقيد الامر فقد حل القحط أو حدث زلزال مدمر .. الخ .

كانت هزيمة البيزنطيين في منازكرد عام ١٠٧١م على يد الب ارسلان السلجوقي الخطر الحقيقي الذي أحسو به حيث حلت بهم هزيمة تعتبر من أقسى الهزائم منذ أسر امبراطورهم وتقدمت الجيوش السلجوقية في أراضيهم حتى كادت تهدد العاصمة نفسها ،فارتفعت الاصوات مستنجدة بالغرب لمساعدتها في صد المسلمين الذين أخذوا يهددونها فجرت مكاتبات بين الامبراطور البيزنطي والبابا الكاثوليكي بهذا المعنى .

وعلى الرغم من أن السلاجقة مالوا الى الاتفاق مع الامبراطورية البيزنطية قبل الهزيمة التي أشرنا اليها ليتفرغوا لمحاربة الفاطميين الا أن البيزنطيين فسروا رغبة السلاجقة هذه بأنها ضعف وأن الفرصة قد حانت لضربهم والتخلص منهم فكان رد الامبراطور البيزنطي على السلاجقة قاسيا وخشنا فقد قال في رده " لاهدنة الا بالري " مشيرا بذلك الى مدينة الري . فتوترت الاجواء بين الطرفين حيث كان لزاما

على السلاجقة رد ذلك التحدي وأخذ كل منهم يعد نفسه للمعركة فكانت معركة مانزكرت التي أشرنا اليها سابقا وأسر الامبراطور رومانس الرابع ديوجنيس .

اذن فتحت هذه المعركة كما قلنا أبواب آسيا الصغرى للسلاجقة فأخذوا يوسعون ممتلكاتهم على حساب الاراضي البيزنطية فاستولى سليمان بن قتلمش على الكثير منها وتوج ذلك باستيلائه على انطاكية عام ٤٧٧ هـ /١٠٨٥م ،ناهيك عن الاراضي التي استولى عليها الامراء الاقل شأنا من سليمان ،ومن بينهما قلاع ومدن هامة ومن بين أولئك الدانشمند وشاكا ويخوشك وغيرهم فكان لابد والحالة هذه أن يعمد الامبراطور البيزنطي الكيكومسينوس الى الاستنجاد بالغرب المسيحي على ما أسلفناه .

وجدت الكنيسة الكاثوليكية فرصتها للذهاب الى الشرق من أحل توحيد الكنيسة تحت شعار نجدة البيزنطيين الارثوذكس ضد المسلمين ،سنة وشيعة ،ولانريد هنا أن ندخل في تفاصيل الاسباب التي دفعت الافرنج للقيام بنجدتهم للبيزنطيين ،فاتحين بذلك حروبا عرفت فيما بعد بالحروب الصليبية واستمرت قرابة مئتي عام ،لقد كان لكل من المشاركين في تلك الحروب دوافعه فالامير يريد أن يجد له ملكا في بلاد الشرق والتاجر يريد أن ينمي ثروته والكنيسة لها أسبابها فتارة تريد أن تكون الطريق الى القدس الطريق الى الحج . آمنة وتخفي أسبابا أخرى أشرنا اليها ،على أي حال وجدت دعوة البابا أوربان الثاني عام ١٠١٥ في كليرمون آثر انتهاء مجمع كنسي آذانا صاغية وهوى في نفوس أولئك الناس ،فتحركت كوامن الحقد في نفوسهم ضد الشرق العربي المسلم وأخذوا يدفعون الفلاحين والفقراء الى الاشتراك في تلك الحروب تحت راية الصليب تقربا لله وابتغاء مرضاته ؟!! .

وتصادف أنه سبق هذه الدعوة بقليل وفاة السلطان السلجوقي ملكشاه الذي كان زعيم القوة الاسلامية الكبرى في الشرق ،ويظهر أن هذا كان سببا وجيها جعل الافرنج يسيرون قدما في مشروعهم الرامي لغزو

الشرق ،لقد ورث هذا السلطان أبناءه امبراطورية مترامية الاطراف ولكنه في الوقت نفسه ورث العالم الاسلامي أبناء لم يستطيعوا المحافظة على تلك الامبراطورية بسبب خلافاتهم الداخلية فقد أعمت بصائرهم مصالحهم الشخصية وضللوا الطريق القويم ،ونشبت الحروب بينهم ولم يتبصروا عواقبها على الامبراطورية التي بذل أجدادهم الكثير في تكوينها ،وفي وسط هذه الاضطرابات والمنازعات الاخوية التي شملت بلاد الشام ظهر الخطر الصليبي .

جاءت الحملة الصليبية الاولى عام ١٠١٧ والبلاد العربية الاسلامية في حال لاتسر فقد تحولت آسيا الغربية الى دويلات وامارات مستقلة متنازعة فيما بينها وفي مصر كان الفاطميون وهذا ماجعل البلاد تحت وطأة الخلاف بين السنة والشيعة ،وهناك آل عمار العرب في طرابلس منذ عام ١٠٦٩ وكانت شيزر بيد آل منقذ ،وعلى الرغم من شجاعة المدافعين عن البلاد الاسلامية حقق المعتدون نجاحات كانت السبب في مواصلة التوضع الصليبي الافرنجي .

عندما رأى الامبراطور البيزنطي الاستجابة العارمة لدعوته التي لم يتوقعها بدأ يتخوف من تلك الجموع الصليبية الكبيرة التي بدأتتفد الى عاصمته بيزنطة ،عمد الى كسب ودها ودفعها بما أمكن من السرعة تخلصا من بقائها في عاصمته الى الشرق حيث أحرزت نجاحات كبيرة في القضاء على الامارات العربية الاسلامية واحدة تلو الاخرى واغتصبت نيقية المركز الهام والتي كانت عاصمة السلاجقة الروم وعلى الرغم من أن سقوط هذه المدينة في أيدي القوات الصليبية والبيزنطية كان صدمة كبيرة ونذيرا لجميع القوى الاسلامية الا أنها أي القوى الاسلامية ضربت صفحا عن ذلك النذير بسبب الشك والريبة والضغائن التي كانت قائمة بينها .

بعد أخذ نيقية توجهت جيوش الافرنج نحو انطاكية ،وسار بلدوين وتنكرد وهما زعيمان بارزان في الحركة الصليبية شرقا حيث استطاع بلدوين في نهاية الامر أن يأخذ الرها أثر مؤامرة ساعد على تدبيرها

هو ضد حاكمها ،ويؤسس الامارة الصليبية الاولى في الشرق امارة الرها وقد لعبت هذه الامارة دورا كبيرا في حماية خلفية الافرنج المتجهين الى القدس . وفي تشرين الاول عام ١٠٩٧ وصل الجيش الذي توجه الى انطاكية وفرض حصاره عليها . وعلى الرغم من المقاومة العنيدة التي أبدتها الحامية الاسلامية بالمدينة ومحاولة فك الحصار عنها بواسطة جيش كان يقوده كربوقا ،الا أنه لم ينجح في مسعاه ،وعلى الرغم من معاناة الافرنج من طول مدة الحصار وانتشار المجاعة الا أن قائد حامية القلعة أحمد بن مروان اضطر في نهاية الامر الى أن يسلم القلعة للافرنج وهكذا قامت الامارة الصليبية الثانية على أرض المشرق العربي في مطلع عام ١٠٩٩ .

ومما أكد تفرق القوى الاسلامية في مواجهة الافرنج ماقام به الافضل بن بدر الدين الجمالي وزير الخليفة الفاطمي المستعلي فقد أرسل هذا الوزير من يفاوض الافرنج على اقتسام سورية وذلك ردا على أخذ السلاجقة اتباع الخلافة العباسية ممتلكات الخلافة الفاطمية بسوريا ولكن تلك المحاولة لم تنجح حيث أخذ الافرنج يماطلون ويداهنون بارسال رسلهم الى القاهرة ولما يئس الفاطميون بادروا الى أخذ فلسطين والقدس من السلاجقة عام ٤٩٢ هـ/١٠٩٩ م. وفي الوقت نفسه كان الافرنج من طرفهم يرسلون السفراء الى صاحب حلب ودمشق وغيرهم من الحكام يطمئنونهم بأنهم لايرغبون في ممتلكاتهم وأنهم لايرغبون الا في القدس .

باحتلال مدينة انطاكية وتأسيس الامارة الصليبية فيها يكون الافرنج قد نجحوا في تأسيس امارتين هما الرها وانطاكية ولكن هاتين الامارتين لم تكونا الهدف الاول للحروب الصليبية فاندفعت الجيوش الصليبية نحو القدس وهي غايتها الاولى حسبما ورد في خطبة البابا أوربان الثاني ، اندفعت في طريقين طريق داخلي تمكن السائرون عليه من اغتصاب معرة النعمان واحراقها بعد ذلك هبط هذا القسم من الجيش نحو وادي العاصي وأخذ قلعة الحصن وحاصر عرقة التي كانت

تابعة لال عمار أمراء طرابلس • أما الطريق الثاني فكان الطريق الساحلي نحو جبلة وطرطوس وعندما اقترب الجيش من طرابلس سارع آل عمار لمهادنة الافرنج وتقديم الهدايا لهم وكذلك المؤن والاموال وكافأهما الافرنج بأن رفعوا الحصار عن عرقة التي كانت تابعة لها كما ذكرنا وفعل أمير بيروت الشيء الذي فعله آل عمال بطرابلس • وصل الافرنج صيدا وبعد استراحة قصيرة في بساتينها تابعوا المسير حتى وصلوا الى عكا وبعدها توجهوا الى هدفهم القدس الشريف التي كانت تحت سيطرة الفاطميين كما أسلفنا واستطاعوا بعد شهر من الزمان أو خمسة أسابيع عند بعض الباحثين الدخول الى المدينة والفتك بأهلها وتدنيس مقدساتهم الاسلامية والمسيحية على حد سواء ويسهب المؤرخون الافرنج والعرب في وصف الفظائع التي ارتكبها الافرنج الصليبيون في القدس وعليه تكون الحملة الصليبية الاولى باغتصاب القدس في ١٥ تموز عام ١٠٩٩ قد حققت هدفها وأخذ التوضع الصليبي في المشرق يأخذ شكله •

نصب غورفري نفسه حاكما على القدس تحت اسم حامي القبر المقدس وعندما اضطر الى ترك القدس ليخلف عمه في امارة انطاكية استدعي بلدوين أمير الرها وهو أخ غودفري ليصبح ملكا على القدس عام ١١٠٠م تألفت تلك المملكة من مدن يافا واللد والرملة وبيت لحم والخليل والريف المحيط بها والذي تسكنه أكثرية مسلمة حيث كانت تلك الممكلة في حاجة الى قوة بشرية لتثبيت أركانها فقد كانت الارض بحاجة الى آيد عاملة كما كانت معظم الموانيء لاتزال في ذلك الوقت بأيدي المسلمين ويتحدث فوشيه دي شارتر عن ذلك بقوله • وفي بداية حكم بلدوين كان يمتلك مدنا قليلة ويحكم شعبا صغيرا ••• ولهذا السبب بقيت أرض بيت المقدس فقيرة في السكان ولم يكن هناك من الناس مايكفي للدفاع عنها ضد المسلمين •

ـ آل عمار والافرنج الصليبيين :

كانت امارة طرابلس تعتبر من أهم الامارات العربية التي ظلت واقعة بين الامارات الصليبية وكان أميرها القاضي فخر الملك أبوعلي

يؤثر المهادنة والسلام مع الافرنج وكان جيشه صغيرا الا أن الامارة كانت غنية بانتاجها الزراعي وصناعاتها ،وقد المحنا في ثنايا حديثنا كيف أن امارة طرابلس زودت الحملة الصليبية الاولى في تقدمها نحو القدس بالمؤن والهدايا ، الا أن الافرنج بعد اغتشابهم القدس عادوا لتحقيق هدفهم وهو احتلال طرابلس سيما وأن هذه الامارة استفادت من رحيل الافرنج جنوبا حيث وسعت رقعتها شمالا حتى طرطوس ، أما جبلة التي تقع شمال طرطوس فكانت بيد زعيم محلي هو القاضي ابن صليحة الذي تنازل عنها عام ١١٠١ الى طغتكين آتابك دقاق أمير دمشق ثم انتقلت الى بني عمار وكان بنو محرز في المرقب والقدموس ،وكان خلف بن ملاعب في أفاميا وبنو منقذ في شيزر وجناح الدولة آتابك رضوان أمير حلب في حمص ... الخ .

كانت امارة طرابلس على ضوء ذلك أهم تلك الامارات ومن الطبيعي أن يسعى الافرنج لاغتصابها فعمد ريمون الى محاصرتها عام ١١٠٢ ،فاستنجد أميرها فخر الملك بأمير حمص وأمير دمشق فأرسل دقاق الفين من فرسانه وأرسل جناح الدولة مايزيد عن هذا العدد بكثير ،وعلى الرغم من أن ريمون قد أحرز نصرا جزئيا على الجيش الاسلامي الا أنه لم يتمكن من احتلال مدينة طرابلس واضطر للعودة الى طرطوس لاعداد خططه من جديد . استأجر في هذه المرة أي في هجومه الجديد على طرابلس اسطولا جنويا قد وصل لتوه الى ميناء اللاذقية مؤلفا من أربعين سفينة الا أنه أيضا لن يتمكن من تحقيق أمنيته . فظل مثابرا على وضع الخطط للاستحواذ على تلك العروس الجميلة الغنية ومن أجل ذلك عمد في أواخر عام ١١٠٣ الى بناء قلعة على تل الحاج الواقع قبالة طرابلس واستقر فيها بعد اكتمالها عام ١١٠٤ ، الا أن المنية عاجلته وتوفي عام ١١٠٥ ،وعليه لم يتمكن من تحقيق الامنية التي سعى اليها وبذل من أجلها الكثير وترك تحقيق هذا المشروع لعقبه .

واصل وليم جوردان خليفة ريمون سياسته فشدد الحصار على مدينة طرابلس وحافظ على التحالف الذي كان قد عقده ريمون مع الدولة

البيزنطية من أجل ارسال المؤن والعتاد وأكثر من ذلك ساعدت القوات البيزنطية في فرض الحصار على طرابلس وقطع الامدادات عنها فتحرج موقف أميرها بسبب غلاء الاسعار وانتشار المجاعة وشرع أهل المدينة في الهرب الى المناطق المجاورة تخلصا من تلك الضائقة على الرغم من أن الامير بذل الاموال والمؤن من أجل تخفيف تلك الضائقة ،ومما زاد الوضع تحرجا هروب بعض أعيان المدينة من الخونة الى المعسكر الافرنجي وباحوا بمواطن الضعف في دفاعات المدينة وعندما طلبهما الامير من الافرنج رفضوا تسليمهما وفيما بعد وجدا مقتولين في المعسكر الافرنجي •

ضاقت الاحوال كما أسلفنا بالامير فخر الملك وفكر طويلا بمن يستنجد من القوى الاسلامية آنذاك : أيتجه الى الفاطميين الطامعين في امارته أم يولي وجهه الى طغتكين صاحب دمشق الذي كانت علاقته غير ودية معه ،وأخيرا هداه تفكيره الى التوجه الى بغداد للاستنجاد بالخليفة العباسي والسلطان محمد السلجوقي ،وقد وجد هناك استقبالا حارا الا أنه عاد بخفي حنين وعندما عاد علم في طريق عودته أن طرابلس ألحقت بالدولة الفاطمية بطلب من ابن عمه ونائبه أبي المناقب بن عمار فاتجه صوب جبلة واستقر فيها الا أن حكمه لم يدم طويلا هناك فقد ظهر تانكريد عام ١١٠٩ أمام المدينة طالبا الاستيلاء عليها فسلمها اليه فخر الملك وبقي فيها تابعا لتنكريد الا أن تانكريد نكث العهد وأجبر الامير فخر الملك على ترك المدينة الى دمشق حيث أمضى بقية حياته هناك يعيش من مال أجراه عليه طغتكين أو من الاقطاع الذي أقطعه اياه في منطقة الزبداني •

بقي أن نذكر أن طرابلس لم تكن لقمة سائغة للافرنج فقد أظهرت ضروبا من المقاومة على الرغم من المجاعة التي حلت بها بسبب الحصار الذي فرضه اسطولا جنوه وبروفانس وبسبب تخاذل الاسطول الفاطمي عن انجادها فلابد والحالة هذه أن يجبروا ليها الفاطمي شرف الدولة من أن يسلم المدينة الى بلدوين بموجب شروط فقد أعطى الامان الى أهلها فمن أراد الخروج من المدينة حاملا أمتعته فله ذلك ومن أراد البقاء فله ذلك شريطة أن يقبل الرعوية الافرنجية أما الوالي

الفاطمي فطلب الاذن بالرحيل الى دمشق وهكذا سقطت بيد الافرنج قلعة من قلاع العرب والمسلمين وانتهت أسرة بني عمار فيها ومن المؤسف أن المدينة بعد إحتلالها تعرضت للنهب والسرقة والحرق وتعرض مابقي من أهلها الى القتل والاهانة .

هنا يمكن القول أن الحملة الصليبية الاولى انتهت بتأسيس امارات الرها وانطاكية وكانتية طرابلس ومملكة بيت المقدس، كما أصبحت أكثر المدن الساحلية بيدهم ولم يبق بيد المسلمين الا بعض المدن الداخلية ومن أهمها دمشق وحلب وبذا أصبحت البلاد الشامية تئن تحت ما أصابها من ذلة على أيدي الافرنج الصليبين ،كما كان المصريون يتلقون باستمرار تهديد الافرنج بقلوب واهنة بسبب مابلغه الخلفاء من ضعف

ـ مقاومة العرب والمسلمين للتوضع الصليبي :

على الرغم من النجاح الذي حققه الافرنج في بداية غزوهم الى البلاد العربية الاسلامية ذلك بتأسيس امارتي الرها وانطاكية ومملكة بيت المقدس وفيما بعد كونتية طرابلس الا أن العرب والمسلمين وعلى الرغم من تفرق كلمتهم لم يستسلموا ولم تهدأ مقاومتهم للخطر الذي جثم فوق أرضهم ،ففي شمال سورية نجح السلاجقة في أسر بوهيموند ، وبلدوين أمير الرها في فترة من الفترات كما أوقعوا بالافرنج هزيمة منكرة في حران ،وفي الجنوب حاول الفاطميون استرداد ممتلكاتهم التي فقدوها فشنوا عدة حملات ضد الافرنج الصليبيين في سنوات ١١٠١ و ١١٠٢و ١١٠٥ ونجحوا في أخذ طرابلس وقد كلفت تلك الحملات الافرنج الكثير من الرجال والاموال .

جاءت بعد ذلك دعوة العامة التي يمكن أن نسميها المقاومة الشعبية والتي كان مركزها حلب حيث رفعت صوتها عاليا مطالبة بتحرير البلاد وازالة الاخطار التي تهددها فقد ذهب وفد منهم الى بغداد شاكيا الامير رضوان متهما اياه بالزيغ والانحراف والانقياد الى تانكريد مطالبا الخليفة العباسي باعلان الجهاد لتخليصهم مما يتعرضون له من تهديد من قبل الافرنج ،وكي يمتص نقمتهم أمر الخليفة والسلطان

السلجوقي بتجهيز جيش عام ١١١١م لقتال الافرنج أسندت قيادته الى مودود أمير الموصل الا أن الحلبيين سرعان ما اكتشفوا الخديعة وأثاروا العامة ببغداد ضد الخليفة المستظهر بالله الذين نادوا باتهامه بالتواطؤ وأنه أبغض عند المسلمين من الامبراطور البيزنطي . وعندما شعر الخليفة والسلاجقة بتفاقم الامور طلبوا من مودود بأن يسعى الى تكوين حلف اسلامي تكون القيادة الاسمية فيه الى الامير مسعود بن السلطان محمد السلجوقي ،دخل في ذلك الحلف : سكمان أمير ميارفارقين ايلغازي بن آياز صاحب ماردين ،وأحمديل صاحب مراغة وأبو الهيجاء وصاحب اربيل اضافة الى بعض أمراء فارس بزعامة برسق بن برسق أمير همدان .

سارع الامراء المسلمين الى طلب النجدة من هذا الحلف وعلى رأسهم سلطان أمير شيزر ورضوان أمير حلب ،ويبدو أن رضوان لم يكن صادقا في طلب النجدة لانه عندما علم بتوجه قوات الحلف الذي أشرنا اليه غربا سارع الى اغلاق أبواب حلب ومنع المظاهرات بها وأمر باعتقال عدد كبير من أعيانها عند ذلك توجه مودود الى شيزر بعد أن خرب القرى المحيطة بحلب ،وهناك لحق به طغتكين أتابك دمشق للمساعدة في استعادة طرابلس التي سبق أن أخذها الافرنج من الفاطميين . الا أن الامور لم تجر على هوى مودود فطغتكين يريد أن يخلص طرابلس ،ومرض برسق وأراد أن يعود الى بلاده ،ومات سكمان فجأة وانسحبت قواته شمالا حاملة جثمانه ،وانسحب أحمديل من جيش مودود أمير الموصل وهكذا انفرط عقد الحلف الاسلامي الذي أشرنا اليه وتراجع مودود بجيشه الى عاصمته . وفي عام ١١١٢ عاد مودود الى الاغارة على بلاد الرها ولكن هذه الغارة لم تثمر الثمرة المرجوة وفي عام ١١١٣ لبى مودود نداء طغتكين أتابك دمشق ومعه أياز الارتقي لصد عدوان الملك بلدوين على دمشق فدارت الدائرة على جيش الافرنج عند جسر الصنبرة بجنوب دمشق ،الا أن مودود اغتيل على يد أحد الباطنية بجامع دمشق الكبير وبعد شهرين توفي رضوان أمير حلب الذي كان يقدم الدعم والحماية للباطنية .

خلف أقسنقر البرسقي مودودا في قتال الافرنج وحاول اقامة حلف اسلامي جديد لطرد الافرنج الا أن عناصر الحلف اختلفت فيمابينها حتى أنه حدث قتال بين بعض أطرافه كذلك الذي حدث بين ايلغازي زعيم التركمان وبيم أقسنقر البرسقي فدارت الدائرة على أقسنقر وقفل راجعا الى عاصمته الموصل وبهذا فشل التحالف المعادي للافرنج للمرة الثانية .

عادت حركة الجهاز ضد الافرنج عام ١١١٥م من جديد ،فقد أرسل السلطان السلجوقي محمد ، آخر السلاجقة العظام ،برسق بن برسق على رأس حملة يسانده أمير سنجار وبقدر ما أخافت هذه الحملة الافرنج آخافت الامراء المسلمين في بلاد الشام فكان كلهم ،فيما عدا بني منقذ،وابن قراجا أمير حمص لايرغبون في قدوم قوات السلطان السلجوقي خوفا من ضم سوريا الى العراق ومن أجل الوقوف أمام ذلك الخطر سارع الايلغازي الارتقي الى دمشق لعقد تحالف مع طغتكين أتابك دمشق ،الا أن ابن قراجا أمير حمص القى القبض عليه في طريق عودته ولم يطلق سراحه الا بعد أن حل ولده اياز مكانه في السجن ،لكن هذه الحادثة لم تفك ارتباط ايلغازي بحليفه طغتكين بل تعزز الحلف بانضمام الطواشي لؤلؤ الوصي على الب ارسلان ابن أمير حلب وبادر الجميع الى التحالف مع روجر أمير انطاكية لمواجهة الجيش السلجوقي .

وعندما علم برسق بذلك التحالف سار جنوبا نحو دمشق لقتال طغتكين وبفضل مساعدة أمير حمص قام برسق بهجوم على حماة وأخذها منه أي من طغتكين في حركة تكتيكية انكفأ برسق نحو الجزيرة فاعتقد الافرنج وحلفاؤهم من المسلمين أنه عاد الى بلاده وبذلك زال خطره عنهم الا أن برسق عاد فجأة وأخذ كفر طاب وسلمها الى بني منقذ وقدم له الطواشي لؤلؤ الولاء والاعتذار . لم يهنأ برسق بنصره فسرعان ما أوقع به الافرنج هزيمة منكرة عند تل دانيث (دينيت اليوم) بتواطؤ الامراء المسلمين وأفلت برسق بأعجوبة من الاسر بعد أن تبدد جيشه . وبهذه الهزيمة انتهت محاولات السلاطين السلاجقة لاستعادة بلاد الشام.

بعد معركة تل دانيث ظهر أن التوازن بين القوى الاسلامية والافرنجية قد حصل فمال الافرنج الى الاستقرار في شمال سوريا وأخذوا يبنون الاستحكامات وبدوّوا يكيفون أنفسهم للعيش على النمط المحلي وساد الوئام فيما بينهم فلم يعترض مثلا أحد على سيادة روجر أمير انطاكيا خاصة بلدوين أمير الرها أو بونز كونت طرابلس ،كما اعترف الجميع بسيادة بلدوين ملك بيت المقدس ،وفي الوقت نفسه تحالفوا مع طغتكين أتابك دمشق وانصاره ،ناهيك عن تنابذ القوى الاسلامية الاخرى وعليه لم تكن أية قوة خارجية في هذه الفترة قادرة على قلب هذا التوازن سواء من البيزنطيين أو من سلاجقة الروم في الشمال الغربي أو من الفاطميين في الجنوب ،ولكن يبدو أن هذا التوزان كان توازنا موّقتا فقد شعر طغتكين أن قوة الافرنج أخذت تتزايد فبادر للاتصال بالفاطميين بمصر لتقديم المساعدة له كي يتمكن من الوقوف في وجه الافرنج وقد وجد هذا الطلب هوى في نفس الوزير الفاطمي الافضل بن بدر الدين الجمالي وهو الوزير المتنفذ في البلاط الفاطمي ،وعادت من جديد طبول الحرب تقرع الا أن الامر توقف عند هذا الحد بسبب أن كل طرف كان يرهب الاخر . الا أنه في خريف عام ١١١٩ نجد جوسلين أمير الرها وبلدوين ملك بيت المقدس يشنان غارة على درعا الحقوا بها هزيمة قاسية ببوري بن طغتكين الذي كان على رأس القوة الاسلامية التي واجهت الغارة . ولم يكن الوضع في الشمال أحسن حالا فقد أصبحت مدينة حلب عاجزة عن رد اعتداء الافرنج عنها بعد انتصارهم في دانيث فاستعانت بايلغازي أمير ماردين الذي بادر الى عقد حلف مع طغتكين أتابك دمشق والتقى الافرنج والمسلمون في معركة دامية عرفت بمعركة سهل الدم بالقرب من سرمدا وكان النصر حليفا للمسلمين وقد قتل في هذه المعركة روجر وأكثر قادته ومقدميه وعاد الايلغازي وعسكره وحلفاوّه الى حلب في موكب نصر كبير عند غروب الشمس .

وعلى الرغم من أن الافرنج قاموا بعدة غارات ضد البلاد الاسلامية بعد موقعة سهل الدم الا أنهم لم يفلحوا ولم يكن من السهل عليهم

تعويض مافقدوه من عدة وعتاد ورجال وفرسان وظل ميزان القوى لصالح القوات العربية الاسلامية ويظهر أنه بعد هذا التاريخ فقدت امارة انطاكية الكثير من قوتها ولم تعد قادرة على تهديد القوى الاسلامية في الشمال .

- ظهور عماد الدين زنكي على مسرح الاحداث :

أصبح عماد الدين زنكي أتابكا على الموصل عام ٥٢١ هـ/ ١١٢٧ م وقد هيأ نفسه لقيادة حركة الجهاد الاسلامي ضد الافرنج ،فبدأ بتوحيد شمال سورية وآسيا الغربية فأصبح أقوى حاكم مسلم بعد أن سخر كافة موارده في خدمة الجهاد ضد الافرنج المحتلين واضعا بذلك الاساس القوي لحركة الجهاد المقدس التي لم تنته الا بطرد فلول الافرنج من ديار العرب والمسلمين ،ومن أجل دعم ذلك الاساس أنشأ المدارس لتكون بمثابة مراكز دعوة لتلك الحركة سعيا الى الوصول الى رأي عام اسلامي واحد يساعد على تحقيق وترسيخ مفهوم الوحدة بوصفها ضرورة دينية في ذلك الوقت وقد نجح في ذلك حيث فشل السلاجقة العباسيون ببغداد والفاطميون بمصر ،وعلى الرغم من أن عماد الدين نجح نجاحا كبيرا في ذلك الا أن المنية لم تمهله ليرى ثمار مازرع فقد دفع حياته ثمنا لذلك النجاح عند أسوار قلعة جعبر ٥٤١ هـ /١١٤٦م،وكان عماد الدين قبل ذلك قد وسع دائرة نفوذه حتى وصلت الى حمص ٥٣٨ هـ/١١٤٣ استعدادا لضربة قاضية للنفوذ الافرنجي في شمال سورية ولم تتأخر تلك الضربة فكانت عام ٥٣٩ هـ/١١٤٤م حيث تمكن من تحرير الرها بعد حصار لها دام ثمانية وعشرون يوما وبذلك سقطت أول امارة افرنجية قامت على أرض الاسلام لقد كانت تلك الضربة موجعة للافرنج وكانت بمثابة صدمة قوية تردد صداها في العالم الاسلامي فرحا بذلك النصر المبين ، وكانت بمثابة نذير شوّم للافرنج وبداية لتحرير البلاد الاسلامية .

فماذا كانت ردة الافرنج في أوروبا ؟ لقد ارتفعت الاصوات في أوروبا داعية للانتقام من المسلمين واسترداد امارة الرها ،فكانت

الحملة الافرنجية الطليبية الثانية بزعامة كونراد الثالث امبراطـور المانيا ولويس السابع ملك فرنسا في نهاية عام ١١٤٧ ومطلع عـام ١١٤٨م. في هذه الفترة استشهد عماد الدين زنكي كما أشرنا وخلفـه ولده نور الدين محمود الذي تابع سياسة والده في توحيد العالـم الاسلامي خاصة في الجزيرة وبلاد الشام حيث تمكن في عام ٥٤٩ هـ/١١٥٤ م من ضم دمشق نهائيا له وهكذا توحدت البلاد بعد أن كانت عبارة عن فسيفساء من الدول الصغيرة في مواجهة الجبهة الافرنجية .

لم يبق أمام نور الدين الا مصر الفاطمية الضعيفة وكان علـى علم بالصراعات الداخلية والمصاعب التى تواجهها الخلافة الفاطميـة ، وأخذها يعتبر ضرورة استراتيجية لجعل مدينة القدس الشريف التي يرغب بتحريرها بين حجري الرحى وبذلك يسهل الاطباق عليها واستعادتهـا من الافرنج ،أي أنه كان يتطلع الى توحيد مصر والشام في دولة واحدة ، فعندما وصله من يستنجد به ضد خصمه وضد الافرنج اهتبل الفرصـة دون ابطاء وأرسل قائده الباسل أسد الدين شيركوه الى مصر حيـث استطاع هذا القائد الفذ احراز عدة انتصارات عسكرية وسياسية قادته الى تولي منصب الوزارة الى الخليفة الفاطمي الا أن القدر لم يمهلـه فعاجلته المنية مفسحا المجال الى ابن أخيه صلاح الدين الايوبي يوسـف بن أيوب .

- ظهور صلاح الدين كقائد اسلامـي :

أصبح صلاح الدين كما ألمحنا سابقا وزيراً للعاضد الفاطمي وحيث أن الاخير كان مريضا جدا فقد توفي عام ١١٧١ أي بعد تولية صـلاح الدين الوزارة بقليل فوجدها صلاح الدين فرصة للقضاء على الدولـة الفاطمية الضعيفة وقد تم هـذا دون أية مقاومة وقد عقد العزم على انتزاع راية الجهاد من سيده نور الدين وساعدته الاحداث بوفاته عام ١١٧٤ ،لقد توفي نور الدين دون أن يكون راضيا تماما عن تابعـه صلاح الدين بعد أن حصلت جفوة بين الرجلين ،كما يذكر بعض المؤرخيـن

حيث أحس برغبة صلاح الدين بتأسيس ملك منفصل عنه .

انضمت مصر وشمال افريقيا والحجاز وبلاد النوبة وبعض المناطق في جنوب الجزيرة العربية الى صلاح الدين ومن أجل اكمال مشروعه الوحدوي كان عليه أن يضم سورية من أتباع نور الدين وقد نجح في ذلك وهكذا أصبحت سورية وشمال افريقيا ومصر والحجاز واليمن موحدة تحت زعامته أما في الجانب الاخر أي في الجانب الصليبي فقد أدت هذه الاحداث الى تقلص الموارد البشرية والمادية لمملكة بيت المقدس ،كما أدت الى تغيير الخارطة السياسية للشرق العربي لصالح العرب المسلمين .

مكث السلطان صلاح الدين نحو ست سنوات ٥٧٢ ـ ٥٧٧ هـ/١١٧٦-١١٨١م يرتب الاوضاع الداخلية في مصر والشام استعدادا للمعركة الكبرى مع الافرنج الصليبيين وظل يتجنب الاشتباك معهم على الرغم من الاستفزازات الكثيرة التي قاموا بها مثل غاراتهم عبر شبه جزيرة سيناء وعلى تيماء ،كما حاول ارناط حاكم الكرك الصليبي أن يعبر البحر الاحمر كي يسيطر على مكة والمدينة ويتحكم في حركة التجارة الدولية المارة بهذا البحر الا أن تلك المحاولات باءت بالفشل ،قادت هذه التحديات وغيرها الى الشروع بالحروب ضد الافرنج فبعد أن أكمل استعداداته أي صلاح الدين خرج من دمشق متجها صوب طبرية في منتصف آذار عام ١١٨٧م وكان مركز تجمع قواته في حوران ومن هناك أرسل سرية بقيادة مظفر الدين كوكبوري الى عكا بعد أن استأذن أمير انطاكيا الذي كان يهادن صلاح الدين وفي طريق العودة اشتبك مع مجموعة من الفرسان الداوية والاستبارية في أيار ١١٨٧ بالقرب من بلدة صفورية بفلسطين وهناك حدثت المعركة المعروفة بمعركة صفورية وقد انتصر فيها المسلمون انتصارا حاسما حيث قتل معظم الفرسان الافرنج .

كانت معركة صفورية الملمح اليها أعلاه مقدمة لمعركة حطين الفاصلة الا أنها كانت ،في الوقت نفسه سببا في جمع كلمة الصليبيين وتوحدهم ضد صلاح الدين لانهم وجدوا في معركة صفورية مؤشرا لاخطار

ستحيق بهم . أما صلاح الدين الذي عاد لتوه من منطقة الكرك الى مركز تجمع قواته في حوران في ٢٧/أيار ١١٨٧م وبعد أن أتم استعداداته اتخذ قرار الحرب وهو عند تل تسيل بحوران وتوجه الى فلسطين بعد أن وزع المهمات القتالية بين قادته فجعل ابن أخيه تقي الدين عمر قائدا للجناح الايمن وجعل مظفر الدين كوكبوري قائدا للجناح الايمن أما هو فتولى قيادة قلب الجيش . سار الجيش من تسيل الى خسفين ثم اجتاز نهر الاردن وعسكر عند كفرسبت ،بعدها تحرك نحو مدينة طبريا وأخذها ولكن قلعتها استعصت عليه بسبب وجود زوجة ريموند ايشيغا فيها فتركها وتوجه نحو حطين ،لانريد أن نخوض في تفاصيل الاستعدادات والاحتياطات التي اتخذت قبيل المعركة ،فقد انتهت المعركة بنصر حاسم للعرب المسلمين وترتب على ذلك النصر :

١ ـ فتح الباب على مصراعيه أمام صلاح الدين ليحقق انتصارات جديدة ويحرر بلادا جديدة وقد وصلت تلك الانتصارات ذروتها بتحرير القدس الشريف بعد ثلاثة أشهر فقط من معركة حطين وبذلك انتهت المملكة اللاتينية الاولى بالقدس الشريف ،تلك المملكة التي حارب الافرنج من أجلها طويلا وكانت محط آمالهم في الشرق والغرب ،ولايغيب عن البال أنها كانت المسيطرة على كافة الممتلكات الصليبية بالشرق ولو على الاقل بصورة رمزية ، .

٢ ـ رفع معنويات العرب المسلمين وتعميق ايمانهم بالوحدة التي أنجزها صلاح الدين .

٣ ـ اعتبر انتصار العرب بحطين كارثة على الصليبيين ولعله كان أكبر كارثة حلت بهم منذ مجيئهم الى الشرق .

٤ ـ أجبرت الافرنج على أن يعيدوا النظر في مشروعهم الاستيطاني بالشرق العربي .

اذا كان لسقوط المملكة الصليبية بالقدس أثره الصاعق على أوروبا الغربية التي عملت كل مابوسعها على اقامة هذه المملكة والمحافظة عليها فبعد سقوطها ضاع كل شيء ،فما أن عرف البابا أوربان الثامن

بسقوط القدس في أيدي العرب المسلمين حتى توفي من هول الصدمة ،ودعا خليفته غريغوريوس الثامن الكاثوليك الى حملة صليبية جديدة في منشوره الذي أصدره في ٢١ تشرين أول ١١٨٧ ،فكانت الحملة التي عرفت بالحملة الثالثة ،كما أمر الكاثوليك بالصيام في يوم الجمعة من كل أسبوع ولمدة خمس سنوات ، اضافة الى الامتناع عن أكل اللحم مرتين في الاسبوع ،ونذر الكاردينالات بالتجوال مشيا على الاقدام في فرنسا وانجلترا والمانيا للدعوة الى تلك أي الحملة الثالثة .

وعند التدقيق في العناصر المكونة لهذه الحملة نجد أنها تألفت من كبار الاقطاعيين والفرسان والدول التجارية الايطالية (جنوة ،بيزا البندقية) التي تهددت مصالحها التجارية بعد موقعة حطين مع الشرق، وعليه يمكن القول أن الاهداف الدينية للحملات الصليبية أخذت تتراجع خلف الاهداف الاخرى ،وهذا مايعترف به رئيس الاساقفة غليوم الصوري في مؤلفه الذي نشره تحت عنوان "تاريخ الافعال في أراضي ماوراء البحار" وهو أول تاريخ كامل عن الحروب الصليبية وعن مملكة بيت المقدس حتى عام ١١٨٤ ،حيث يقول بأنه لابحد بين أعمال أمراء الصليبيين أي شيء يعتبره الحكيم جديرا بالوصف ويعود على القارىء بالرضى والارتياح" . لقد أخذت الصراعات في هذه الحملة من أجل الهيمنة الاقتصادية والعسكرية والسياسية على منطقة البحر الابيض المتوسط تبرز الى السطح ،وهناك شيء آخر يشير الى تراجع الاهداف الدينية هو أن الجماهير قابلت بشيء من عدم المبالاة لدعوة البابا الى الحملة الثالثة وامتنعت عن تسديد مافرض عليها من أتاوات لتغذية الحملة تلك الاتاوات التي عرفت بعشر صلاح الدين وتجاوزت ذلك الى رجم الجباة بالحجارة مما حدى برجال السلطة الى الغائها في فرنسا . وهكذا لم تكن الاعتبارات الدينية بالنسبة لزعماء هذه الحملة الثالثة وهم : ريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا وفيليب الثاني أغسطس ملك فرنسا والامبراطور فريدريك الاول بربروسيا امبراطور المانيا ،في صدارة الاسباب التي من أجلها اشتركوا في الحملة فقد كانت هذه الحملة حملة فتوحات بكل مايحمله هذا المعنى .

تمكن رجال هذه الحملة من الوصول الى الشرق واستعادة عكا من يد المسلمين بعد حصار دام عامين استسلمت المدينة بعدها عام ١١٩١ على الرغم من الجهود التي بذلها السلطان صلاح الدين لانقاذها،وقد عامل الافرنج العرب المسلمين في هذه المدينة بقسوة شديدة خلافا لاتفاقية الاستسلام فأوقعوا بهم مجزرة مخيفة تشيب لها الرؤوس وبعد عكا تمكن ريتشارد قلب الاسد من أخذ حيفا وقيسارية وأرسوف وعسقلان بعد أن خربها العرب كي لايستفيد منها الافرنج ولما كان هدف الحملة القدس فقد حاول الافرنج عبثا احتلالها وبعد أخذ ورد وقع الطرفان الايوبي والافرنجي اتفاقية الرملة في ايلول عام ١١٩٢ وقد قضت بنود تلك المعاهدة باحتفاظ الافرنج بالمنطقة الواقعة بين صور ويافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف ،وعلى أن تكون اللد والرملة مناصفة بين العرب والافرنج وتكون عسقلان ومايليها جنوبا بيد العرب المسلمين وتظل القدس بيد العرب المسلمين على أن يسمح للافرنج بالحج الى أماكنهم المقدسة مجانا وجعلت مدة الصلح ثلاث سنوات وثمانية أشهر وترك الخيار لانطاكية وطرابلس بالدخول في هذا الصلح ،وبعد هذا الصلح الذي كان بمثابة هدنة حرب عاد ريتشارد قلب الاسد الى بلاده وعاد صلاح الدين الى القدس ثم الى دمشق حيث توفي في آذار عام ١١٩٣ وبوفاته فقدت الامة أعظم قائد جسد أهدافها وناضل من أجلها .

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الثالثة بتوقيع صلح الرملة دون أن تحقق أهدافها التي قامت من أجلها الا وهو استعادة القدس من أيدي المسلمين واكتفت بما حققته من مكاسب صغيرة ،ويصف زابروف هذه الحملة" ان الحملة الصليبية الثالثة قد اختلفت في كثير من النواحي عن سابقتيها فبين المشتركين فيها كانت تغيب الحماسة الدينية السابقة كما أنها لم تكن تنطوي على أي من عناصر العفوية الجماهيرية ولقد كانت حملة فتوحات قام بها فرسان وأمراء ثلاث دول اقطاعية ونظمتها وحققتها السلطة الملكية وأثناء الحملة تكشف بجلاء ووضوح سعي الملكيات الاقطاعية الغربية الى فتح مختلف مناطق

البحر الابيض المتوسط ،وفي هذه التربة نشبت مضاعفات وتعقيدات ونزاعات دولية بين الدول المسيحية نفسها في صقلية وفلسطين وقبرص ...الخ. وهذه الامور هي التي قررت المصير المخزي الذي آلت اليه الحملة بمجملها.

بموت السلطان صلاح الدين الايوبي انتعشت آمال الافرنج الصليبيين من أجل استعادة مافقدوه سيما وأن سلطنته قد تقسمت بين أبنائه المتنابذين المتخاصمين الا أنهم وأن حققوا بعض النجاحات الجزئية من أهمها استعادة القدس بموجب معاهدة الكامل جردريك الثاني الا أن نهايتهم بفلسطين كانت محتومة وفي آخر أيامهم انحسروا في شريط ساحلي ضيق وكانت نهاية الوجود الافرنجي الصليبي فيما بعد على يد المماليك خلفاء الايوبيين وبذلك انتهت الحركة الصليبية التي استمرت قرابة مئتي عام وهي تهدد الوطن العربي في الشرق ،لقدجاءت هذه الحركة بمظلة دينية ولكن أهدافها الحقيقية كانت الاستيطان وتكوين الممالك والامارات كما رأينا واستغلال موارد الوطن العربي وقد نجحت في غفلة من العرب المسلمين بسبب تفرقهم ،وعندما تمكن هؤلاء من توحيد صفوفهم استطاعوا تحقيق الانتصارات التي حددت مستقبل الحركة الصليبية برمتها ،وقبل أن أصل الى نهاية حديثي أود أن ألفت النظر الى أن الوطن العربي يتعرض اليوم الى حركة صهيونية مشابهة للحركة الصليبية التي تعرض لها الوطن العربي في القرون الحادي عشر والثامن عشر والثالث عشر ،لقد كان الدين كما رأينا المظلة التي تسربت تحتها الجيوش القادمة من أوربا الى الوطن العربي ،تماما كما فعلت الحركة الصهيونية في منتصف هذا القرن ،ومبعث تفاؤلنا اليوم أن مصير الحركة الصهيونية سيكون حتما كمصير الحركة الصليبية طال الزمن أو قصر .

وأخيرا ومما سبق عرضه يمكن أن نستخلص الملامح التالية التي اتصف بها العصر الذي تحدثنا عنه :

١ – على الرغم من تفرق كلمة العرب المسلمين في المراحل الاولى من الغزو الافرنجي الصليبي فقد بذل كل جهده على طريقته الخاصة ،

مجتمعين أو فرادى ،في مقاومة العدوان ،ويعني هذا أن جميعهم كانوا متفقين على ضرورة مقاومة الغزو الاجنبي لبلادهم ذي الهوية الدينية الوافدة من وراء البحار .

٢ ـ سيطرة المصلحة الشخصية لدى بعض حكام وامراء المسلمين وسيادة الشك فيما بينهم ،فمال بعضهم الى الاستنجاد بالافرنج ضد منافسيهم أو أعدائهم من الامراء الا أن ذلك كان مستهجنا لدى كثرة العلماء والفقهاء والعامة من العرب المسلمين بل تعدى بعضهم الى انكاره علنا .

٣ ـ عندما قيض الله للعرب والمسلمين قادة عظام استطاعوا توحيد الكلمة وتوحيد البلاد فتوجهوا جميعا وبقيادة واحدة الى مقاومة الغزو والاستيطان وقد أثمر ذلك بتحرير مدينة الرها بقيادة عماد الدين زنكي عام ١١٤٤ فكان ذلك بمثابة الهزة الاولى للافرنج في الشرق .

٤ ـ ظلت راية " الجهاد " مرفوعة ضد الافرنج في عهد نور الدين محمود خليفة عماد الدين الى أن سلمها الى صلاح الدين الايوبي من بعده ،على الرغم من محاولات الا فرنج استعادة مواقعهم دون جدوى .

٥ ـ تابع السلطان صلاح الدين الايوبي مسيرة الوحدة بعد أن أقام الدولة الايوبية بمصر ضم اليه شمال افريقيا وشبه الجزيرة العربية وثم بلاد الشام والجزيرة توجه بعدها الى حطين .

٦ ـ كانت معركة حطين أكثر من هزة للافرنج فكانت بمثابة الزلزال الذي لحق بالافرنج بالشرق وكان من نتيجتها تحرير القدس وكثير من المناطق الداخلية والساحلية ،وفي الوقت نفسه قوت العزم عند العرب المسلمين على متابعة الجهاد لتحرير أرضهم من الاجانب .

٧ ـ أخذت الحملات الطيبية بعد حطين طابعا جديدا فقد فتر الحماس الديني في أوربا لمثل هذه الحملات وامتنعوا عن مدها بالمال وبالرجال أحيانا .

٨ ـ بعد حطين برزت الى السطح الاسباب الحقيقية للحملات الصليبية خاصة الحملة الثالثة فقد ظهرت الى المسرح أطماع الملوك والامراء الاقطاعيين والجمهوريات التجارية الايطالية في الاستحواذ على خيرات الشرق وأرباح التجارة معه .

٩ ـ تأثر العرب المسلمون كثيرا بموت بطلهم المنقذ صلاح الدين الا أنهم لم يستطيعوا التراجع عن الاهداف التي رسمها البطل الراحل لتحرير البلاد والعباد من أيدي الافرنج على الرغم من بروز الخلافات والصراعات بين أبناء البيت الايوبي لان جهاد الافرنج كان من صلب العقيدة الدينية لدى المسلمين سيما وأن الحروب الصليبية أخذت الطابع الديني منذ البداية .

١٠ـ حتى بعد سقوط الدولة الايوبية " الام " بمصر حرص المماليك على متابعة الجهاد ضد الافرنج لان ذلك أصبح ضرورة على كل سلطان يفرضها الشرع الحنيف ويحتاجها السلطان لدعم مركزه السياسي في المجتمع العربي الاسلامي ونجح المماليك في تطهير البلاد نهائيا من آخر آثار الحملات الصليبية على نحو ما هو معروف .

١١ـ لم ينعم الافرنج باستقرار هادىء لمدة طويلة إبان تواجدهم في الشرق العربي وكانوا دوما في حالة استنفار وخوف من هجمات العرب المسلمين ولحماية أنفسهم أكثروا من بناء القلاع والحصون وعاشوا داخلها ولاتزال آثار تلك القلاع باقية تحدثنا عن الملاحم البطولية التي خاضها الاجداد في سبيل تحرير بلادهم .

١٢ـ لم يتمكن الا فرنج من السيطرة على أي مدينة من المدن الداخلية في سوريا كحلب أو دمشق أو حمص أو حماة وكذلك بالنسبة لمصر وهذا أمر هام جدا فقد ظلت هذه المدن مراكز جهاد تنطلق منها النجدات وجيوش التحرير فكانت حلب مثلا مركزا من مراكز الدعوة للجهاد ضد الافرنج ولم تتردد عندما داهمها الخطر أن تضع نفسها ،مضحية باستقلالها تحت قيادة أي قائد يدفع العدوان

عنـها وعن المنـاطق الاخرى في شمـال سوريـا وكذلك فعلت دمشق فقد خـرج السلطان الايوبي صلاح الدين منـهـا يوم حطين ومن القـاهرة خرج السلطـــان المملوكي الاشرف خليل يوم أن نجح في تطهير البلاد نهائيا من فلـــول الافرنج الصليبيين ٠

كيف جاءت نهاية الحروب الصليبية ونتائجها

الدكتور سهيل زكار
جامعة دمشق

* بسم الله الرحمن الرحيم *

أيها السيدات والسادة :

تأثرت الكتابات العربية المعاصرة حول تاريخ الحروب الصليبة بوجهات النظر الاوربية التي جعلت أحداث هذه الحروب جزءا - يكاد أن يكون كاملا -،من تاريخ أوربا في العصور الوسطى ونحن نختلف مع الاوربيين حول هذه القضية ، فهناك أسباب مباشرة وغير مباشرة لتفجر أحداث الغزو الصليبي ، كما وهناك وقائع تلتصق مباشرة بأحوال أوربة الدينية وسواها أثرت على استمراريتها ، أو بالحري على تجدد الحماس الشعبي والرسمي لها ، ولكن وقائع هذه الحروب الاساسية قد قامت على أرض الشام العربية والاطراف في الجزيرة ومصر ، وقد انتهت على الارض الشامية نفسها ،وجوهر القضية بالنسبة لنا لايكمن في الاسباب الاوربية بل في أسباب عجز العرب في التصدي أولا للغزاة الصليبيين ، وفي عدم تمكنهم من اقتلاعهم من أراضيهم المحتلة الابعد وقت طويل وجهود مضنية .

لقد قسم الباحثون الاوربيون تاريخ الحروب الصليبية الى حملات متتالية اختلفوا في تعدادها وتسمياتها ، والمثير للانتباه هنا أن هؤلاء الباحثين أنفسهم أرخوا لما قام به الصليبيون في ألمانيا أو فرنسا أو بلغاريا أو الامبراطورية البيزنطية في اطار التاريخ الوسيط الخاص بكل بلد من هذه البلدان ، ثم في الاطار الاوربي العام .

من الانصاف تطبيق هذا المعيار على بلا د الشام وبالتالي تفسير مراحل تاريخ الحروب الصليبية شاميا عربيا مع عدم اغفال الشأن الاوربي ، ومن هذا المنطلق يمكن القول : أن الحروب الصليبية قد مر تاريخها بطورين رئيسين :

آـ الطور الاول : وقد ارتبط بقيام هذه الحروب ، وعمليات الاحتـــلال حتى وصل التيار الى مداه الاقصى ، وكان ذلك أمام أسوار حلـــب سنة ٥١٨ هـ /١١٢٤م ومن ثم انعكس .

ب ـ الطور الثاني : وقد ارتبط بحرب التحرير والاسترداد ، ومرت هـــذه الحرب باربع مراحـل ارتبط كل منها باسم مدينة من مـدن الوطـــن العربي في المشرق ، تحملت أعباء المسؤولية العظمى لقيادة أعمـــال التحرير ، كما أن كل مرحلة من المراحل كان لها مزاياها وخصائصهـا وتعلقت الامور كلها بشكل أساسي بأوضاع العرب والمسلمين من حيث اليقظة والوحدة واستغلال الامكانات وشخصيات القادة ،وهذه المراحل هي : مرحلـة الموصل ،ومرحلة حلب ، ومرحلة دمشق ، ومرحلة القاهرة .

ويقتضي الحديث عن الطور الاول كتابة مدخل تمهيدي عن أوضــــاع أوربـا الوسيطة خاصة خلال القرن الخامس (هـ) والحادي عشر(م) ،ثـــم مدخل آخر ترسم فيه صورة لاوضاع العرب والمسلمين في المشرق والمغـرب خلال هذا القرن نفسه ،وكذلك ايلاء تاريخ العلاقات الاوربيـة العربيـة بعد قيام الاسلام عناية فائقة .

هذه المطالب أكبر من أن يمكن التصدي لها في بحث صغير ، ففـــي مؤلف عن الحروب الصليبية أقوم باعداده الان سيحتل هذا الامر ثلاثـــة مجلدات ،كما سيحتل دراسة الجانب الديني الاوربي مجلدا كبيرا .

ولعله يكفي أن نبين هنا أن أوضاع العرب كانت في النصـــف الثاني من القرن الخامس (هـ)الحادي عشر(م) متردية جدا في المشـــرق، نتيجة للضعف الشديد الذي ألم بالخلافة العباسية ولتردي الاوضاع كثيرا في ديار الخلافة الفاطمية ،وللتمزق العربي والصراعات الحادة بين الكيانات السياسية ،وزاد الحال سوءا وترديا تدفق قبائل الغزو التركية علـــى العراق والجزيرة والشام محدثة دمارا من النوع نفسه الذي سيحدثـــه هولاكو فيما بعد .

وعندما زحف الصليبيون من أوربا الغربية نحو المشرق كانت ديـار

العرب في الشام والعراق والجزيرة ومصر تحت تسلط الغرباء الحديثي العهد بالاسلام والحضارة .

لقد زحفت من أوربا جموع هائلة من شعوبها على شكل كتل جَلها زحف برا ، وأقلها سافرا بحرا باتجاه الشرق ، وبعد عدد من الازمات والمتاعب عبرت هذه الحشود ، التي قيل بانها فاقت المليون انسان مابين رجل وامرة وشيخ وطفل - من أوربا الى آسية الصغرى ، تريد الوصول الى القدس ، تحت شعار الصليب وبقيادة رجالات الكنيسة اللاتينية وأمراء الاقطاع مع بعض المغامرين من صنوف شتى ، وكان الهدف المعلن للجميع قضاء واجب الحج ، وتخليص الاراضي المقدسة من المسلمين والعرب وتحويلها الى جزء من أوربا الكاثوليكية فيماوراء البحار .

ووصلت الحشود الصليبية الى انطاكية ، وتمكنت بعد حصار طويل من احتلالها في ٣ حزيران ١٠٩٨ بسبب عمل خياني ، وجرت محاولة مسلحة لاسترداد المدينة وأخفقت وخلصت انطاكية وقلعتها للصليبيين في ٢٨ تموز ١٠٩٨ ، وصار سلطانها الى الامير النورمندي بوهيمنوند وكان من أبرز قادة الصليبيين .

وكان قبل أن تسقط انطاكية ، وحتى قبل أن يصل الصليبيون اليها ان انفصلت منهم فئة بقيادة بلدوين (أخو غودفري الذي سيكون أول ملك لمملكة القدس اللاتينية) وتوجهت من مرعش شرقا ، فتمكنت من الاستيلاء على بعض مناطق الثغور الاسلامية البيزنطية ، ووصلت أخيرا الى الرها فاحتلتها واتخذت منها قاعدة لاولى امارات الصليبيين في المشرق .

وزحفت معظم جموع الفرنجة جنوبا ، اثر ذلك بعد أن جعلوا انطاكية مركز الامارة صليبية ثانية في المشرق ، واستطاعوا أثناء زحفهم هذا أن ينتزعوا من امارة حلب الكثير من أراضيها وقراها وبلدانها خاصة في المنطقة الغربية ، فلقد استولوا على البارة ، وجردوا مدينة حلب من أراضيها وأملاكها حتى وصلوا أسوار المدينة ، ثم أتوا على معرة النعمان فدمروها وقتلوا أهلها جميعا .

عندما احتل الفرنجة المعرة ، نشب خلاف بين باروناتهم ،فقد أراد بعضهم الاستقرار في المعرة لاقامة امارة جديدة ، وعارض أصحاب انطاكية الجدد ذلك ، حتى كادت الحرب تنشب بين صفوف الغزاة ،وهنا ثارت جماهير الفقراء Tafurs من الصليبيين ، واندفعت تقتل كل من بقي من المسلمين في المعرة ، ثم توجهت نحو أسوار المدينة وتحصيناتها فدمرتها كليـــا وهكذا اضطرت جموع الصليبيون الى مغادرة المعرة والزحف جنوبا تقتل وتحرق وتدمر حتى وصلت الى القدس ،وكانت تابعة للحكم الفاطمي في مصر،فحاصرتها حصارا شديدا ،وقاومت المدينة وانتظرت ورود النجدات اليها من القاهـــرة لكن عبثا كان هذا الامل ،ووصل أثناء الحصار الى يافا عدد من السفـــن الايطالية حاملة العتاد والاخشاب والاغذية للفرنجة ،وقام الصليبيون ببناء عدة أبراج حصار تمكنوا بوساطتها من الاستيلاء على القدس في ١٦ تمـــوز ١٠٩٩م وقتلوا كل من كان فيها ، ويلاحظ هنا أن الصليبيين كانوا متفوقين على المسلمين في أنواع من التقنيات العسكرية ،خاصة بناء الابرجة المتحركة مع أدوات الحصار الضخمة الاخرى .

وصفت القدس للغزاة فأقاموا فيها ثالث دولهم في الشرق ،واعظمهـــا مكانة ، ثم أخذوا يوسعون رقعة أملاكهم في فلسطين ،وبعد عدة سنـوات احتلوا مدينة طرابلس وأقاموا فيها دويلتهم الرابعة علـــــى أرض الشـــام .

وكانت الحادثة التي وصل المد الصليبي فيها الى مداه الاعظم ثم أخـذ يتحول الى جزر أمام أسوار مدينة حلب ، وكان ذلك سنة ٥١٨هـ/١١٢٤ /م، ففي هذه السنة حضر الصليبيون كل شيء للاستيلاء على مدينة حلب ،لكنهـم أخفقوا بفضل بسالة أهالي حلب ومقاومتهم العنيدة ،ثم لمبادرة صاحب الموصل ـ البرسقي ـ لنجدة المدينة ،وقد علق في عصرنا هذا المـــؤرخ البريطاني أرنولد توينبي على هذا الحادث بقوله :((لو سقطت حلـب للصليبيين لصار الشرق لاتينيـــا)).

بوصول مد الاحتلال الصليبي سنة (٥١٨هـ ـ ١١٢٤م) الى نهايته انتهى عهد التوسع والاستيلاء الصليبي ،وبدأت حرب الاسترداد والتحرير،وانتقـل المسلمون من حالة الدفاع الى حالة الهجوم ،وبدأوا يخططون لاعمـــال

التحرير،وتوقف الصليبيون عن أعمال الهجوم ، الى أبعد الحدود،وبــات شاغلهم الرئيسي الاحتفاظ بما احتلوه ،وتبدلت نوعية الحكام المسلمين وتغيرت مشاعرالناس نحوهم ، وشرعت المصادرالعربية أثناء حديثهاعن الوقائع والمعارك ضد الفرنجة تكثرمن ذكرالمتطوعة ،وبدأ الان الطورالثاني وكانت أولى مراحله :

مرحلةالموصل وفيها انتقل العرب من أوضاع الدفاع الى الهجــوم التحريري ، وجرت أثناء هذه المرحلةالتي كان أبرزقادتهاعماد الدين زنكي محاولات كبرى للوحدة ترافقت مع أعمال تحريركبيرة ،تصدرهـا تحريرالرهاسنة ١١٤٤م وازالة الحكم اللاتيني منها وبعدتحريرالرهابعامين اغتيل زنكي ، وآلت القيادة بعده في الشام الى ابنه نورالدين محمود وبذلك انتهت مرحلة الموصل لتبدأ مرحلة حلب .

وفي هذه المرحلة كانت الانجازات عملاقة نذكر منها اخفــاق الحملة الصليبية الثانيةوانقاذ دمشق من الاحتلال ، احباط محــاولات التدخل البيزنطية ، احداث بعض الشروخ في صفوف الفرنجة أنفسهم، دخول نورالدين الى دمشق وتوحيد بلاد الشام ، انقاذ مصروتوحيدها مع الشام ومد الوحدة الى ليبيا واليمن ، الاعداد لمعركة حاسمة ضد الوجـــود الفرنجي ، ذلك أن المعارك كانت حتى الان معارك قلاع .

وتمت المعركة الفاصلةبعد وفاة نورالدين أيام صلاح الدين فمع قدوم صلاح الدين الى دمشق بدأت المرحلة الثالثة والحاسمة في تاريــخ الحروب الصليبية ،وكان على رأس غمار هذهالمرحلة معركة حطين وتحرير القدس سنة ١١٨٧م مع القسم الاعظم من الاراضي المحتلةواخفاق الحملــة الصليبية الثالثة .

ان حطين واحدة من معارك التاريخ الفاصلة ،حطمت فيها المؤسسة العسكرية الصليبية وقد بات بعدها وجودالصليبيين في المشرق . قضيــة زمن لا أكثر ،وان من يستعرض أخبارالفترةالتاريخيةللمرحلتين الثانيــة والثالثة في حلب ودمشق بقيادةنورالدين ثم صلاح الدين يجدأمةتتحـرك كجسد واحد بلا تناقضات كبيرة ،ولاأمراض مستعصية ،وكان بـودي أن،

أستعرض هنا بعض النماذج الشاهدة ،لكن ذلك يحتاج الى مكان أرحب .

عاش صلاح الدين عدة سنوات بعد حطين ،وتحرير القدس واجه خلالها مشاكل صعبة للغاية حتى على الصعيد العسكري ، انما ذلك كان عديم التأثير فلقد حكم نصر حطين على الوجود الصليبي في المشرق بالزوال ،وما كان لقوة أن تغير ذلك الحكم ،كل ما حدث محاولات لتأخير حركة التنفيذ لكن بشكل يائس .

ولقد ترعرت الروح الجديدة التي حملت من الشام الى مصر،فجعلت بعد فترة وجيزه من الزمن القاهرة عاصمة لديار العرب ،ومركز القواهم وثقافتهم وحضارتهم ،وبعد وفاة صلاح الدين صارت القاهرة مقر للسلطة الايوبية ،ومن القاهرة قاد خلفاء صلاح الدين من الايوبيين أولاثم من المماليك ،قادوا أمة العرب نحو تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام ونحو تسبيب الاخفاق لجميع محاولات أوربة في احتلال أي جزء من بلاد العرب ،كما أن القاهرة حمت الوطن العربي في مشرقه ومغربه ،وصانته عندما تعرض هذا الوطن للغزو المغولي،فهزمت المغول في معركة عين جالوت وأجبرتهم على الجلاء عن أرض الشام .

لقد سببت معركة عين جالوت وضع بلاد الشام تحت الحكم المملوكي وثبتت أركان هذا الحكم في مصر ،وكان أن تسلم بيبرس السلطة في القاهرة بعد الفراغ من عين جالوت فوطد أركان الدولة وأخذ يعد العدة لتحرير المتبقي من الاراضي الشامية بيد الفرنجة وفق خطة اتخذت في حسبانها الخطر المغولي الكبير في الشرق والشمال والتحالف المغولي الصليبي الارمني .

تسلم بيبرس السلطة في القاهرة ،وواجه في البداية عددا من الثورات واعمال المعارضة في القاهرة ودمشق ،واستطاع بسرعة وحزم أن يقضي عليها جميعا ،فالتفت الى الجوانب التنظيمية والادارية ،ولعل أهم ماقام به في هذا المجال هو بعث الخلافة العباسية واعادة تأسيسها في القاهرة .

لقد كان الحكم المملوكي الجديد بحاجة الى الشرعية ومثل هذه الشرعية كان بامكان الخلفاء وحدهم منحها . ونحن وان كنا لانجد المكان مناسبا للحديث عن تطور السلطة لدى العباسيين ، الا أنه من المفيد أن نبين أن الظاهر بيبرس قد تمسك بمفهوم السلطة الموروث عن السلطنة السلجوقية فقد كان مثل السلاجقة ، من أصل تركي .

وكان السلاجقة بعدما استولوا على بغداد وأقاموا دولتهم العظمى قد احدثوا تغييرا في مفهم السلطة ، فهم لم يتحكموا بالخلفاء العباسيين كما فعل رجالات بني بويه قبلهم بل اعتمدوا مبدأ ازدواجية السلطة وهو مبدأ تركي متوارث ، وتبعا لهذا المفهوم كان يتولى رئاسة الدولة رجل عرف باسم الخاقان لايملك أية صلاحيات بل كانت رئاسته اسمية والى جانبه يتولى مباشرة السلطة الـ (بك) وغالبا ماكانت وظيفته عسكرية . ويلاحظ بالنسبة لتاريخ سلاطين السلاجقة والمماليك أن السمة العسكرية قد غلبت عليهم .

كما يلاحظ أنه في زمن السلاجقة جرى توسيع قواعد نظام الاقطاع العسكري . ونتيجة لسياستهم الدينية عظم شأن علماء الدين السنة ودورهم الى حد يمكننا فيه الحديث عن قيام اقطاع ديني تحالف وتعاون مع الاقطاع العسكري . وكان لرجال الدين دور خطير جدا في أيام الحكم المملوكي وغالبا ماقاموا بالوساطة بين المماليك وطوائف المجتمع على اختلافها .

توجه السلطان الظاهر بيبرس نحو دمشق في العام التالي لتوليه السلطنة ٦٥٩ هـ /١٢٦١م ، ويبدو أنه سلك الطريق الساحلي مستطلعا أوضاع المنطقة الساحلية وضاغطا على الصليبيين هناك وفي طريقه جاءه كونت يافا فأكرمه السلطان وكتب له منشورا ببلاده ، ورده سالما الى مدينته وفي دمشق ((حضر رسول من جهة عكا يسأله آمانا للرسل المتوجهين من البيوت (الداوية والاسبتارية) كلها فكتب الى والي بانياس بتمكينهم فحضر أكابر الفرنج والتمسوا الصلح ، فتوقف السلطان عليهم ، وطلب منهم أمورا كثيرة ، فلما امتنعوا ازجرهم السلطان وأهانهم)) ثم تقررت الهدنة مع تبادل الاسرى ورفع المقاطعة الاقتصادية .

ويلاحظ في هذا المقام أن موءسسات الفرنجة السياسية والعسكرية في الشام تصرفت في بداية العصر المملوكي وكانها جزء من المنظومة السياسية الشامية المحلية ،وان بيبرس شعر أن المخاطر العظيمة على سيطرته على بلاد الشام ليست صادرة عن الفرنجةبل امارة الكرك التي كانت ماتزال تحت الحكم الايوبي ،ومازال حاكمهايطمع بسلطنةالقاهرة ولهذا اتخذ الظاهر بيبرس قراره بالاستيلاء على الكرك ،وكان يحتاج حتى يتمكن من انجاز هذا العمل حماية ظهره من مخاطر المغول ،ولهذا جهز حملة عسكرية بعثها نحو العراق تحت لواء أحدالناجين العباسيين وبايعه بيبرس بالخلافة وقد حمل لقب المستنصر بالله وقيل أن اسمه (أبو القاسم احمد بن الامام الظاهر))

وما أن فرغ بيبرس من هذه الاعمال حتى بادر بالعمل ضد امارة الكرك فاستولى أولا في هذه السنة نفسها (٦٥٩هـ /١٢٦١م) على قلعة الشوبك ثم شرع يتدبر أمور الكرك وكانت من أمنع القلاع في بلاد الشام، فتمكن ببراعة مطلقة من الاستيلاء عليها في سنة ٦٦١ هـ /١٢٦٣م وبذلك أزال الوجود الايوبي من جنوبي بلاد الشام ،وبات من الممكن التفرغ للعمل ضد الصليبيين .

وأدام السلطان أثناء عمله ضدالكرك الاتصالات الدبلوماسية مع الصليبيين .

ولم تزل رسلهم تترد في هذا ومثله الى أن فرغ السلطان من شغله الذي كان في نفسه ، وهوحديث الكرك ،

وما أن انتهى منه حتى زحف على رأس جيوشه الى قلب الاراضي والممتلكات الصليبية ،واستقبل اثناء ذلك رسل موءسسات الفرنجة الذين عرضوا عليه التمسك باتفاقات الهدنة فرفض ،وبعدها بين لهم الاحوال التي لم يتمسكوا بها بشروط الهدنة أوضح لهم عن مقاصده وشروطه بقوله :

((أنتم في أيام الصالح اسماعيل اخذتم صفد والشقيف على أنكم تنجدونه على السلطان الشهيد الملك الصالح (أيوب) .

وبالجملة فانتم أخذتم هذه البلاد من الصالح اسماعيل لاعانة مملكة الشام واطاعة ملكها ونصرته ، وقد صارت مملكة الشام وغيرها لي، وما أنا محتاج الى نصرتكم ولا الى نجدتكم ،فتردون ما أخذتم للاسلام بهذا الطريق ،وتفكون أسرى المسلمين جميعهم ،وغيرذلك لا أقبله ،ثم أمر بطرد الرسل ورسم بهدم كنيسة الناصرة ،((وهي أكبرمواطن العبادة التي لهم ،ويقولون منهاخرج دين النصرانية ..(ووجه من) هدمها الى الارض ،فلم يجسر أحد من سائر الفرنجة أن يخرج من باب عكا .

وسبب ذلك أنه أرسل قطعة كبيرة من جنده للاغارة على عكا ثم أتبع بيبرس ذلك بقيامه في يوم ٤ جمادى الاخرة ٦٦١ هـ /١٥نيسان ابريل ١٢٦٣ م بالزحف ضد عكا ،((ولم يزل سائقا الى أن طاف بها من جهة البحر ،وسيرجماعة الى برج كان قريبا منها فيه جماعة فحاصره ،وللوقت أحدثت فيه الثقوب ،وكان توجه السلطان اليها في هذه الجماعة انما هو لكشفها)) ، وكان الفرنج ((قد حفروا خنادق حول تل الفضول وجعلوها معاثر في الطريق ،وبسرعة متناهية تمكن جند بيبرس من ردم الخنادق وطلع الناس الى تل الفضول ،وانهزمت الفرنج الى المدينة ،وحرق الناس ماحول عكا من الابراج والاسوار وقطعوا الاشجار وحرقوا الثمار ،وحاول بيبرس اقتحام المدينة فأخفق ،وبعد قيام جيشه بعدة هجمات أمّره بالانسحاب ،حيث توجه نحو الكرك ومن هنالك عاد الى القاهرة .

ويبدو أن أهداف بيبرس في حملته هذه كانت أكبر من ايقاع الضرر بالفرنجة أو استعراض قواه أمامهم وفرض هيبته عليهم ،ولاحتى مجرد الاستطلاع والتعرف على طبيعة المنطقة . لقد أراد بيبرس احتلال عكا ،مقدرا امكانية ذلك ، بسبب أوضاع عكا الداخلية ،فقد كان الفرنجة قد وصلوا في هذه الفترة الى درجة كبيرة من الضعف ونجم ذلك عن القتال بين البنادقة والجنوبين فيها .

ووصلت الاخبار في عام ٦٦٢هـ /١٢٦٤م عن تحرك مغولي ضد بلاد الشام لذلك أصدر السلطان بيبرس تعليماته باستنفار القوات في الشام وشحن القلاع ورممها . وتحرك السلطان على رأس قواته من مصر فقصد

غرة ومن هناك تحرك نحو منطقة يافا ،وبينماهوعلى الطريق وصلته الاخبار بهجوم المغول على المناطق الشمالية من الشام ،وصد ذلك الهجوم ،ولذلك بادر الى تغيير خطط زحفة واستغلال الموقف في البقاع التي كان فيها .

وبناءعليه ((ثنى أعنته الى جهة الفرنج ليدينهم كمادأنواويكون لهم كماكانوا ،وما أعلم أحد مغزاة ،ولافهم أين مرامه ومرماه)) وتظاهربالانشغال بأعمال الصيد في غابة أرسوف ،فقام باستطلاع أرسوف وقيسارية ،وأمرباحضار الاخشاب واعداد المجانيق وأسلحة الحصار،وأحضر الصناع والحجارين (سلاح المهندسين) ،وهاجم قيسارية ،و((نزل عليها يوم الخميس في التاسع من جمادى الاولى سنة ثلاث وستين وستمائة (٢٨شباط /فبراير١٢٦٥م) ولوقته طاف بها. وهاجمها الناس وألقوا نفوسهم في خنادقها وعمدوا الى السكك الحديد التي للخيل والشبح والمقاود فتعلقوا فيها وطلعوامن كل جانب ،ونصبت عليها السناجق وحرقت أبوابها وهتك حجابها،فهرب أهلها الى قلعتها .

وشرعت القوات المملوكية بحصار قلعة قيسارية ، وكانت ((من أحصن القلاع وأحسنها ،وتعرف بالخضراء ،وكان الريدافرانس (لويس التاسع) حمل اليها العمد الصوان واتقنها، وماروئي في الساحل أحسن منها عمارة ولاأمنع ولاأرفع لان البحرالمالح حاف بها ،وجائز في خنادقها،والنقوب لاتعمل فيها للعمد الصوان الصلبة في بنائها)) وشدد بيبرس الحصارعليهاوضيق الخناق على المدافعين عنها،وبعد مضي اسبوع هرب الفرنج بحرا الى يافا ،((وأسلموا القلعة بمافيها،وتسلق المسلمون اليها من الاسوار ،وحرقوا الابواب ،ودخلوها من أعلاها وأسفلها))وآمر بيبرس على الفوربهدم قيسارية مع قلعتها ((ووقف يهدم بنفسه ، ورآه ، الناس فتشبهوا به وعملوا بنفوسهم ،وصار يباشر ذلك بنفسه ويده .

لقد برهن بيبرس في جميع معاركه على انه صاحب عبقرية عسكرية متميزة ، فعندماقرر مهاجمة قيسارية أرسل بعض وحدات جيشه نحو عكا للاغارة عليها ،والحيلولة بين أهلها وبين انجاد قيسارية ،وجاء

تحرير قيسارية بمثابة ضربة قاسية ضد الفرنجة ، حيث خسروا أهم نقاط الدفاع المتقدمة لديهم .

ان الهجوم على قيسارية يدل على وجودخطة محكمة للتحريرقدوضعها بيبرس . فقيسارية كانت أهم مواقع الصليبيين وأحصنها على الساحل فيمابين عكاوغزة . وبعدها نجحت خطة الاستيلاء على قيسارية عمد بيبرس الى اجراء عسكري له شقان : الشق الاول تصفية الممتلكات الصليبية فيمابين قيسارية وغزة ،والشق الثاني التقدم في الوقت نفسه خطوة أخرى باتجاه عكا .

بينماكانت عمليات الهدم مستمرة في قيسارية أرسل بيبرس في ٢٦ جمادى الاولى ٦٦٣ هـ/١٧ آذار/مارس ١٢٦٥م مجموعة كبيرة من عساكره نحو حيفا ((فساروا اليها ودخلوا قلعتها ، فنجاالفرنج بانفسهم الى المراكب بعد أن قتل منهمواسر.. واخربوا المدينةوقلعتها وأحرقوا أبوابها ،وجعلوهاخاوية على عروشها ،كان لمتغن بالامس ،وكان أخذها وما أعتمد فيهامن قتل وأسر واخراب واحراق في يوموأحد)) .

وفي الوقت الذي تعرضت فيه حيفا للغارة المدمرة المحررة سارالسلطان الظاهر بيبرس بنفسه على رأس قطعة كبيرة أخرى من جيشه الى عتليت وبعدما استطلعها أمرعساكره بالاغارة عليها ((وأمر بتشعيثهاوقطع أشجارها ،فقطعت جميعها وخرّبت أبنيتها)) ثم عاد نحوقيساريةلمتابعة أعمال الهدم واعداد خطة هجوم جديد .

وكان الهدف الان هوبلدة أرسوف ،وبعدما أعد بيبرس الاسلحة الجماعية ومعدات الحصار ،القى الحصار على أرسوف وشدده وكانت أسوارها متينة وعالية ،وقامت قوات بيبرس بالتقدم نحو الاسوار في ظل ستائر من الاخشاب على شكل ابراج متحركة ،وحاولت هذه القوات حفرنفقين تحت الاسوار بغية شحنها بالاخشاب واحراقهاتحت طرف من أطراف الاسوار بغية هدمه .وقام الفرنجة بخطط معاكسة وذلك بحفر أنفاق مضادة ونشر الدخان فيها بشكل مفاجئ .

وبعد حصار دام أربعين يوما لم يتوقف القصف والرمي فيه أمكن فتح ثغرات واسعة في الاسوار ،وهكذا تمكن الجندمن اقتحام المدينة والدخول الى حصنها ، وهنا توقف المدافعون عن القتال والقوا أسلحتهم واستسلموا ،وحررت أرسوف وعادة الى أهلها يوم الخميس ١١ رجب ٦٦٣هـ/ ٢٦ نيسان/ ابريل ١٢٦٥م وأمربيبرس بهدم أرسوف ثم وجه انذارا الى كونت يافاجاء فيه :

((انالانحتمل الهضيمة ،واذا أخذ أحد لنامزرعة أخذناعوضها قلعة مرتفعة ،واذا أسر لنافلاح أسرنا ألفا من المقاتلةلابسة السلاح، واذا هدموا جدارا هدمنا أسوارا ،والسيف في يد الضارب ،والجوادعنانه في قبضةالراكب ،ولنايد تقطع الاعناق ،ويدتصل الارزاق ،ومن تحرش فعن تجربة ،ومن أراد شيئا من الاشياء فهذه الامورله مرتبة))

لاشك أن انجازات أعمال التحريرلهذا العام كانت جليلة ومحصلاتها عظيمة لاسيما في بناء قلعة قاقون . وقبل تعليل أسباب هدم الحصون المستولى عليهاوالباعث على بناء قاقون ،من الضروري الاشارةالى أن اعمال التحريرهذه لميتوقف انجازهاعلى العسكريين المحترفين من جند بيبرس ،فلقدكان الحضور الشعبي كبيرا أثناء القتال وأعمال الحصار، وشارك العرب الفلسطينيون مع أخوانهم من أهل الشام نساءورجالا، وكان لهم دورهم المميز ،ويحدثنا ابن عبد الظاهر قاضي بيبرس ورئيس ديوان الانشاء لديه وكاتب سيرته وهو شاهد عيان بقوله :

((وحضر العباد والزهاد والفقهاء والفقراء الى هذه الغزاةالمباركة التي ملأت الارض بالعساكر وأصناف العالم ،ولم يتبعها خمرولاشيءمن الفواحش بل النساء الصالحات يسقين الماء في وسط القتال ،ويجررن في المجانيق ،وأطلق لجماعة من الصالحين الرواتب ،مثل الشيخ علي المجنون ، والشيخ الياس ،ومن الاغنام والحوائج ،وأطلق للشيخ علي البكاء جملة من المال ،وماسمع أن أحدا من خواصه اشتغل عن الجهاد في نوبته بشغله ،ولاسيرأمير غلمانه في نوبته واستراج هو ، الا الناس سواء في هذه الامور)).

وكان الشيخ علي المجنون أول الناس لدى اقتحام الاسوار ،فهو أول من شاهد انهيار أسوار باشورة أرسوف ،والحضور الشعبي له دلالات كبيرة فالمعركة كانت لها صيغة ((قومية - وطنية)) ، اذا جاز لنا استعمال التعابير الحديثة ،ولم تكن صراعا بين حكام أو عسكريين ، بعضهم من الفرنجة وبعضهم الاخر من الترك . لقد اعتبر بيبرس أعماله جهادا في سبيل الله ،واعتبر الشاميون الفلسطينيون عملهم جهادا في سبيل الله والارض ،ولهذا كان التعب يعتري جند المماليك لكنهم لم يعرفوا للتعب معنى ولم يتوقفوا بعدما ألقى العدو السلاح واستسلم .

ولجأ بيبرس الى هدم المدن والحصون الساحلية التي استولى عليها حتى لايعود الفرنجة اليها فيرمموها ويتحصنوا بها من جديد ،ذلك أنه كان لهم تفوق بحري على المماليك وكانت تحت تصرفهم أساطيل الدويلات الايطالية مع أساطيل دول أوربا المتوسطية (مثل فرنسا وصقلية واسبانيا)

لقد قدر الظاهر بيبرس - كما يبدو - ان الاستيلاء على عكا ليس بالامر السهل ويحتاج الى مجهود كبير ووقت طويل ،وأن هنالك مسائل ومخاطر ملحة أخرى في المناطق المحتلة من قبل الصليبيين خارج فلسطين فقد كانت هنالك طرابلس ،وقلعة حصن الاكراد وانطاكية ،لذلك تابع العمل على تجريد عكا من ممتلكاتها وأخذ يعد العدة لتحرير صفد ،وأقدم أولا على اعادة تحصين قلعة قاقون .

كانت قاقون تعد من أعمال قيسارية ،وقد سكن قلعتها فرسان المعبد (الداوية) وقد ورد ذكرها في عمليات الحروب الصليبية . وهي وان كانت قلعة داخلية لم تكن بعيدة عن الساحل ،لذلك توفرت فيها الشروط المطلوبة ،وأمر بيبرس باعادة بناء قلعتها ،ورمم كنيستها وحولها الى جامع ،وأوقف عليها الاوقاف وشحنها بالمقاتلة وانتهت هذه الاعمال سنة ٦٦٥ هـ/١٢٦٧م .ونمت قاقون خلال فترة وجيزة فصارت عامرة بالناس وغدت محطة للقوافل الذاهبة الى غزة والايبة منها ومركزا من أهم مراكز البريد ،ذلك أن بيبرس اعتنى عناية فائقة بالبريد حتى كان الخبر يحتاج الى أربعة ايام للوصول من دمشق الى القاهرة .

وبعد انقضاء موسم أمطار عام٦٦٤ هـ/١٢٦٦م جهز السلطان الظاهر بيبرس قواته وأخذ الطريق نحو غزة يريد بلاد الشام ، وفي غزة كلف بعض أمراءجيشه بقيادة وحداتهم والاغارةعلى ممتلكات الفرنجة في الساحل مابين طرابلس وصور ومن غزة توجه بيبرس شخصيا نحومدينة الخليل "فدخل الى مقام ابراهيم وزار وكشف المظالم " واتخذ عدة اجراءات لصيانة حرمة مكان ثمتوجه نحو القدس فأتى ((الحرم الشريف مستخفيا في نفرين أوثلاثة ،وصلى الجمعه بالقدس ،ورحل الى عين جالوت نحو عكا وعسكر أمامها وأمر باجتماع قواته اليه)) .

وعاد ثانية فضغط على عكا وأغارت قواته على المناطق المحيطة بها ،بغية اضعافها اقتصاديا وعسكريا،وراسله مقدم الاسبتارية من عكا من أجل الهدنة وفق الشروط التي يفرضها ، وعندماتهيأت الاجواء توجه بيبرس نحو صفد فهي قدكانت هدفه ((لانهاالغصة في حلق الشام والشجا في صدر الاسلام .

وقبل البحث في احداث تحرير صفد نحتاج الى وقفةصغيرة بغية التعرف الى موقع هذه البلدةمع شيء من تاريخها الاسلامي :

تقع صفد في الجليل الاعلى ،وترتفع حوالي ٨٤٠م عن سطح البحر وتبعد نحو ٢٠٦ كم عن القدس ،وهي ذات موقع استراتيجي هاموكانت أولا تلا،وكان على التل قرية عامرة تحت برج اليتيم... لم تذكر في شيء من الكتب الموضوعة في التاريخ في صدر الاسلام،وقد سقطت بيد الصليبيين في الحملة الاولى فعمروا قلعتها سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢م وسكنها فيما بعد سنة ١١٦٧م فرسان المعبد (الداوية) وحصنوها وظلت في أيدي الصليبيين حتى حررها " السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد حصار شديد " سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م وآلت منذ ذلك التاريخ الى السلطات الايوبية في دمشق الى أن هدمها المسلمون سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م" وبقيت خرابا،وبلادها في يد من يملك دمشق لايهتم ببنائها ملك الى أن أعطاها الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن الملك العادل للفرنج فيما أعطاهم من البلاد في سنة ثمان وخمسين وستمائة (١٢٦٠م)" .

ثم آلت ملكيتها الى فرسان الداوية،فقاموا بتجديدها وتوسيع رقعة حصنها حتى بات يتسع لحوالي ٢٢٠٠ من الفرسان والمقاتلة وقد " شحنوها بالمؤن والعتاد وجلبوا اليها الماء من العيون المجاورة "وعظم شأن صفد في هذه الاونة وتحولت الى بلدة كبيرة لها نشاطات وامكانات تؤهلها لان تصبح نواة نيابة في المستقبل(١٥).

وكان الداوية أفراد احدى أهم منظمات الصليبيين واخوانياتهم العسكرية وكانوا يديرون في هذه الاونة أعمالا اقتصادية ونشاطات مالية واسعة . وعلى قاعدة من ملك المال ملك السلطة ،مارس الداوية نفوذا كبيرا على حكام الفرنجة في الشام ،كما أن تاريخهم مع الاستبارية في المشرق ملطخ أكثر من سواهم بجميع أنواع الوصمات من كذب وغدر ومذابح بلا رحمة . ولهذا عمد حكام المسلمين الى اعتبارهم " مجرمي حرب " لايجوز الابقاء على أي منهم عندمايؤخذ أسيرا،وهذا ماطبقه صلاح الدين اثر انتصاره في معركة حطين .

وقرر السلطان الظاهر بيبرس الاستيلاء على صفد فأعد لذلك مالزم من معدات . وبعدما وجه أقسى الضربات لكل من عكا والمناطق القائمة بين طرابلس وصور،تحرك نحو صفد ،واستنفر قوات الشام،ويبدو أن حجم الاستعدادات كان واسعا،وكانت الخطة الموضوعة لمهاجمة صفد محكمة.

الموقع كان في غاية الحصانة والمدافعون عنه كانوا من أشرس المقاتلين الصليبيين وأكثرهم تمرسا وأشدهم صبرا،وعمل بيبرس على عزل صفد ومنع وصول النجدات اليها ،حيث بعث قطعة من قواته لمشاغلة حصن الشقيف ورصد الطرق والممرات . فقد حرص بيبرس على سلامة وصول المعدات والمجانيق والاخشاب من دمشق حرصه على منع النجدات عن صفد.

ويحدثنا ابن عبد الظاهر أن الجمال التي حملت المجانيق أصابها الوهن أثناء توجهها نحو صفد((فجهز(بيبرس) الامراء والجند وسائر الناس لحملها على الرقاب من جسر يعقوب ،وهو مرحلة من صفد ،وخرج السلطان بنفسه وخواصه ،وجر أخشاب المجانيق مع البقر)) وبدأ حصار

صفد يوم ٨ رمضان ٦٦٤هـ /١٣حزيران/يونيو١٢٦٦م وأشرف بيبرس بنفسه على تجهيز المجانيق ووجه رماياتها . وشدد المسلمون الحصار على صفد، وعملوا في سبيل فتح ثغرة في الاسوار . وانقضى شهر رمضان والقتال مستعر ،وأصاب الهلع الفرنجة وسعوا الى الاستسلام ، لكن بيبرس تشدد في شروطه وأصر على قتل فرسان الداوية .

كان بيبرس أثناء الحصار في ذروة اليقظة والنشاط وقد ضرب مثلا أعلى لجنده . كان يتفقد عساكره ويبذل لهم الارزاق ، ويبني الخيام ،ويحضر الاطباء والجراحين ويطلق الاطعمة والاشربة للجند لاثارة حماستهم ولرفع معنوياتهم . وبعد انقضاء شهر رمضان بدأ السلطان بيبرس زحفا عاما ضد صفد في اليوم الثاني لعيد الفطر (٢ /شوال ٦/تموز/ يوليو) ولم يثمر هذا الهجوم وأخفق في اختراق دفاعات صفد وبعد مضي اسبوع جدد بيبرس المحاولة ومن جديد أخفق . ثم حاول ثالثة يوم١٤- ١٧تموز/يوليو ،وألح بيبرس وشدد الهجوم في اليوم التالي وسقطت باشورة القلعة واقتحمت عساكر بيبرس القلعة . وهنا أدرك الفرنجة أنه لافائدة من متابعة المقاومة وعرضوا الاستسلام وأصدر بيبرس أوامره بأن لايرموا أحدا من الفرنج والنصارى والمستعربة غير الداوية ، فأمسك الفرنج من تلك الساعة عن القتال)) وتابع الداوية المقاومة عدة أيام ثم طلبوا الامان مجددا فمنحهم ماطلبوا بعد أن ((اشترط عليهم أن لايستصحبوا سلاحا ولا لامة حرب ولاشيئا من الفضيات ولايؤذوا شيئا من ذخائر القلعة بنار ولاهدم .

وتوقف القتال وخرج المدافعون عن صفد ودخلت عساكر بيبرس اليها ،وبعد ماتفقدوها وجدوها بدون أموال وذخائر وأسلحة فردية .وأمر بيبرس بتفتيش الفرنجة فوجد أنهم ((أخرجوا معهم الاسلحة والفضيات وأخفوها في قماشهم . وتحدثوا عن جماعة من أسرى المسلمين وأخذوهم على أنهم نصارى ، وكذلك صغار المسلمين المأسورين عندهم . واعتبر السلطان ما أقترفه الفرنجة نقضا لشروط الاستسلام يسوغ له الامر باعدامهم وكان بيبرس ينتظر مثل هذا المسوغ ،فأصدر أوامره بقتل الفرنجة

جميعا فيما عدا اثنين منهم أولهما أعلن عن اسلامه ،وثانيهما أطلق سراحه ليخبر بني جلدته بما وقع في صفد .

ويبدوا أن الذين أعدموا كانوا من الداوية فقط ،ذلك أنه بعدما سقطت باشورة القلعة فسح المسلمون السبل أمام الفرنجة العاديين وسواهم للهرب ، ان لم نقل شجعوهم على ذلك . أضف الى هذا أن الاسلام عرض على الذين نقضوا الاتفاق ،وواحد فقط هو الذي تحول الى الاسلام ورفض البقية ،مما يدلل على أنهم كانوا من الداوية الذين شهروا بشدة التعصب .

وكما حدث في المعارك السابقة كان الحضور الشعبي كبيرا أيضا أثناء حصار صفد ،وقد قتل عدد من المتطوعة ،وهذا يؤكد من جديد أن عمليات التحرير أسهمت الامة فيها لاعن طريق تحمل نفقات جند المماليك واعداد الاسلحة وتأمين المؤن ورجالات الادارة فحسب ،بل عن طريق المقاتلين أيضا . وعلى هذا تحمل شعب فلسطين وأهل الشام القسط الاكبر من أعباء تحرير الارض ،وذلك بعدما كانوا قد تمسكوا بالارض وتحملوا مشاق الاحتلال .

وعين بيبرس واليا لصفد " وأمر بعمارتها والزيادة فيها ، وحمل اليها الذخائر والسلاح " وولى قلعتها واحدا من قادة جيشه وشحنها بكمية من الجند ثم ارتحل مسرعا نحو دمشق(١٧) لتجريد القوات ضد مملكة أرمينيا الصغرى .

وكان لتحرير صفد أصداء واسعة ،حيث سارع ممثلو بقية الفرنجة نحو بيبرس يعلنون خضوعهم له ،كما سقطت قلعتا هونين وتبنين ، وقرر بيبرس اعادة ترميم قلعة صفد بعد ما لحقها من تهديم كبير.

وذهب بيبرس الى القاهرة حيث مكث هنالك وقتا قصيرا ثم توجه مجددا سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م نحو بلاد الشام. وعند وصوله الى غزة وصل اليه رسل الفرنج يحملون الهدايا مع بعض أسرى المسلمين ويطلبون تأكيد اتفاقات الهدنة . وتوجه بيبرس نحو صفد وهو على نية اعادة بنائها،لكنه ما ان وصلها حتى أتته الاخبار بتوجه حملة مغولية نحو

الشام ،فترك صفد وذهب الى دمشق،وفي دمشق عرف بعودة المغول فعاد هو أدراجه نحو صفد ،وعلى الفور أمر باعادة حفر خندق القلعة فقسمه " على الامراء ،وأخذ نصيبا وافرا لنفسه ومماليكه وحاشيته،وشرع الناس في العمل ،وعمل السلطان بنفسه وبيده وكذلك جميع بيوتاته من بابية وغيرهم ،ولم يتوفر أحد من العمل ،ولازموا نقل الحجارة ورمي التراب ،وتسابق الناس في النجاز " .

لقد تميز بيبرس بقدرات على المناورة السياسية ساوت قدراته العسكرية ونشاطه في الميادين ،فقد وصل اليه وهو على صفد رسل الفرنج ((وشاهدوا من أمرها واهتمام السلطان بها ماقطع أكبادهم حسرات ،وتحدثوا مع السلطان في أمر بلادهم)) وبعد ماوجه بيبرس النقد الى سفراء الفرنجة طالبهم بشروط ومطالب قاسية ،وأبدي عدم اهتمامه بهم ،وأرسل أثناء المفاوضات ،وحدات من جيشه أغارت عدة مرات على عكا ،وتوجه هو نفسه نحو عكا ،وخيم بتل الفضول على مقربة منها وبات ليلته هناك ثم أعمل الغارة ضدها في اليوم التالي فقتل وأسر ودمر،ثم عاد نحو صفد واستدعى اليه رسل الفرنج فعرض عليهم ما حمله أثناء غارته للضغط عليهم ويبدو أن ذلك لم يؤثر عليهم لذلك أمر بردهم بدون جواب .

وقام بيبرس أثر هذا بالاغارة على عكا ،فحاصرها عدة أيام لكنه عندما شعر بتعذر الاستيلاء عليها انسحب نحو صفد فأشرف على اكمال

ترميمها ((فعمر الباشورة وبنى فيها أبرجةوأسواقاوخانات،وحمامات فصارت بما أحدثه فيها من أحصن القلاع وأمنعها،وأطيب البقاعوأخصبها وكتب بيبرس على قلعة صفد بعدما جددها :

((ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون)) (الانبياء ١٠٥) (أولئك حزب الله الا أن حزب الله هم المفلحون) (المجادلة ٢٢) أمر بتجديد هذه القلعة وتحصينها وتكملة عمارتها وتحسينها من خلصها من أسر الفرنج الملاعين وردها الى يد المسلمين ونقلها من حوزة الديوية الى حوزة المؤمنين ،وأعادوا الى الايمان كما بدأ بها أول مرة ،وجعلها للكفار خسارة وحسرة ،واجتهد وجاهد حتى بدل الكفر بالايمان والناقوس بولاذان والانجيل بالقرآن ،ووقف بنفسه حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه بنفسه وبخواصه على الرؤوس . السلطان الملك الظاهر أبوالفتح بيبرس،فمن صارت اليه هذه القلعة من ملوك الاسلام ،ومن سكنها من المجاهدين ،فليجعل له نصيبا من أجره ولايخله من الترحم في سره وجهره ،فقد صاريقال عمر الله صرحها ،بعد ماكان يقال عجل الله فتحها ،والعاقبة للمتقين الى يوم الدين .

وعندما كان السلطان الظاهر بيبرس مقيما في صفد يعمل على اعادة بنائها وصله رسول من عند صاحب يافا يطلب تجديد الهدنة فرفض . وفي جمادى الاخرة لعام٦٦٦هـ/شباط/فبراير١٢٦٨م وصلت

بيبرس الاخبار بعزم المغول الاغارة على حلب ، فاستنفر قواته وقادها نحو غـزة ،وفي الوقت نفسه أمر باستنفار قوات دمشق وسواها وانتظار أوامر جديدة ،وتحرك جيش السلطان نحو دمشق ،وعندماوصل الى العوجـــا رفعت تقارير الى السلطان بأن أهل يافا ((يحملون الميرةالى عكـــا)) وكانت الميرة ممنوعة عن أهل عكا ،وأقاموا في يافا حانة،وأوقفوا فيهاعدةمن المسلمات ،واعتمدوا أسبابا ليست في هدنة ،وقرر بيبرس مهاجمة يافاوتحريرها ،وقبلأن يحرك قواته بعث اليها وفدا يطلـــب تسليمها اليه ،ثم مالبث.أن قاد قواته وهاجمها على حين غرة ،فتمكـن منها ثم زحف ضد قلعتها ((فسلمها أهلها)) في يوم ٢٠ جمادى الاخـــرة ٧ /آذار/مارس ١٢٦٨م ،وقام بيبرس باجلاء سكانها ،ثم أمربهدمهـــــا واكتفى باقامة بعض المحارس ونقاط الانذار على الساحل .

كان تحرير يافا آخر انجازات بيبرس وفتوحاته الكبرى في فلسطين لكنه لم يكن بطبيعة الحال آخر أعماله ضد الصليبيين في بلاد الشام، ولا حتى آخر نشاطاته في فلسطين نفسها ،وقام بيبرس بعدتحريره ليافـا بانتزاع حصن الشقيف من فرسان الداوية ، كما حرراجزاء هامة مـــن سواحل الشام ،وأمكنه تحرير مدينة انطاكية ،وبذلكأزال من الوجـــود ثاني دول الصليبيين تأسيسا في الشرق كماحرر قلعةحصن الاكراد فـــي منطقة حمـــص .

ففي سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م نفسها ضغط بيبرس بشدة على حصن الاكراد كماتهدد طرابلس وشدد الخناق عليها وبعدماموه على الفرنجةفي هـــذه المنطقة قسم قواته الى ثلاثة أقسام ،وجه فرقة منهانحو ميناء السويدية وفرقة ثانية نحوالدربسال ،ثم قاد بنفسه الفرقة الثالثةضد انطاكية . باتت انطاكيةمحاصرة ومنطقتها معزولة عن دولة أرمينيـةفي كليكية وعن البحر ،وخرجت قوات من أنطاكية اشتبكت بطلائع قوات بيبـــرس فهزمت ،وفي مطلع رمضان ٦٦٦ هـ/أيار١٢٦٨م شن بيبرس الهجوم علـــى انطاكية ، وتمكن جنده من تسلق الاسوار من الجهة الجنوبية ،ثـــم اقتحموها من جهات أخرى ،وقاتلوا المدافعين عنها ،ولجاالمدافعـون

عن المدينة الى القلعة وكان عددهم نحو ثمانية آلاف ،ولما لم يكن في القلعة مايكفي هؤلاء من مؤن طلبوا الامان فأمنهم بيبرس ،وبقي بيبرس في انطاكية يومين ثم أحرق قلعتها ،وقد أصاب الحريق أجزاء من المدينة ٠

واثر هذا استسلمت حصون دولة انطاكية كما طلب هيتوم صاحب كلكيلية الامان والمهادنة ٠

وتابع بيبرس نشاطاته في السنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م في بلاد الشام فهاجم طرابلس ، وانتزع صافيتا والمجدل من الداوية ، ثم زحف عسكره الى حصن الاكراد ،ونصبوا المجانيق وأقاموا الستائر ونقبوا أسواره الثلاثة ، ودخل العسكر حصن الاكراد بالسيف ،وأطلق الظاهر بيبرس من كان فيه من الافرنج ، فتوجهوا الى طرابلس ٠

وبفتح حصن الاكراد تفتحت المنافذ الى طرابلس نفسها، وقام بيبرس بترميم بناء الحصن ،واتخذه قاعدة لعملياته الحربية ضد طرابلس ٠

ثم رحل الظاهر بيبرس عنه بعد أن عهد الى الامير عز الدين أيبك الافرم بعمارته ، وخاف صاحب أنطرطوس أن تلقى مدينته المصير نفسه فبعث الى بيبرس يطلب المهادنة ،وأرسل اليه مفاتيح أنطرطوس فصالحه على نصف مايتحصل من غلال بلده ،وجعل بانطرطوس نائبا عنه فيها،ثم صالح بيبرس صاحب المرقب على المناصفة وهادنه .و في الحقيقة باتت قوات السلطان بيبرس تطبق على المرقب من الشمال والجنوب خاصة بعد أن افتتح المسلمون مرقية التي تقع جنوب المرقب ، وأثر هذا حاصر بيبرس حصن ابن عكار ، آخر حصون طرابلس الامامية ، في الشمال منها ونصب عليه المجانيق ،وأطلقها ،فهدم جزءا من السور ،فطلب أهل الحصن الامان على أنفسهم وأن يأذن لهم بيبرس بالتوجه الى طرابلس فأجابهم ،وبسقوط حصن ابن عكار انقطع الاتصال في الساحل الافرنجي بين طرابلس واللاذقية ،وأصبح بامكان بيبرس بعد ذلك أن يحاصر طرابلس نفسها ويحقق حلمه بالاستيلاء عليها ،ولكن الانباء القائلة

بتحرك حملة صليبية جديدة أنقذت طرابلس من المصير الذي لاقته انطاكية .

وكان القديس لويس قد أقلع في سنة ٦٦٩ هـ/١٢٧١م بحملة صليبية جديدة قادها ضد تونس ،وأخفقت هذه الحملة ولاقى الملك الفرنسي مصرعه والذي يهمنا ذكره هنا أن بعض الفرنجة وصلوا بسبب هذه الحملة الى عكا ، وهوماجعل قواتها تغيرمواقفها وتجدد نشاطاتها العداونية ضد المسلمين ولاسيما ضد صفد ، وكان الظاهر بيبرس مشغولا في المناطق الوسطى والشمالية من الشام ، وعندمافرغ من أعماله هناك توجه نحو فلسطين وقصد هذه المرة قلعة :القرين(Montfort) التي كانت تقع في تلال الجليل الغربية الى الشمال الشرقي من عكا وعلى مسافة ثلاثين كم عنها ((وكان حصن القرين هذا الاسبتار الالمان ولم يكن له بالساحل غيره ،وكان من أمنع الحصون وأضرها بصفد ،وكان السلطان نوبة فتوح صفد أغار عليه ،بل غار عليه أن يكون مثله للكفر ،فسار الى صفد وجهز منها المنجنيقات ،وساقها الى القرين ونازله)) وشدد عليه الحصار وبعد قتال دام عشرة أيام حرص المدافعون الاستسلام فتم الاتفاق معهم وتسلم بيبرس الحصن وأمر بتدميره .

وبعد سقوط القرين عقد بيبرس مفاوضات مع جون دي مونفرت John de Montfort صاحب صور انتهت الى عقد هدنة فرض بيبرس شروطها واضطر الى قبولها للتفرغ لعكا وللفرنجة حين وصلوا اليها في أواخر عام ٦٦٩هـ/١٢٧١م ،فقد أغار هؤلاء على بعض أراضي صفد ونهبوها ، ذلك أن بيبرس كان قد قصد القاهرة بعد تحريره القرين .

وازداد في عام ٦٧٠ هـ/١٢٧٢م نشاط فرنجة عكا ضد ممتلكات صفد كما عظم نشاط المغول في المناطق الشمالية من بلاد الشام وتم التنسيق بين الطرفين . وتحرك بيبرس باتجاه حلب ، واستطاعت قوات قاقون رد الفرنجة ودفعتهم عنها ،وبعدماعاد بيبرس الى دمشق ،خرج منها :

((واستصحب العساكر المصرية والشامية بغية الغارة على عكـــا فتوالت أمطار كثيرة ... وكاد الناس يهلكون لعدم مايستظلون بـــه فأثنى عزمه عن الاغارة ، ورد العسكر الشامي ،وسار الى الديار المصرية .

وفي القاهرة استقبل بيبرس رسل فرنجة عكا وتفاوض معهـــم وتم التوصل الى عقد هدنة مدتها عشرة سنوات وعشرة أشهر تبدأ مـــن ٢١ رمضان ٦٧٠هـ/٢٢آذار/مارس ١٢٧٢م ،وحلف كل طرف متعهدا بالالتزام والوفـــاء .

ويبدو أن بيبرس قبل بعقد هذه الهدنة لادراكه أن عكا لايمكـــن الاستيلاء عليها والدولة مهددة من المغول والمواصلات مفتوحة بدون توقف بين عكا وقبرص وأوربا ،وهولايملك قوة بحرية يمكنها مساعدة القوات البرية في حصار عكا ويبدو أن فرنجة عكا رضوا بعقد الهدنة لشـــراء سلامتهم سيما وقد برهن تحالفهم مع المغول على عدم جدواه .

بهذا الاتفاق ختم الظاهر بيبرس نشاطه العسكري ضد الفرنجة فـــي فلسطين . ولاشك أن ما أنجزه كان عظيما ، وليس من المغالات القـــول أن بيبرس استانف مسيرة صلاح الدين ،وان أعماله كانت متممة لماشرع به صلاح الدين بعد حطين وتوقف بسبب الحملة الصليبية الثالثة ووفاتـــه المبكرة . ويأتي الظاهر بيبرس بماحققه من نجاحات عظمى في المرتبـــة نفسها التي احتلها : عمادالدين زنكي . ونورالدين محمود ، وصـــلاح

الدين الايوبي ،ذلك أن زنكي قاد أعمال التحرير الاولى في مرحلة الموصل ،ونورالدين محمود قاد أعمال التحرير والوحدة في مرحلة حلب وصلاح الدين قاد مرحلة دمشق وحقق النصر في حطين ،وبيبرس الان قاد مرحلة القاهرة واعمال تصفية الوجود الصليبي في فلسطين والشام .

وتوفي بيبرس سنة ٦٧٦هـ /١٢٧٧م وهو في ذروة نشاطه ، ولعله سقي السم .وقد دفن في دمشق ليس بعيدا عن قبر صلاح الدين . ذلك أن أبطال المراحل الاربع قد دفنوا في أرض الشام . وحظي بيبرس بمكانة لدى أهل الشام ومصر لم يحظ بها سواه من سلاطين المماليك ،الى حد أن أخباره تحولت الى ملاحم شعبية امتزجت فيها حقائق التاريخ بالخيال

القصصي الملحمي • فهنالك أكثرمن ملحمة متداولة تحت اسـم السـيرة الظـاهرية أو سيرة الملك الظاهر• وتصورهذه الملاحم مشاعر شعب تعلـق دومابالارض في عصر شهد أعظم الاعمال في سبيل التحرير• ولاعجب فـي ذلك • صحيح أن بيبرس قاد رسميا قوات المماليك المحترفة لكـن حجم المتطوعة في حملاته لم يكن أقل عددا ولادورا من المماليك مع الاخـذ بعين الاعتبار أن الشعب العربي في الشام ومصر هو الذي تحمـل أوزار الحرب ونفقاتها وصنع السلاح والعتاد وبني القلاع وقدم الاداريين وسواهـم •

وكان بيبرس قد خطط قبل وفاته الى انتقال الملك من بعده الـى ابنه الملك السعيد بركة ،وهذا ماحدث ،فما أن وصلت الاخبار الـى القاهرة حتى جرت بيعه بركة بالسلطنة ،وكان شابا في مقتبل العمـر تنقصة الخبرة والتجربة ،لهذا واجه المشاكل وعاش وسط الصراعـات ووجد نفسه بعدبضعة أشهر من تسلمه السلطنة مضطرا الى التنازل عنهـا لصالح أخيه سلامش وكان طفلا ابن سبع سنوات فقط •

ورست مقاليد السلطة الان فعليا بيدي الامير قلاوون الالفـي واستغل قلاوون فرصته أحسن استغلال ، فزج بمعارضيه في السجن وتخلـص من مناوئيه ،ثم عزل السلطان الطفل وتسلم السلطنة بلقب المنصور•

وهكذا زالت أسرة الظاهر بيبرس ، وحل محلها أسرة قلاوون التـي حكمت دولة المماليك لمدة تقارب القرن من الزمن • ووجد قـلاون بعـض المصاعب وواجه أعمال المعارضه فتغلب عليها ،ولكن بعدما استغرقـت معظم أوقاته ،وكان لذلك الوضع آثاره على العلاقات مع الصليبيـين في عكا وبقية أجزاء بلاد الشام •

وتوجه السلطان قلاوون سنة (٧٦٩ هـ/١٢٨٠م نحو بلاد الشام وركـب الطريق الساحلية ، وعسكر أثناء سفره في الروحاء على السواحل علـى مقربة من عكا ، وهناك وصلت اليه رسل الاسبتارية ((يسألون تقريـر الهدنة والزيادة على الهدنة الظاهرية)) وأجابهم قلاوون الى مطلبهـم وعقدت هدنة مجددة بين قلاوون وابنه وولي عهده علي من جهة وبيـن

نقولاس لورجن Nicholas Lorgne مقدم بيت الاسبتار وجميـــع الاخوة الاسبتارية بعكا ((لمدة عشرسنين كوامل متتابعات وعشرة أشهـر وعشرة أيام وعشرساعات ، أول ذلك يوم السبت ثاني عشرالمحرم)) سنـة ٦٨٠هـ /٢٣ أيار/مايو١٢٨١م

وبعد مضي قرابة الشهرين من توقيع الهدنة ،تم التوصل الى هدنـة ثانية بين قلاوون من جهة وبوهموند صاحب طرابلس من جهة مقابلة لمدة عشرسنوات أيضا مع عشرة أشهر وعشرة ايام وعشر ساعات اعتبارا من يوم ٢٧ ربيع الاول ٦٨٠هـ/٥ تموز/يوليو/١٢٨١م .

ويلاحظ أن الهدنة التي عقدت مع اسبتارية عكا ،شملت أفراد هـذه المنظمة فقط ولم تشمل بقية قوى الصليبيين وموءسساتهم في عكـــا وبناءعليه جرت مفاوضات بين السلطة المملوكية وبين الداوية انتهـت بعقد اتفاقية هدنة مماثلة بين ((السلطان الملك المنصور وولده الملـك الصالح علاءالدنيا والدين علي وبين المقدم أفريركويوم ديباجوك Frere Guillaume de Badjouk مقدم بيت الداوية بعكا والساحـــل وبين جميع الاخوة الداوية .. لمدة عشرة سنين كوامل متواليـــات ومتتابعات وعشرة شهور ،أول ذلك يوم الاربعاء خامس المحرم سنـــة احدى وثمانين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية)) ١٥نيسان / ابريـل ١٢٨٢م

لقدكانت قوى أوروبا ممثلة في عكا ،وبعدماعقدالداوية والاسبتارية الهدنة مع السلطنة بات من الضروري عقد هدنة جماعية باسم عكا بمافـي ذلك المنظمات التي كانت فيها. وبالفعل توجه وفد الى القاهرة مثــل قوى عكا الصليبية ومنهاالداوية والاسبتارية ، وبعدمفاوضات تم التوصل الى عقد هدنة بين ((السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الصـالح علاء الدنيا والدين علي... وبين الحكام بمملكة عكا وصيدا وعتليــت وبلادها)) وأبرم الاتفاق في ٥ ربيع الاول ٦٨٢هـ /٣حزيران/يونيو١٢٨٣ /م وكانت أهم بنوده :

١- مدة الهدنة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام ؛
٢- منع التجار من رعايا السلطان الامن وحرية العمل التجاري في عكا والبلاد الساحلية .
٣- توقف الفرنجة عن الاعتداء على أراضي دولة السلطان .
٤- لايجدد الفرنجة في عكا وعتليت وصيدا حصنا ولاسورا .
٥- تبادل الرعايا الفارين ضمن شروط محددة .
٦- حرية الملاحة وتقديم العون للسفن الجانحة والمحافظة على محتويات السفن لتسليمها الى أصحابها أومن يلوذ بهم .
٧- يتولى فرنجة عكا انذار السلطان واعلامه بأي تحرك أوروبي مضاد له وكذلك بالنسبة لتحركات المغول .
٨- يضمن السلطان حماية عكا وعتليت من اعمال القرصنة -
٩- السماح للحجاج الاوروبيين بالوصول الى الاماكن المقدسة وضمان أمنهم وسلامتهم وحرية تعبدهم .

ويبدو أن أوضاع السلطنة الداخلية وتعاظم الخطر المغولي واشتداده هي التي أجبرت السلطان قلاوون على توقيع هذه المعاهدة وغيرها، فقد أغار المغول على الشام ووصلت قواتهم قرب حمص سنة ٦٨٠ هـ/١٢٨١م، كما أن قلاوون قد واجه في تلك الآونة حركة تمرد خطيره ضده في دمشق قادها سنقر الاشقر واستمرت أعمال التآمر ضده دونما توقف ، واستمرت حالة الهدنة حتى سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م ،وفي نهاية هذا العام نقض فرنجة طرابلس الهدنة حيث أقدموا على نهب مجموعة من التجار المسلمين، وأسروا عددا منهم ،وحين وقع هذا كانت أوضاع السلطنة مستقرة وجيوشها جاهزة، لذلك ما أن بلغ السلطان خبر ماحدث حتى زحف نحو طرابلس على رأس قوات الشام ومصر، ونزل عليها وحاصرها حصارا شديدا حتى أخذها عنوة في ٤ ربيع الاخر ٦٨٨هـ/٢٤/نيسان/ ابريل ١٢٨٩م .

وبتحرير طرابلس زالت من الوجود المملكة الرابعة التي أسسها الصليبيون في المشرق ،وأكمل السلطان قلاوون بذلك ماقام به زميله ورفيقه في السلاح من قبل السلطان الظاهر بيبرس ولم يبق الان للصليبيين

سوى عكا . وكان لابد من انتظار الفرصة المناسبة للزحف عليها وتحريرها

لقد غدت عكا تحت رحمة السلطان قلاوون ، كما أنه كان لسقوط طرابلس أصداء واسعة في أوروبا ،وسعت البابوية الى اثارة حملة صليبية جديدة ،لكن جهودها لم تثمر الا قليلا .

وكانت عكا قد استولى عليها سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م هنري الثاني ملك قبرص ، وتوج بها ملكا ، وتجددت الاتصالات المغولية الصليبية ،وبذلت الجهود للقيام بعمل صليبي مغولي مشترك ، وأثمرت هذه الجهود كلها باستجابة بعض ((رعاع الفلاحين والمتعطلين من سكان المدن الصغيرة)) في شمالي ايطاليا ،وقدم هؤلاء الى عكا تحت قيادة اسقف طرابلس سابقا .

وكان الملك هنري الثاني جدد الهدنة مع السلطان قلاوون وبعث هذا كله بعض الامل في عكا ،لكنه لم يتعد الشكل السرابي ،وكان سقوط طرابلس وقدوم النجدات من أوروبا واستمرار النجدات من قبرص قد زاد من حجم سكان مدينة عكا ،وبالتالي رفع من قدرتها العسكرية .

((واجتمع داخل أسوار عكا طوائف تمثل مختلف الامم المسيحية وعاشت كل طائفة منعزلة عن الاخرى في حي خاص بها ،وأخذ كل واحد من قادة المناطق في الشام ومقدمي الاخوانيات العسكرية الكبرى وممثلي ملوك فرنسا وانكلترا والقدس ،يمارس سلطات مستقلة ،وعلى هذا كان في عكا سبع عشرة سلطة مستقلة، الامر الذي نجم عنه فوضى كبيرة)) .

ولذلك لاغرابة أن المدينة غدت بؤرة فساد وشرور وانحطاط خلقي واضطراب مستمر ،ورخاء مادي كبير وأرباح تجارية خيالية ،فمقر الداوية لم يعد ديرا للفرسان ولتقديم الخدمات بل مستودعا للاموال والذخائر وبنكا للاقراض بنسب فائدة عالية جدا .

وقام القادمون الجدد من الايطاليين باثارة المزيد من الفوضى والاخلال بالامن وأخذوا يسلبون وينهبون التجار والباعة من المسلمين، وكان هنالك صراع مرير بين البيوتات التجارية التابعة لجنوا والبندقية وسواهما .

وفي صيـــف سنة ٦٨٩ هـ /١٢٩٠م انفجرت أعمال العنف في عكـــا ، ووجهت هذه الاعمال ضد المسلمين داخل المدينة وخارجها وقـــد ذبـــح الصليبيون كل مسلم صادفوه ونهبوا ماكان معه من مال وبضائع .

ووصلت أخبار المذبحة هذه الى السلطان قلاوون فاشتعل غضبـــا واعتبر أن فرنجة عكا قد خرقوا اتفاق الهدنة . وانه يملك جميـــع المسوغات لاعتبار الهدنة ملغاة . وسارع قلاوون فأرسل تجريدة من قواته نحو منطقة عكا لاستطلاع خبر ماحدث . ولتثبيت الوجود المملوكي فـــي المنطقة ،وفي الوقت نفسه أصدر أوامره بحشد جميع القوات في الشـــام ومصر، وجرى فرض الضرائب على قرى غوطة دمشق وبعلبك في سبيل تحصيل الكميات اللازمة من الاخشاب لصنع المجانيق والابراج المتحركة وغيرهـــا من أدوات الحصار .

وتناوشت تجريدة قلاوون مع قوات عكا ،وسارعت سلطات عكا الى مراسلة السلطان وتقديم الاعتذار له . ثم أعقب ذلك وصول رسله الى عكا حيث طالبوا باصرار على تسليم الذين تولوا أعمال القتل والمذابح..... وبعد طول مناقشات لم يستجب لمطلب السلطان فحسب ،بل حاول المسؤولون في عكا اقناع رسله بأن بعض تجار المسلمين هم الذين فجروا الفتنة .

وملك قلاوون الان جميع المسوغات للا حتكام الى السلاح ،وهكذا زحف على رأس قواته يريد عكا وصدرت الاوامر الى قوات الشام للاجتماع مع قوات السلطان قرب قيسارية .

وكان قلاوون قبل مغادرته القاهرة مريضا ، لكن مرضه لم يثنه عن مقصده غير أنه ما ان غادر القاهرة حتى اشتد به المرض فتوفي.وكان ذلك يوم٦ ذي القعدة ٦٨٩هـ/١٠ تشرين الثاني /نوفمبر١٢٩٠م .

وتنفس أهل عكا الصعداء وخيل اليهم أنهم نجوا ،وكتبت سلامتهم لكن لبعض الوقت . فعلي بن قلاوون ، وولي عهده ،كان قدتوفي من قبل وعزم قلاوون على تسمية ابنة خليل وليالعهده لكنه تراجع . وتوهم الصليبيون أن صراعا سينشب على السلطة كماجرت العادة وبالفعل جرى شيء من هذا القبيل ،لكن خليل بن قلاوون برهن على قدرات واسعة وطاقات كبيرة ،واستطاع الاشرف خليل السيطرة على الاوضاع وتثبيت قدميه بالسلطة . والتفت على الفور نحو عكاعازما على متابعةماشرع به والده قبله .

وأرسلت سلطات عكارسلا الى الاشرف خليل لتهنئته بارتقائه عرش السلطنة ،وللاعتذارله عماحدث في عكا مع طلب تجديد الهدنة. لكن الاشرف لم يستمع لماجاء به الرسل والقى بهم في السجن فكان آخر العهد بهم ،وعبربذلك عن تصميمه على قصد عكا بجيوشه .

لقدحشد الاشرف قوات عملاقة ،وأعدالاسلحة والمعدات ولاسيماالمجانيق وابراج الحصار ،وتحركت القوات نحو عكا في ربيع الاول ٦٩٠هـ/آذار/مارس ١٢٩١م ،وكان المؤرخ المشهورأبو الفداء بين أفراد القوات التي تحركت من حماه نحو عكا،ويحدثناعن زحف القوات وعماعانته اثناءذلك بقوله :

((وتسلمنامنه (حصن الاكراد) منجنيقا عظيما يسمى المنصوري حمل مئة عجلة ،ففرقت في العسكرالحموي ،وكان المسلم منه الى عجلة واحدة لاني كنت اذ ذاك أميرعشيرة ، وكان مسيرنا بالعجل في أواخر فصل الشتاء ،فاتفق وقوع الامطار والثلوج علينا بين حصن الاكراد ودمشق فقاسينا من ذلك بسبب جر العجل وضعف البقر وموتها بسبب البرد شدة عظيمة ، وسرنا بسبب العجل من حصن الاكراد الى عكا شهرا وذلك مسير نحو ثمانية أيام للخيل على العادة ،وكذلك أمر السلطان الملك الاشرف بجر المجانيق الكبار والصغار مالم يجتمع على غيرها .

وكان تعداد القوات التي تجمعت أمام عكا كبيرا ((معها اثنان وتسعون منجنيقا)) من مختلف الانواع و الاحجام وبعدما اكتمل تجمع القوات وتجهيز المعدات صدر صباح الجمعة ١٧ جمادى الاولى ٦٩٠ هـ / ١٨ أيار/مايو ١٢٩١م الامر بالهجوم بوساطة قرع كمية هائلة من الطبول

وأدوات موسيقى الحرب رتبت على ظهور ثلاثمائة جمل .

وفي داخل عكا كان الصليبيون قدأعدوا العدةللدفاع ولنتذكــــر هنا أن المدينةحوصرت من جانب البر فقط وبقيت غيرمهددة من الجانبيـن البحريين وكانت النجدات والموءن والمعدات تصلهابلا انقطاع من قبــرص وسواها ،ولهذا ((لم يغلق الفرنج أبوابها (عكا) بل كانت مفتحة وهـم يقاتلون فيها)) .

واشتد الحصارونشط المسلمون في قصف أسوار المدينة وفي فتـــح الثغرات فيها ونقب الابراج .وقاوم الفرنجة ،وقام فرسانهم بأكثـرمن هجوم ليلي على معسكر المسلمين . ويحدثنا أبو الفداء عن المقاومـــة بقولــــه :

((فكنا على جانب البحر، والبحر عن يميننا اذا واجهنا عكا، وكان بحضرالينا مراكب مقببة بالخشب الملبس جلود الجواميس، وكانوا يرموننا بالنشاب والجروخ، وكان القتال من قدامنا من جهة المدينة ومن جهة يميننا من البحر، وأحضروا بطسة (مركبا) فيها منجنيق يرمي علينا وعلى خيمنا من جهة البحر. فكنا منه في شدة)) .

ونجح المسلمون بعد حصار استمر قرابة الشهر ونصف الشهر في خرق الاسوار ودكها وشقوا طريقهم الى داخل المدينة :

((ولما هجمها المسلمون هرب جماعة من أهلها في المراكب، وكان في داخل البلد عدة ابراجة عاصية بمنزلة قلاع دخلها عالم عظيم من الفرنج وتحصنوا بها)) .

ودار قتال عنيف داخل طرقات عكا، وتسابق الفرنجة نحو ميناء المدينة، وتزاحموا على الارصفة، ويبدو أن عدد المراكب لم يكن كافيا وقاتل فرسان الداوية دفاعا عن حصنهم في المدينة، وقبل أن يسقط حصنهم :

((تمكن أحد عشر واحدمنهم من الهرب من باب سري، وصعدوا الى ظهر مركب كان بانتظارهم وحملوا معهم جميع الثروات التي جمعوها في الشرق خلال قرنين من الزمن)) .

وبعدما صفت عكا للمسلمين أمر السلطان الاشرف الخليل بتدميرها حسب القاعدة التي كان السلطان الظاهر بيبرس قد طبقها، وما أن وصلت أخبار تحرير عكا الى المناطق الساحلية التي كانت ماتزال بأيدي الفرنجة مثل عتليت وصدا وصور وبيروت ((حتى ألقى الله الرعب)) في قلوب أهلها فأخلوها وهربوا .

بذلك طويت ملحمة الحروب الصليبية، وهي بلاشك من أعظم ملاحم التاريخ وأطولها. استمرت وقائعها مدة تقارب القرنين من الزمن واشتركت فيها أوروبا كلها بشعوبها وطاقاتها. ولوقائع هذه الحروب دروس وعبر ونتائج خطيرة على المشرق العربي وأوروبا سواء من الجوانب السياسية والاقتصادية والحضارية والعسكرية كافة .

* خاتمة *

في دمشق وحلب والموصل والقاهرة طور العرب زمن الحروب الصليبية فنونهم الحربية وصناعة الاسلحة ،واخترعوا الكثيرمن الاسلحة الجديدة وتحفل المكتبة العربية بالكثيرمن المؤلفات عن السلاح وفن الحرب كلها تعود الى هذه الفترة .

وبعدماطرد الصليبيون من المشرق ،وزال خطرالمغول بدأت قوة العرب وحضارتهم بالتدهور السريع والجمود ،بينمابعثت في أوروبة التي خسرت الحروب الصليبية حضارة سببت لها القوة وقادتها من جديد نحو ديار العروبة والاسلام .

ويتساءل الباحث عن أسباب انحطاط العرب مع أنهم حازوا النصر وبعث أورية مع أنها كانت المهزومة ؟ ولعل من أسباب أن أوروبة الاقطاعية الشديدة التمسك بالكاثوليكية حين خسرت الحرب كانت تلك الخسارة ضربة مميتة للنظام الاقطاعي والكنيسة معا في أوروبة، وفي المقابل نجد أن الحروب الصليبية التي طال أمدها قد مكنت في البداية القادة العسكريين في الشرق المسلم من تسلم زمام الامور وساعدت على التعصب الديني ،وخلقت الى جانب الاقطاع العسكري اقطاعا دينيا كان جديدا كل الجدة في تاريخ الاسلام ،ومع الايامزادت صلاحيات الجند على حساب المؤسسات المدنية ، وترسخت قواعد أنظمة للكهنوت الاقطاعي في الاسلام ، وعندما توقفت الحرب أصبح الجند عالة على الامة ،ثم أن الشعور بالنصر والسلموالامان بعدعهود طويلة من الحروب والدمار ،مع زوال عوامل التحدي دفع العرب نحوالاخلاد الى الراحة والسكينة ،والى قبول نوع جديد من التمزق السياسي ،وحيث انالامة قد وجهت أيام الحروب معظم طاقاتها ،ورصدت كافة امكاناتها المادية والعقلية للمعركة،فقد عطل هذامع الايام الكثير من جوانب الحياة الثقافية ،والحضارية وولد مع الاقطاع الديني والعسكري التعصب والتزمت والاحتكار .

ان اهمال الحضارة والثقافة والتعصب الاعمى كان ومازال آفة العرب الكبرى ، ومعلوم أن العرب لم يتمكنوا قط من صنع حضارة وثقافة وهم ممزقون ، لكنهم كانوا كلما اتحدوا وتسامحوا بعقل ومنطق صنعوا كل شيء ، ففي الوحدة الهادفة الواعية كمن - ولايزال يكمن سر نهوض العرب وقوة المسلمين .

! ! ! ! ! !

صراع على ضفتي البحر

الدكتور محمد حرب فرزات
جامعة دمشق

عندما دعيت الى التحدث عن نهاية الحروب الصليبية وخروج آخر الفرنجة من عكا قبل سبعمائة عام)) أحجمت أول الامر، قبل أن تدور في الذهن خواطر ودوافع تجعل الحديث عن عكا ونهاية الصراع في مرحلة ما من العصور الوسطى على شواطئ المتوسط الشرقية ،حديثا يتصل بالتاريخ كله في قديمه ووسيطه وحديثه على ضفاف البحر الذي يتوسط العالم القديم الذي قامت حضارتنا عليه وعشنا على شطآنه . فانطلاقا من هذه الخواطر وما تثيره من تأمل للصراع على ضفتي البحر يدور هذا الحديث .

ان الحديث أمامكم ، أيها السيدات والسادة في هذه الامسية يراد له أن يكون استعراضا للذاكرة التاريخية في محاولات متداعية ومتصلة للتذكر والتذكير وللتفكير ،في طواف واسع دون حدود للزمان وللمكان في هذا العصر العالمي الذي تجري فيه تصفيات مقلقة لحسابات الماضي ويتكرر فيه عدوان قاتل على التاريخ بعد العدوان على الارض والانسان، ولاسيما على بلادنا العربية وقلبها بلاد الشام ومنها أرض فلسطين ،التي تعرضت لعدوان الغرب الفرنجي في العصور الوسطى كما تتعرض لعدوان الحلف الغربي الصهيوني في العصر الراهن .

وانه ليسرني أن أتوجه الى الاخوة الزملاء في الجمعية التاريخية بحمص بالشكر والتقدير لتوجيه الدعوة الى اتحاد الكتاب العرب للمشاركة في هذه الندوة حول الحروب الصليبية ، ويسعدني أن أتكلم باسم اتحاد الكتاب العرب أمام هذا الحفل الكريم في هذا المركز الثقافي المشع ،وفي هذه القاعة التي تحمل اسما عزيزا علينا، اسم المفكر الاديب الدكتور سامي الدروبي ، من نوابغ حمص ، التي أحمل لها في قلبي أعمق الذكريات الجميلة وأطيبها منذ قدمت اليها في مطلع حياتي للعمل في التعليم في مدارسها الزاهرة .

١ - ماذا حدث قبل سبعمائة عام ؟

يتحدث المؤرخون في المصادر العربية ،ومنهم أبوالفداء (في المختصر) ،وكان شاهد عيان للحدث الجلل ، عن ذلك اليوم المشهود في تاريخ العرب ، يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الثانية ٦٩٠ هجري السابع عشرمن-حزيران ١٢٩١ م عن اليوم الذي دخلت فيه جحافل المحررين من جيوش الشام ومصر ، مدينة عكا المحاصرة ، ويذكرون كيف أسرع الملك هنري ومعه معظم نبلاء الفرنج وأشرافهم للفرارمن المدينة وصعدوا السفن على عجل لينجوا بأنفسهم وليلوذوا بملجأ الغزاة المندحرين في قبرص ، ويروي المؤرخون ماتبع ذلك من دماركبيروحرائق هائلة .

كانت عكا ضحية عدوان الحلف الاوربي الفرنجي على بلاد المشرق العربي في الحملة الصليبية الاولى ، وبعد أن استولى عليهابودوان الاول في ١١٠٤ حررها صلاح الدين بعد حطين عام١١٨٧ ولكن الصليبيين استطاعوا استردادها عام١١٩١ ، وبقيت قرنا تحت حكم الفرنجةالى أن تم تحريرها المظفر عام١٢٩١ . وكان فتحا عظيما ونظرا موءزرا ألقى الرعب في قلوب الفرنج الذين كانوا مايزالون يعتصمون بمواقعهم على ساحل الشام وعجلوا بعد ذلك في الجلاء عن الساحل الشامي كله فتحررت على اثر ذلك بيروت وصيدا وصور وسائر المدن الاخرى ، وعادت البلاد الى أصحابها بعدأن عانت أجيال من الناس أشد المعاناة واحتملت أقسى الآلام .

ولقد اجتاز العالم العربي الاسلامي في القرن الثالث عشرمحنا لم يسبق أن تعرض لمثلها من قبل فابتليت الامة ،كما ذكرأبن الاثير المؤرخ بوضوح صارخ ،بمصائب لم يبتل بها أحد من الامم ((الكامل في التاريخ ج ٩)) ، منها: هؤلاء التتار الذين أقبلوا من الشرق ومن خروج الفرنج من الغرب ثم دعا الله قائلا:((نسأل الله نصرا من عنده))

ولقد اجتاح بالفعل هؤلاء التتار بلاد الخلافة الاسلامية الشرقية ودخلوا عاصمتهابغداد كما دمروا حلب ودمشق أما هؤلاء الفرنج فكانوا

على أهبة فتح دمشق بدورهم واحتلال كل بلاد الشام ومصر.
واشتد الخطر الماحق وبلغ ذروته في منتصف القرن الثالث عشر قبل سبعة قرون .

ولكن عجلة التاريخ دارت دورتها ، فاندحر المغول عند عين جالوت قرب بيسان في ١٢٥٩ ، ثم احتوت الحضارة العربية الاسلامية سريعا وفي جيل واحد القوات العسكرية المغولية الغازية بعد استقرارها في مجتمعات عريقة في أرض ايران والهند، وطرد الفرنجة من كل بلاد الشام وتحرر الساحل بأكمله في ثلاثين سنة عام ١٢٩١ م.
وعاد الساحل الشامي ليلتصق بتاريخ الشام وجغرافيتها مرة أخرى وليحتمل معه مصائرها وأقدارها حتى عندما خرج الامرمن أيدي العرب قرونا ، ولكن أسوار عكا وبروجها عرفت بعدئذ جهاد أهلها وكفاحهم عندما ارتد عنها أمام البطولة الفذة والبسالة الفائقه أعظم قادة أوربه الفاتحين في التاريخ الحديث ، نابوليون بونابرت ، لتتكسر مع انكسار أحلامه رؤى اسكندرية قيصرية ولكي تؤجل الى حين مكائد كانت تحاك على أرض الغرب لاقتناص الشرق الغربي الذي كان قد أنهكه الصراع الرهيب في القرون الخالية فأسلم قياده للباشاوات والرؤساء من المماليك والترك وعندما دخل العرب في طور النهضة في خطوات متعثرة منذ أواخر القرن التاسع عشر كانت أوربة الاستعمارية قد حزمت أمرها واتخذت عدتها للعودة الى الشرق العربي ولكن بطرق مبتكرة وبأساليب جديدة متجددة .وهكذا سقطت فلسطين مرة أخرى تحت الاحتلال الاوربي البريطاني - الصهيوني عام ١٩١٨ الذي أقام في البلاد حكومة فلسطين المعترف بها دوليا بموجب شرعة الانتداب الى أن سلمت عكا للاحتلال الاسرائيلي عام ١٩٤٨، أمام أنظار كل سدنة الشرعية الدولية وأدعياء حماية حقوق الشعوب في تقرير مصيرها، وبتجاهل فاضح ،لموقع عكا في خريطة قرار التقسيم الجائر الذي يجعل عكا في الدولة الفلسطينية العربية لافي الدولة اليهودية .

وتصرخ عكا اليوم مستنكرة بحق شهادة التاريخ هويتها المزيفة

المنشورة في أطالس التاريخ والجغرافية وفي مصورات الغاصبين وخرائطهم وتستصرخ ضمير التاريخ المقهور لكي يعيد اليها هويتها الحقيقية العربية الفلسطينية كما استردت هويتها في الماضي بعد اغتصاب دام قرنين .

والتاريخ يجيب :

اسم (عكاء) عربي وفي المعاجم ليلة عكه شديدة الحر مع لثق أي كثرة ندى وبلل ، واحتباس ريح ، فلعل اسمها يعبر عن ظرفها المناخي المتأثر بموقعها على خليجها الجميل .

والتاريخ يقول : ان عكا العتيقة العريقة تختبىء في تل أثري عظيم يعرف باسمه العربي (تل الفخار) الذي يضم في أحشائه آثار مدينة كنعانية فينيقية كانت ذكرت في وثائق ونصوص مصرية تعود الى زمن الدولة الوسطى (نحو١٨٠٠ ق.م) والى زمن تحوتمس الثالث الذي وجد في القرن الخامس عشر (ق.م) صعوبة كبيرة في اخضاعها.

وأشارت اليها نصوص آشورية وتوارتية ويونانية ورومانية وقد ورد ذكرعكا في نصوص رسائل العمارنة (القرن الرابع عشر/ق.م/) ، ومنها يتضح الدور الدبلوماسي الذي قام به حكام عكا في السياسة الفلسطينية وفي معمعة التنافس الدولي على أرض سورية وفلسطين بين القوى الكبرى : مصر الفراعنة ، وآسية الصغرى الحثية . وكان لعكا علاقات مع مدن الساحل السوري ومع أجاريت أهم مدن الساحل السوري في ذلك الحين والتي عرفت بسياستها الواقعية العملية في ظروف الصراع الدولي ،ولعل تقلب دورعكا هو الذي جر عليها نقمة الفرعون رعمسيس الثاني الذي فتحها في القرن الثالث عشر (ق.م) .

لقد أضعف الصراع الاقليمي دول المشرق القديم وزاد الانقسام بين الدول الصغيرة ولكن المدن الفينيقية على الساحل السوري وممالك المدن الارامية في الداخل بقيت قوية واستطاعت أن تضع حدا لمطامع التوسع المبكرة في ذلك العصر القديم ،واضطر الملك سليمان نفسه في القرن العاشر(ق.م) أن يتخلى عن عكا لمملكة صورالغنية والقوية عروس الساحل الشامي قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام .

ويقول تـاريخ عكا أن المدينة عرفت كل الادوار التي مرت بهـــا أرض الشام سوريه وفلسطين بمواجهة الامبراطوريات الفاتحة والشاملـــة آشور وبابل وفـارس ومقدونية ٠

وصارت عكا بعد ذلك موضع تنافس بين الدول التي قامت علـــى أنقاض امبراطورية الاسكندر ،فبعد أن دمرها بطلميوس الاول ملك مصـــر في أواخر القرن الرابع (ق٠م) أعاد بطلميوس الثاني بناءها ورمـــم ماكان بقي منها وسماها بطلمايس (Ptolmais) ٠

وبعد أن انتقلت الى الادارة السورية السلوقية في القرنين الثاني والاول (ق٠م) ، عرفت شيئا من الاستقلال الذاتي في العصر الرومانـــي بعد الغاء المملكة السورية السلوقية وبعد ضم ماتبقى منهـــا الـــى الامبراطورية الرومانية في القرن الاول(ق٠م) فجعلت عكا بعدئـــذ مستعمرة رومانية ٠

وتجري في عكا تنقيبات أثرية منذ العام ١٩٧٣ وكشف منها النقـــاب عن ثلاث عشرة سويـة أثرية تتابعت دون انقطاع من البرونز المتوسط BMIIa (أي من القرن الثامن عشر حسب تاريخ ألبرايت) وحتى بدايـــة القرن الثانـــي ٠

ومن أهم الكشوف في عكا أجزاء من أسوار العصر الهلنستي(البطلمي السلوقي) ولكن لم يعثر الا على بقايا مساكن خاصة وكثير من الفخـــار متنوع المصادر مما يؤكد الصلات التجارية الواسعة مع البلاد السوريـــة الفلسطينية المجاورة ومع قبرص ومع بلاد بحر ايجة في العصر الموكينـي في عصر البرونز الحديث الثاني (BRII) (أي من القرنين الرابع عشر والثالث عشر، قبل قدوم شعوب البحر) ٠

وهكذا يتضح لنا أن عكا التي باحت بسرها الدفين ماتزال تحتفـظ ببطاقة هويتها الحقيقية على الرغم مما مر عليها من نكبات ومالحق بها من عبث مشين بالقيم المضيعة وبالتراث المنهوب ، فكيف لاتكـــــون اذا مدينة عربيـــة ؟ ٠

(عكـا : مراجــع آثريـــة

Bibliog

M.Dothan. "Akko"BASOR 224(1916)1-48

M.Dothan. "Les fortifications de Ptolemais"(1976)

H.Seyrig in Syria 39(1962),193 - 207 .

وفي هذا العصرالحديث والتاريخ العربي القريب عادت عكافي لمعات بارقة قصيرة من عمر هذا الزمان القلب الى الحكم العربي المصري بين ١٨٣٢ ١٨٤٠ شأنها شأن بلاد الشام التي خاضت مع مصر في مغامرة التخلص من الحكم العثماني قبل أن يتمكن الحلف الاوربي الغربي مرة أخرى من شق الصفوف ورسم الحدود بين أقطار المشرق العربي وفرض اعادة السيطرة التركية حتى١٩١٨ ،وفي صحيفة منسية من صحائف التاريخ المقهور تطلعت عكا الى قلب الشام النابض الى دمشق فاشترك ممثلوعكا المنتخبون في المجلس التأسيسي السوري الاول (المؤتمرالسوري) عام١٩٢٠ كغيرهم من ممثلي مدن فلسطين بوضع حجر الاساس للدولة العربية السورية الفتية قبل أن يئد الحلف الاوربي الغربي(البريطاني ـ الفرنسي ـ الصهيوني) تطلعات جيل الروادالى مشروع الدولة العربية تمهيدا لتنفيذ المشروع الصهيوني المرسوم في وعد بلفور ١٩١٧ وصكي الانتداب البريطاني ـ الفرنسي ١٩٢٠/ المشروع البديل في هذا العصرلمشروع قديم ، لمشروع الغزو الاوربي الفرنجي الفاشل والمدجول خلال العصور الوسطى لبلاد الشرق العربي وكل الحوض الشرقي للمتوسط .

فماهي حقيقة هذا المشروع القديم ؟

٢ـ ان الحروب الصليبية : غزو أوربي غربي لبلاد الشرق العربي في العصور الوسطى .

وتعرف هذه الحروب الصليبية بانها حملات عسكرية نظمها الغرب المسيحي بزعامة البوباية وأمراء دول الغرب الاوربي بزعم العمل على تخليص قبر المسيح عليه السلام من المسلمين وللرد على مزاعم التعصب الديني في الشرق ضد غير المسلمين .

الا أن هذه الحروب لم يكن لها من اسمها نصيب ،ولاتعدوا أن تكون عدوانا على القيم الانسانية والروحية.

واستمر الصراع المعلن مدة قرنين (١٠٩٦ -١٢٩١) وهو الذي بدأ باحتلال انطاكية وانتهى بتحرير عكا. فهل كانت تلك الحروب من أجل تلك الاهداف المزعومة؟ - ان قراءة أخرى للتاريخ تبين بجلاء أن للصراع وجها آخر.

يشكل هذا الصراع الذي لم يشهد حوض البحر المتوسط ولا العالم من قبل مثيلا له جزءا من أهم صفحات التاريخ الانساني ،ولكنها من أكثرها قسوة وايلاما ومن أشدها مضاضة واعمقها تجريحا ،كشفت بمرارة عن السقوط المريع للنفوس الخبيثة التي تدرعت بدرع الحق للسير في طريق الضلال،ولبست لبوس الطهر لتقضي مآرب أخرى ،وتاه المركب القادم من الغرب في لجج البحر من اللحظة الاولى وتاهت موجات الحشود البشرية التي حركتها الغرائز البشرية المتهاوية والبعيدة عن كل مقومات الايمان وهي بعدفي طريقها وهلكت قبل أن تصل الى هدفها . ولكن فرسان الغرب استطاعوا بعد ذلك الوصول الى ساحل الشام وفلسطين وتمكنوا من وضع أيديهم على الاماكن المقدسة للمسيحية والاسلام ، ومن تأسيس امارات لاتينية امتدت على أرض شمالي الجزيرة وكيليكية والساحل الشامي السوري - الفلسطيني كانت في حقيقة الامر امتدادا لممتلكاتهم في أوربه .

وكان وصول فرسان أوربة الى أرض الشام توسعا لدول غربي أوربة ومؤسساتها ونظمها في العصور الوسطى في بلاد شرقي البحر المتوسط،وانتقل مع القادمين النظام الاقطاعي الاوربي السائد آنذاك . وبنيت القلاع والحصون وشيدت التحصينات المعروفة في ذلك العصر لمنع السكان الذين نجوا من المذابح من العودة الى بلادهم. فغدت ساحة الشرق العربي ساحة جدبدة من ساحات التاريخ الاوربي الغربي ورفد الغرب الغزاة بالناس والجنود والمال والسلاح .

لقد كان امتداد ساحة الصراع - الغربي - العربي - الى أرض المشرق نتيجة طبيعية لما كان يدور من أحداث في الغرب وعلى الضفاف الشمالية

للمتوسط منذ أواسط القرن الحادي عشر وقبل اندلاع تلك الحروب المسماة بالحروب الصليبية بثلاثة عقود من السنين .

ولعل البدايات يمكن أن تعود الى الحملات المنظمة بتأييد البابا حنا الثامن (١٠٦٣) لاخراج العرب من جنوبي ايطالية وصقلية . ثم كانت هزيمة الروم البيزنطيين في موقعة ملاذكرد عام ١٠٧١ أمام الترك السلجوقيين عامل تحريض قوي لتحريك العواطف الدينية المتأججة في الغرب دون أن تتبلور الدعوات في مشروع حقيقي ملموس . وكان البابا أوربان الثاني هو الذي صاغ هذا المشروع في مجمع كليرمون في فرنسه عام ١٠٩٦ مستهدفا على الارجح ،مدنفوذ رومة من جديد الى القسطنطينية . وخطا البابا خطوة كبيرة لتحريض جماهير الغرب وأمرائه على السيروراء مشروعه باعلانه أن الرحلة القدسية : Iter Hierosalymitanum تكون بعد الاعتراف بمثابة غفران .

استمرت موجة الاندفاع الفرنجي نحو الشرق أكثر من نصف قرن. ولكن منذ بدايات النصف الثاني من القرن الثاني عشر بدأ التراجع الفرنجي أمام الصمود العربي المشرقي وبدأت موجة الغزو بالانحسار بعد أن بدأت القوى العربية العسكرية المحاربة بالتجمع والظهور في ساحات الحرب فتحررت الرها عام ١١٤٤ على يدي القائد عماد الدين زنكي ولم يكن قد مضى على بدء الغزو أكثر من نصف قرن .

وبات واضحا ،بعد تأسيس جبهة عسكرية موحدة طوقت الامارات اللاتينية ، وضمت سورية ومصر ولها ظهير قوي امتد شرقا الى الجزيرة والعراق والجزيرة العربية واليمن والسودان والمغرب ، أن تغييرا جغرافيا سياسيا قد أحدث لمواجهة هذا الغزو وللعمل على احتوائه ، فكانت دولة الاتابكة الزنكيين ثم دولة الايوبيين ردا عمليا أدى الى اخماد حدة الاندفاع الغربي ، حتى الضربة القاصمة في هزيمة الجيش اللاتيني في حطين ١١٨٧ ودخول القدس وعكا . مما ألهب مشاعر الغرب مرة أخرى وقاد الى الحملة الصليبية الثالثة .

ومن المعروف أن هذه الحملة نظمت للتصدي لاستراتيجية صلاح الديـن الايوبي الذي وقف وحده قائدا مفردا لايعاونه الاصاحبا الموصل وسنجار في وجه الحلف الغربي الاوربي الذي ضم ثلاثة من أكبر عواهل أوربه ، فريدريك بربروسة أمبراطور المانية الذي غرق في نهر من أنهـار كيليكية مع كثيرمن رجاله وهو في الطريق الى بلاد الشام ،وريتشـاد قلب الاسد ملك انكلترا ، وفيليب أوغست ملك فرنسه اللذين عبـرا المتوسط بسفن اسطوليهما واحتل ملك انكلترا قبرص قبل التوجه الـى عكـا ليشترك مع الملك الفرنسي في حصارها واحتلالهامن جديد.

وبقي الملك الانكليزي وحده على الساحل بين صوروعكا بعد انسحاب الفرنسي عائدا الى بلاده لاسباب داخلية . ولم يتجرأ ريتشاد قلـب الاسد أن يتحرك على الساحل بين يافا وعسقلان ولم يتقدم نحـو القـدس خوفا من هزيمة محتملة أمام جيش صلاح الدين ، ولكنه نجح في اعـادة السيطرة الفرنجية على عكا وجزء من الساحل الفلسطيني ولكنه لم يتمكن في أن يستوهب من السلطان عسقلان ويافا ، وفي النوادر السلطانيـة لابن شداد ،جانب من المراسلات التي جرت في المفاوضات الصعبة التي عقدت بين الطرفين وكان أخو صلاح الدين الملك العادل طرفافيها أحيانـا ومن هذه الوثائق تتضح عقلية الاقطاعي الغربي الذي كان يستجدي تنازل صلاح الدين عن الارض والبلاد على أن يكون تابعا له :

يقول الملك للسلطان :

((ان قاعدة الفرنج انه اذا أعطى واحد لواحد بلدا صار تبعـه وغلامه وأنا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان ويكون عساكرهمـا في خدمتك دائما واذا أحتجت الي وصلت اليك في أسرع وقت وخدمتـك كما تعلم خدمتي)) .

فأجاب صلاح الدين بقبول الهدنة على أن تكون يافا لملك الانكليـز أما عسقلان وماوراءها فتبقى له لان النزول عن عسقلان لاسبيل اليه (من النوادر السلطانية لابن شداد ٢٢٨) ومحمدماهرحماده وثائق الحـروب الصليبيـة) .

وكان صلاح الدين يقاوم في ظرف شديد الخطورة وبالغ الصعوبة ،وقــد كشف عن هذا الوضع الحرج الذي ألقى نفسه فيه في رسالة وجهها الى أخيــه الملك العادل ،يحدثــه فيها عن رأيه حول عرض ملك الانكليز بامكان تنازله عــن عسقلان مقابل تعويض ،يقول السلطان صلاح الدين لاخيه :

((ان نزلوا عن عسقلان فصالحهم ،فان العسكر قد ضجروا والنفقات قــد نفذت)) (تاريخ ابن الفرات ج٤/عن حمادة وثائق الحروب الصليبية ١٢٤)

ومن هذه الوثائق وغيرها ،تتضح الظروف الصعبة التي كان يحــارب فيها جيش مصر والشام العدو القادم من البلاد البعيدة من أقصى الغــرب الاوربي ٠

وبعد سقوط عكا ومناطق أخرى من الساحل بيد الفرنج قام صــلاح الدين بحملة دبلوماسية واسعة للاتصال بدول العالم الاسلامي يستنجــد ويستحث الهمم على الجهاد فكتب الى خليفة بغداد وسلطان الموحديــن وصاحب سنجار ــ وصاحب آمد٠٠٠٠

ويقول في ((احدى رسائله : هذه عكاء التي كنا عنها ندافع وعن ثغرها نمانع تمكن منها العدو ،وكانت مودودة فأصبحت موؤودة وهي أسيــرة الاهمال وأخيذة الاغفال ٠٠))

(الفتح القسي للعماد الاصفهاني ٢٠و وحمادة ٩٠)

وعند تعذر توسيع جبهة المقاومة وعند تقاعس النجدات المطلوبة عن الوصول في حينها لم يجد السلطان مناصا من عقد الهدنة في ١١٩٢،وعــاد ملك انكلترا الشاب الى بلاده مزهوا بما حققه ٠ ولكنه وقع أسيرا وهــو في طريقه عبر أوربة بيد أمير النمسة ٠ أما صلاح الدين فقد مات فجــأة وبعد مرض قصير ولم يتجاوز الخامسة والخمسين من العمر عام ١١٩٣ ولكنــه في اشد درجات الاعياء كان قد شعر بتقدمه في السن حين قال قبل موتــه بعام واحد أنا رجل شيخ كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عني٠

لقد كانت تحركات زعماء الفرنجة في الشرق استمرارا لسياساتهــم

الاقطاعية في الغرب وبعدمصرع الامبراطوربربروسة قام ابنه الامبراطور هنري السادس ،الذي أصبح سيد مملكة صقلية بتزعم حركةتهدف الى بسط زعامته على الحوض الشرقي للمتوسط فأعلن حمايته لبيزنطة وللمملكتين الجديدتين اللتين اقيمتا في قبرص وارمينيه ، ولكن المشروع الامبراطوري انهارعند موت الامبراطور فجأة في ١١٩٧

أما في الشام ومصر فقد تركت وفاة صلاح الدين فراغا في الجبهة العربية الاسلامية ،ودخلت الاسرة الحاكمة الايوبية في مرحلةمن الانقسام والنزاع والحرب الاهلية لم يستطع الملك العادل أن يتداركها باعادة توحيد الدولة تحت قيادته الابشق النفس وبثمن باهظ كان من شأنه بالاضافة الى عوامل أخرى اطالة الحكم اللاتيني على أرض المشرق العربي قرنا آخرا .

ثم دخل الصراع في حوض البحرالمتوسط خلال القرن الثالث عشرفي طور جديد واتجه اتجاها آخر. وضاعت فكرة الحروب الصليبية بين التوجهات المنحرفة لقوى الغرب المتوسطي نحوشرقي المتوسط ،ولم يعد هدف الحملات الصليبية الشرق العربي الاسلامي ،بل صار الهدف المقصود الشرق البيزنطي أيضا. ولم يكن ماحدث في القسطنطينية عاصمة الامبراطوريةالبيزنطية عام١٢٠٤ علىأيد ي غزاة الغرب اللاتيني في الحملة الرابعة مايمكن أن يقبله أي انسان بأي مقياس من مقاييس العقل والضمير ،وأقيمت مملكةلاتينية في عاصمة رومه الشرقية ،في حين انسحبت حكومة الامبراطورية البيزنطية الى ملاجىء على شواطىءالبحر الاسود لكي تناضل من استردادعاصمتها المنتهكة على ضفاف البوسفور .

ظلت المغامرات الصليبية الشغل الشاغل لاوساط في المجتمعات الغربية خلال القرن الثالث عشر في وقت كانت فيه الصراعات الدينية ناشبة على أشدها في أنحاء مختلفة من أوربة .

وقد ظلت الدول الفرنجية اللاتينية تنظم حملات صليبية مغيرة بمبادرات مرتجلة. وقد اتخذت قبرص بعدتحريرالقدس أيام صلاح الدين

محطة لهذه الحملات المتأخرة بعد أن أسست في الجزيرة مملكة لاتينية على رأسها ملك القدس السابق غي دولوزينيان ،واتخذت المملكة لنفسها اسم مملكة القدس ،التي صارت ملجأ للاجئين الاوربيين الفارين من ويلات الحرب وآثارها المفجعة في الاراضي المقدسة ،في خضم النزاع المتواصل على الاراضي وانتغيير الجغرافي - السياسي المتلاحق ،بعد حروب متقطعة واتفاقات متواترة . ومن أمثلة هذا التردي الصارخ للقيادات الاوربية انطلاق حملة الاولاد عام ١٢١٣ يقودها فتيان مراهقان أحدهما الفرنسي ايتين بلوا ، وثانيهما الالماني نقولا. وماكان أسرع مصيرهما الى الهلاك قبل أن تحط أقدامهما على المراكب للانطلاق بينماكان مصير من صعد المراكب من الاولاد الوقوع في الاسر بايدي سماسرة النخاسة المتنافسين في أطراف البحر المتوسط .

وبناء على تحريض حكام عكا الفرنجة دعا بابا روما الى مجمع في لاتران (حزيران ١٢١٧) لتنظيم حملة شاملة تتوجه الى مصر التي كانت القوة الحامية الرئيسية ،(كما بدأت الحملات الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر) فنزلت هذه القوات الاوربية في دمياط (ايار ١٢١٨) على الفرع الشرقي لدلتا النيل لدق اسفين في الطريق بين فلسطين والقاهرة. وكانت الحملة بقيادة الكاردينال بيلاج ،وهو اسباني وفي هذا اشارة لها دلالتها، اذ كان الاسبان وحلفاؤهم من الاوربيين يحققون انتصارات متتابعة على العرب والمسلمين في اسبانيا والبرتغال ويرغمونهم على التراجع نحو الجنوب للاحتماء بأراضي الاندلس .

وقامت القوات الاوربية الغازية باحكام الحصار على دمياط. ولكن هزيمة منكرة لحقت بقوات متقدمة من المهاجمين عند المنصورة أرغمت محاصري دمياط على الانسحاب والعودة الى مراكبهم في تموز /١٢٢١ / وعزي اخفاق هذه الحملة الى تأخر نجدات الامبراطور الالماني فريدريك الثاني هوهنشتاوفن الذي كان يريد الاستئثار بمجد الانتصار ،مما عمق الخلاف بين السلطتين الامبراطورية والباباوية وأدى الى حرمان الامبراطور الا أن الخلاف مالبث أن سوي واتجه فريدريك الثاني على رأس حملة جديدة

هي السادسة التي اتجهت الى عكا في ايلول ١٢٢٨ ، وفيماكان الغـــرب يسوي خلافاته ويوحد صفوفه لمتابعة تحركاته نحو شرقي المتوسطمخلفا وراء ظهره المنازعات على السلطة في القارة الاوربية ، مات الملـــك العادل في ظرف الشدة التي واجهها عند مواجهة الخطر في الدلتاولـــم يكن ورثة البيت الايوبي من أبناء صلاح الدين الناصر، والعادل فـــي الشام ومصر على مستوى الخطر الشديد الذي كانت تتجمع غيومه المـــذرة من بعيـــد .

فقد وصل الامبراطورفريدريك الثاني الى عكا في ٦٢٥ هـ ايـــلول ١٢٢٨م مؤملا الحصول على تنازلات من السلطان محمدالكامل(ابن العـــادل) وهومشتبك في نزاع قاتل مع أبناء أخيه الضعفاء ورثة الحكم الايوبـــي في الشام. ومن مقره في عكا توصل الامبراطور،بنتيجة مفاوضات بارعـــة وبأساليب تراوحت بين الاستعطاف والحيلة الى عقد صلح يافا (٤شـــباط ١٢٢٩) وفيه تلقى العاهل الالماني القدس ماعدا المسجد الاقصى حيث يحـــق للمسلمين أن يمارسوا شعائرهم الدينية وبيت لحم والناصرة والطرق المؤدية الى عكا ومنطقة الساحل . وهكذا تقاسم الطرفان السيادة على البلاد فـــي هذه المعاهدة الطريفة التي بقيت سارية المفعول الى ايلول ١٢٤٤،عندمـــا بدأت تنتشر الشائعات المثيرة عن وصول جحافل المغول من الشرق ،وعندئذ استولى جنودالسلطان الايوبي على القدس والمواقع الاستراتيجية حولها.

وكان للتنازل عن بيت المقدس للعاهل الجرماني وقع الصاعقة فـــي العالم العربي والاسلامي لاسيمافي دمشق ، الا أن الاتفاق كان نتيجة لوضع عسكري خطير . فقد أحدث الفرنجة خرقا بالدخول الى منطقة الدلتاكـــان من الممكن أن يهدد الوضع في مصربأكمله .

وفي الوقت الذي كان الشرق العربي وسواحل البحرالمتوسط العربيـــة تعاني من المواجهات الدامية الطويلة أمام غزاة البحركان قلب العـــالـم الاسلامي وفي مراكز حضارته الكبرى يتعرض للتهديد الاصفرالقـــادم مـــن الشـــرق .

وأمام التحرك الامبراطوري الجرماني الذي أدى الى هدم ماكان بناه نورالدين محمود وصلاح الدين والعادل من استراتيجية في مقاومة الغزو الفرنجي بماتحقق من تسويات في عكا والقدس ويافا ،قامت فرنسه بقيادة ملكها شديد التدين لويس التاسع المعروف باسم القديس لويس بتحرك واسع النطاق لمحاصرة العالم العربي الاسلامي بالاتفاق مع المغول . وفي الوقت الذي كانت فيه أوربه ترتعد أمام جحافل المغول المتقدمة من بلاد آسيه الوسطى نحوالغرب عمل الملك الفرنسي على الاتصال بالمغول الذين كانوا آنذاك وثنيين الا أن زوجة هولاغوخان كانت مسيحية نسطورية . وقد أرسل لويس التاسع من قبله مبعوثين من الدومينيكان والفريسيسكان بتأييد البابا الكسندرالرابع الذي كان يزود الملك بالمعلومات التي تصل اليه للمساعدة على الاتصال مع القادة المغول ،وقد رسم خطته على أن يهاجم مصر في الوقت الذي كان فيه المغول يقتربون من ممتلكات السلطنة الايوبية الا أن توقيت التحرك الفرنسي ، فيمايظهر كان أسرع ممابنبغي وكان وصول المعلومات أكثربطئا مماكان منتظرا .

نزل لويس التاسع بقواته في قبرص في ١٢ حزيران ١٢٤٨ فيمايعرف بالصليبية السابعة مقلدا خطة الصليبية الخامسة ، وهاجم دمياط وحاصرها حتى دخلها في حزيران ١٢٤٩ ، لكن الحملة انهارات عند حصن المنصورة أيضا ووقع الملك نفسه في الاسرومعه أخواه ألفونس صاحب بواتيه وشارل أنجو ملك صقليه وعددكبيرمن الفرسان . ولم يتخلص من الاسر الابعد حدوث تطورات داخلية في مصر وتغير في السلطة فأطلق سراح الاسرى لقاء فدية كبيرة وبعد التخلي عن دمياط ،وانسحب الى عكا التي أقام فيها من ١٢٥٠ – ١٢٥٤ يجري منها اتصالات بالخان المغولي وأرسل اليه سفارة على رأسها غيوم دوروبروكي . ولكن لم تمض خمس سنوات على عودة لويس التاسع الى أوربه حتى تحرك هولا غوخان ليحرك مايدعوه المؤرخون الفرنجة تلك ((الصليبية الصفراء)) نحومراكز العالم العربي الاسلامي ،وسقطت أمام تقدم قواته المدمرة بغداد عاصمة الخلافة العباسية (١٢٥٨) ثم حلب ودمشق (١٢٦٠) . وبات الوجود السياسي

الثقافي للعالم العربي الاسلامي مهددا الى حين بالفناء ، في الوقت الذي كانت في الاستراتيجية اللاتينية تجاه المشرق مهتمة بتوسيع تحركها باقامة تحالف غربي لاتيني - شرقي بيزنطي - مغولي .

الا أنه كان مايزال في تكوين مجتمع الشرق العربي الاسلامي آنذاك عناصر تلك القوة التي كان يحركها عامل الايمان العميق والبناء العلمي الثقافي المكين بوجود مؤسسات ثقافية راسخة ونظام اقتصادي متكامل ممتد على سوق واسعة مترامية الاطراف مما وفر لدولة المواجهة الصامدة في مصر والشام مستلزمات الدفاع والاستمرار . وفي هذا المجتمع تكونت المؤسسة العسكرية في ظل الحكم الزنكي - الايوبي - والتي تنافس على قيادتها كبار قادة المماليك التي انقادت اليهم أزمة الامور . ولم يكن بوسع اولئك القادة على الرغم من حرصهم على مصالحهم الانانية أن يتهربوا من المسؤوليات الجهادية الملزمة بالدفاع عن الارض والمقدسات والناس ، فكانت تلك الملحمة الرائعة التي استمرت أحداثها جيلا من ثلاثين عام - في مسيرة ظافرة من معركة عين جالوت غربي بيسان (١٢٥٩) الى عكا (١٢٩١) وتجلت فيه عظمة سلسلة من القادة الكبار/ قطز وبيبرس - وقلاوون والاشرف خليل .

فبعد انتصار عين جالوت الرائع استقرت القيادة وبعد صراع داخلي أليم بين يدي الملك الظاهر بيبرس الذي استطاع في تحرك سريع لم يسبق له مثيل منذ أيام صلاح الدين أن ينتزع من المملكة الفرنجية اللاتينية قيسارية (١٢٦٥) ويافا ثم انطاكية (١٢٦٨) وانحصر الوجود الفرنجي بعد ذلك على الساحل الشامي في طرابلس وصيد وعكا .

وبينما انتقلت الجبهة العربية الى دور الهجوم ولاسيما بعد انحسار الخطر المغولي غدت فرنسة مركز الثقل في آوربه في المراحل الاخيرة من الحكم اللاتيني في الشام . وقد حقق حكم لويس التاسع (١٢٢٦-١٢٧٠) لفرنسه تقدما كبيرا كان من أبرز ملامحه انشاء جامعة طولوز (١٢٢٦) وتطور كتابة التاريخ ،وبرز في باريس أهم مفكر لاهوتي في تاريخ المسيحية

في القرون الوسطى ،القديس توما الاكويني ،الذي كان يدرس في جامعـــة باريس (١٢٥٢ - ١٢٥٩) وظهر روبرروسوربون (١٢٥٨-١٢٧٤) الذي نظـــم مدرسة السوربون التي غدت الجامعة الشهيرة٠ وغدت أرض فلسطين المقدسـة في السياسة الفرنسية موضوعاللمضاربات والمنافسات فيقصورالملوك و الامراء و اختلطت حقائق الجغرافية بالادعاءات الملكية والمطامع البعيدة عندمـــا أصبح ملك صقلية شارل أنجو أخـو الملك ،ملك القدس ، وهكذا كشـف تحرك جيوش الفرنجة في الحملات المتأخرة عن التخبط في التوجـه الـى الاهداف المعلنة الضائعة في خضم المصالح المتضاربة للممالك الاقطاعيـة الاوربية الناشئة ، التي كانت تدعمها المصالح المالية المتنامية للمـــدن التجارية ،ففي حملته الثانية بدلا من أن يتوجه لويس التاسع الـى مصر ،توجه الى تونس٠ ولعله أرادها محطة على الطريق ،ليضمن طريـق العودة منها عن طريق البحر الى صقلية وايطالية ولكن الحملة انتهت بعـد موت الملك الفرنسي المفاجئ في ١٥ آب - ١٢٧٠- بعدنزوله على الساحـل التونسـي ٠

ولم تمض الاسنوات قليلة بعد ذلك حتى تداعت الحصون الفرنجيـة اللاتينية وتم تحريرها تباعا : المرقب (١٢٨٦) طرابلس (١٢٨٩) وأخيـرا عكا وحيفا وصور وصيدا وبيروت في صيف ١٢٩١ ٠ وعادت عجلة الزمـن قرنين الى الوراء وأخذت أفواج سكان الساحل الشامي تعود الى المـدن والمواقع المحررة ، في حين ولدت عودة المحاربين المهزومين مشكلـة خطيرة كان على السلطة الملكية الفرنسية مواجهتها بصورة كشفت بوضـوح تام عن طبيعة الصراع على ضفاف البحر المتوسط ٠ لقد كان في حقيقتـه جانبا من التفاعل الاقتصادي - الاجتماعي - السياسي -رافق تكون الدول والممالك الاوربية الغربية ٠ وبهذا الصدد يمكن أن يطرح هذا السوال :

٣- ماذا كان مصير المحاربين الصليبين المنسحبين ؟

كان فرسان المعبد الداوية آخر الصليبين في عكا ٠ وكان جزاؤهم بعد انسحابهم وعودتهم الى فرنسه المحاكمة والتعذيب الشنيع بدءا مـن ١٣٠٧ اي بعد سبعة عشر عاما من الخروج من عكا بأمر من الملك فيليـب الجميـل ٠

لقد سقط حماة المثل الاعلى الغربي في العصور الوسطى وانهارت أحلام المجامع الداعية الى التعصب والغزو والقتل والدمار منذ أن تحول الحاج المتجه الى الله الى قاتل جزار .

وتدنست الصوفيه البريئة بما أقترفته الايدي القذرة في مراكز اشعاع الحضارة على الضفة الشرقية للمتوسط وفي عواصم الطهر والقداسة في انطاكية والرها والقدس وطرابلس وصور وحتى في القسطنطينية ودمياط وتونس . وانقلب أخيرا السحر على الساحر عندما شلت مفاصل أيدي المجرمين العتاة في القلاع المنيعة على الهضاب والجبال الشماء في شيزر والمرقب والحصن وعكا وعسقلان وفاز المؤمنون الصابرون بالنصر .

وعندما عاد الغزاة الفقراء الذين غرربهم للاحتماء بأرض العرب بممتلكات أسيادهم الذين أضحوا من الاقطاعيين وأصحاب المصارف الغنية والثروات المكدسة المنهوبة ، كان المهزمون كبش الفداء لاراحة ضمائر مجتمعات الغرب التي وجدت في المال الحرام شاهدا على الافتئات على حق رب السماء .

فلم يتأخر فيليب الجميل عن اصدارأمره في ١٣ تشرين الاول ١٣٠٧ بالقاء القبض على مايقرب من ألفين من فرسان المعبد الذين عادوا خاسرين مدحورين .

ووجهت الى المتهمين اشنع التهم ، انكار السيد المسيح ، عبادة الشيطان بالاضافة الى تهم أخرى تمس الشرف والاخلاق . وانتزعت من المتهمين اعترافات كانت كافية لتبرير اصدار احكام العدالة الملكية .

ولمتجد محاولات البابا كلمنت الخامس في التدخل لانتزاع حق المحاكمةواصدار الاحكام ،لانقاذ الموقف وتحجيم دورالملك ،ولكن السلطة المطلقة للدولة هي التي رجحت في هذا الصراع ، عندما أعدم في ايار١٣١٠ ستون من فرسان المعبد المدانين حرقا في باريس وفيأمكنة أخرى لتراجعهم عن اعترافاتهم التي كانوا قد أقروا بهاسابقا.

ثم اجتمع في فينا في تشرين الاول ١٣١١ وفيه تم الاتفـــاق بين الملك الفرنسي والبابوية على الغاء نظام هذه الرهبنة ، فرسان المعبد في ٢٢ آذار ١٣١٢ ، بعد أن أصعد في ١٨ آذار ١٣١٤ أكبـــر مسؤولين عن هذا النظام المعلم الكبيرجاك دومولي ورفيقه جوفـــروا شارني الى المحرقة . ووضع الملك يده على ثروة النظام وعلى معظـــم ممتلكاته على الرغم من أن البابوية عملت على نقل هذه الممتلكات الى نظام آخر ، المشفى (الاسبتارية) . وعرف الداويون مصيـــرا مشابها لما لاقوه في فرنسه في كل مناطق أوربه التي كان لفيليب الجميل نفوذ فيها .

وهكذا تدهورت الفكرة الصليبية في أوربه في مثل هذا الجـو السياسي الوصولي لفلسفة الدولة في أوربه ، التي لم تكن لترضى بوجود أية قوة منافسة للسلطة الملكية مهما كان في ذرائعهامن مثالية .

٤- ولكن هل انتهت بذلك الفكرة الصليبية في الفكر الغربي بعد فشلها في العصور الوسطى ؟ .

كلا- لان شواهد كثيرةتؤكد أن الفكرة بقيت متداولة في عقـول المنظرين والفرسان المتأثرين بانتصارات الماضي . وفي هذا السبيـــل وضعت كتابات كثيرة ومخططات لاعادة الكرة من جديد كان من روادها والمبشرين بها جاك دومولي نفسه وغليوم آدم وماريينو ساردو،وأخـذ فقهاء القانون لدى الملك فيليب الجميل بير دوبوا وعمل هؤلاء فـي السنوات الاولى من القرن الرابع عشر على التخطيط لمشروعات جديـــدة لاعادة الاستيلاء على الاراضي المقدسة .

ومن مظاهر الاستجابة المترددةلهذه الدعوات حملة هوغ الرابـــع لوزينيان وولي عهده هوبرت بين ١٣٤٤ -١٣٥٠ على ازمير على الساحل الغربي لآسية الصغرى .

ونجح الاستبارية في قهراسطول عثماني أمام أمبرس في بحرايجـــة

ثم نظمت حملة كبرى اشترك فيها ملك قبرص (القدس) ومستشاره الحاج العجوز دوميزييروالكاردينال بير توماس نجحت في مهاجمة الاسكندرية (١٣٥٦) وفي تدمير مدن الساحل السوري طرابلس وطرطوس واللاذقية ويافا (١٣٦٧) ٠ وتحولت الحملات المنظمة بعد ذلك لمواجهة القوة الجديدة المتعاظمة في العالم الاسلامي ، الدولة العثمانية ، في الوقت الذي كانت تتقدم فيه حركة الاسترداد الاسبانية باتجاه معاقل العرب الاخيرة في جنوبي الاندلس ٠

ولعل من أمثلة الاحلام الصليبية الغربية في أوربة الاقطاعية مافكرت به فتاة فرنسة ، جان دارك ، التي كانت تتمنى ،قبل قتلها حرقا على أيدي أعداء بلادها الانكليز ، تنظيم حملة يشترك فيها انكليز وفرنسيون تتوجه الى بلاد الشرق ٠ وهكذا جعلت الفكرة الصليبية السياسية المتعصبة من المسيحية المسالمة قوة محاربة غازية لتحقيق أغراض الغرب الاوربي والمتوسطي في بلاد الشرق ٠ ولم يتخل الغرب عن هذه الاهداف وابتدع اساليب جديدة سعيا من أجل الوصول اليها ، أخذت تتطور منذ القرن الرابع عشر بعمله على توسيع العلاقات التجارية مع بلادالشرق بايفاد السفارات الاستطلاعية (ماركو بولو) والبعثات التعليمية الدينية ،ثم بتوجيه حركة الكشوف الجغرافية لوضع أيدي الدول البحرية الاوربية على مصادر الثروات والخيرات التي كان ينعم بهاالشرق بالالتفاف وراء عالم المتوسط عن طريق المحيط الهندي أومن طريق الاطلسي ٠ ومنذ ذلك الحين استطاع الغزاة لصوص البحر التمكن من مفارق الطرق المؤدية الى مصادر الحرير والذهب والتوابل والافاوية ٠٠

ثم في مطلع القرن العشرين الى مصادر الطاقة المحركة لادوات الثورة الصناعية في الغرب ،منابع النفط ٠

وفي سبيل ابقاء جذوة التطلع الى المغامرة والفتح متقدة في نفوس الاجيال الاوربية الجديدة كماكانت في الماضي مايزال فتيان جان دارك في مارتل في فرنسة ، قرب بواتيه يحتفلون كل عام ووسط

سخط المتسامحين والمستنكرين بانتصار شارل مارتل الفرنجي في لوبشا [illegible] عام٧٣٣ ، وليس قرب بواتيه عام٧٣٢/ كماتؤكد بعض الدراسات الجديدة . وهم ربما يحلمون باحتفالهم هذا بمد أبصارهم الى الضفة الاخرى من البحرالمتوسط الذي تخضبت شطانه بالدماء الغزيرة عبرالعصور.

هـ المواجهة الجديدة في عصر الاستعمار :

وفي حين كانت المجتمعات العربية تتقوقع على نفسها في المدن والعواصم والثغور ،يؤرق جفونها قلق قاتل أمام أخطاركان يصعب تصورها،كانت العسكرية الاسلامية قدتبلورت في صورةجديدة في اطار التطورات السياسية والانقلابات التي حدثت في مراكز القوى العربية الاسلامية حين قبض الترك من السلاجقةوالعثمانيين على زمام الجيوش في العالم الاسلامي في شرقي المتوسط ،وكان ذلك الانتظارالحاسم الذي دوت أصداؤه في الغرب بدخول السلطان محمدالثاني العاصمة البيزنطية القسطنطينية عام (١٤٥٣) بعد مضي أكثرمن سبعة قرون على بدء الصراع العربي البيزنطي ليبدأ بعد هذا الحدث الكبير عصر جديد كان من أهم خصائصه هيمنة البحرية العثمانية على الحوض الشرقي للمتوسط مدةزادت على قرنين .

وفي الوقت نفسه ظهرت قوة جديدة في الحوض الغربي للمتوسط،باقامة وحدة اسبانية ،بعد اسقاط الحكم العربي في غرناطة ١٤٩٢ ،وتأسيس القوة البحرية الاسبانية في الحوض الغربي للمتوسط وعلى سواحل الاطلسي وهكذا تشكلت قوى الصراع على ضفتي المتوسط في مشهد لم يكن له مثيل في التاريخ منذ أيام الحروب الرومانية ـ القرطاجية قبل قرون عديدة. واستقطبت طرفي المواجهة قوتان احداهما في الشرق حول الدولةالعثمانية ، والثانية في الغرب حول الامبراطورية الاسبانية التي ورثت التراث العربي العظيم في الاندلس والثروات الخرافية التي خلفها المغلوبون وماجمعه المغامرون من الفتوح الاستعمارية ،وكانت ذروةالمواجهة بين الجبهتين في معركة ليبانتوس البحرية التي فقدت فيها

تركية العثمانية معظم اسطولها واضطرت بعدذلك الى الاحتماء بقواعدها الشرقية ،ودخلت المتوسط بعد ذلك قوى من خارج شطآنه لاول مرة انجليز وهولنديون ، اخترقت مضيق جبل طارق بعد هزيمة الارمادا الاسبانية عام ١٥٨٨ ٠

ومع اكتشاف الطرق البحرية الجديدة في المحيطات تقلص دور البحر المتوسط ودور الدول الواقعة على شواطئه بالقياس الى الدول الواقعة على الاطلسي ٠

واضطرت الدولة العثمانية أمام هذا التدخل الاوربي العنيف الى رسم استراتيجية توسعية في شرقي المتوسط تجاه دول البلقان وشرقي أوربه ، ودفاعية متوازنة تجاه اسبانية والقوى الاوربية الغربية الاستعمارية المتدخلة ٠

وهكذا فقد هذا البحربدخول المطامع الامبراطورية الاستعمارية الاوربية في القرن الثامن عشر كل ماكان يمتاز به من دور الوساطة الرائع في التجارة الدولية وتحولت شطآنه الجميلة الى جبهات وحصون كانت تخضع لماكان يرسم له من مخططات في قصور الملوك والامراء والسلاطين الذين كانت تحيط بهم أفواج من رجال الدين المحرضين والتجار المنتفعين الذين كانوا ينفخون في الآذان باتجاهات مختلفة ٠

وعندمادخلت انكترا الى هذا البحر ، دخلت با ستراتيجية جديدة عملت على تنفيذها مرحليا بصبر وأناة : السيطرة على جبل طارق ثم على جزر مينورقة في غربي المتوسط ،ثم على مالطة ، ثم وصلت الى بلاد الشرق العربي على الطريق الى امبراطورية الهند ٠

أمافرنسة التي أقلقها التحرك الانكليزي فقد تمسكت بقاعدتها في كورسيكا وعملت على الاحتفاظ بنفوذها في جنوبي ايطالية وصقلية ورهبان مالطة الى أن أقدم نابوليون على غزو مصر وسوريه ٠

وبينماكان دول الغرب تحرز مزيدا من النفوذ في الدولة العثمانية عن طريق نظام الامتيازات ونفوذ التجار ، كانت في الوقت نفسه تكشف

من ضغوطها العسكرية على كل الجبهات على امبراطورية مترامية الاطراف ،قليلة الموارد بطيئة التحرك كان ينخر فيها السوس من الداخل بفعل اصطدام العقليات الجديدة بالنظام القديم ، وهكذا عندما لم ينبثق الاصلاح الفعال من داخل الدولة العثمانية للحفاظ على وحدة الدولة في كيان يضم كل شعوبها بدت هذه الدولة مقعقعة الاركان معرضة لاغراءات التدخلات الاجنبية ومخططاتها التي سمحت بالتحرك في البلقان في مصر والبلاد العربية ،وذلك كله لخلق ظروف من المصالح المتضاربة التي لاتقبل التسوية بين ضفتي البحر المتوسط .

وبدأت في القرن التاسع عشر ترتسم ملامح مرحلة جديدة من الصراع على المتوسط ،طرفاها في هذه المرة بريطانية وفرنسة . ولكل منهما مفهومه الاستراتيجي الخاص به ، فبريطانيا وهي قوة بحرية خارجية كان يهمها السيطرة على البحر وعلى الطرق الملاحية البحرية . أما فرنسة وهي دولة متوسطية ،فلها تطلعات استعمارية توسعية تستهدف الاستيلاء على الارض ،والامتداد الى الضفة الاخرى .

وكان شق قناة السويس عاملا أساسيا في تأجيج النزاع بين القوى المتوسطية الاستعمارية . بعد أن أنهى هذا الانجاز عزلة البحر المتوسط وربطه بطرق الملاحة الدولية لاساطيل الامبراطوريات الغربية التجارية والحربية . وصارت السيطرة على قناة السويس تعني بالنتيجة التحكم بطريق الهند .

وقلب هذا العامل الجديد في الجغرافية السياسية للبحر المتوسط كل الموازين السابقة في الاستراتيجية في الاقتصاد. ومنذ ذلك الحين بدأ يتسع الخرق بين عالمين وبين اقتصادين اقتصاد بلاد الشرق القائم على الاسس القديمة من زراعة ونقل وتنظيم اجتماعي واقتصاد أوربي جديد من عناصره التحرك البشري والاستيطان والاستثمار الزراعي والتجاري والمصرفي ومنذ ذلك الحين تبدت ملامح مصير الشرق العربي الذي أخضع أخير اللاستعمار الغربي بعد الاستيلاء على كل سواحل الوطن العربي على المتوسط . بعد اقتحام قوات النبي وغورو أرض فلسطين

وكل بلاد الشام . وفي هذه البرة وصل القادمون وفي أيديهم مخططـــات كاملة ومفصلة : اتفاقيات سايكس بيكو ،ووعد بلفور ونظم الانتداب مسلحين بنظريات سياسية تسوغ الاستعلاء والاستغلال والتمييز العنصـري والدينـــي .

لقد واجهت الامبراطوريات الاستعمارية الاوربية الغازية مقاومة لم يسبق لها مثيل ولم تكن منتظرة ، وخرجت البلاد العربية من الصـراع بأفضل مماخرجت منه بعد الحروب الصليبية في العصور الوسطى ،فقامت دول عربية مهمة على شواطىء المتوسط ترفدها أراضي عربية غنية بالنفط والطاقـــة لاحدود لها. ولكن الصراع العالمي في الحرب العالمية الثانية أدى الى تدخل الولايات المتحدة الامريكية وروسية الثورية السيوفيتية ولكل منهمـــا استراتيجيته في البحر المتوسط ،أضحى محورها الموقف من القضية العربيـة الفلسطينية وادخال عامل جغرافي سياسي جديد على خارطة الشـــرق المتوسطي بالاتفاق على ايجاد (اسرائيل) وكان هذا الكيان السياسي الغريب عن نسيج المنطقة القومي والثقافي فرضا لقوة جديدة على شواطئ المتوسط هي امتداد لنظام اجتماعي سياسي اقتصادي غربي علـى الارض العربية أخذت تتضح الابعاد الخطيرة لاختراقاته للنظام العربـــــي منذ عام١٩١٨ وحتى أيامناهذه .

وهكذا تم للغرب الاوربي بتأسيس الكيان الصهيوني واقامـة دولـة لليهود المهاجرين الاوربين على أرض فلسطين العربية ،بعدمايقـــرب من سبعة قرون على تحرير عكا والساحل الشامي في العام١٢٩١،وبصـــورة أخرى ولفترة طويلة تجديد ذلك الصراع القديم الذي انتزع السواحـــل العربية عن أرض الشام ، وخلق أمام البلاد العربية تحديات خطيرة .

وقدتكون المواجهة العربية- الاسرائلية أحد المظاهر التي يختفـي وراءها المظهر الحقيقي للمواجهة على ضفتي المتوسط بين الوحدة والقـــوة والتقنية من جهة وبين الانقسام وتوابعه والعجز عن الاستغلال المباشـر للموارد الاولية ومصادر الطاقة من جهة أخرى .

ان وجودمثل هذه العوامل هومايطرح لدى بعض الكتاب من الغـــرب والشرق تساؤلات عن احتمالات المستقبل على هذا البحر الذي يريدله بعـــض

المفكرين والكتاب في الغرب أن يكون لاتينيا ك (فرانسوا بيـــو Francois Puaux) الذي يقول :

ان هذا البحر اللاتيني هومهد حضارتنا أي:حضارة الغرب اللاتيني هــو في الواقع والحقيقة منبت المتناقضات الدينية والاجتماعية والاقليميـة وبؤرة مواجهات عديدة ستبقى والى زمن دون حل))

(F.Puaux,Lapolitique internationale des Amées catre-vingt,PUF, Paris 1984, P.23)

عن بشارة خضر ،دراسات دولية ، عدد(٣٩) عام(١٩٩١/٢)

لقدغدا الدورالاول في مصائر شعوب البحرالمتوسط ودوله في القـرن التاسع عشروحتى الحرب العالمية الثانية لروما حديثة بعيدةعن المتوسـط هي الامبراطورية البريطانية التي جعلت من البحرالمتوسط جسرا عظيمـا قواعده في جبل طارق ومالطة وقبرص ومصر ، ومن قناةالسويس معبـرا الى امبراطوريتها على المحيط الهندي .

وفي سبيل حماية مكاسب الامبراطورية الاستعمارية البريطانيـة في صراعها مع القوى البحرية الاستعمارية الاوربية الاخرى تفتقت عبقرية دزرائيلي رئيس الوزراء البريطاني عن سلسلةمن المكائد أدت الى انتزاع قناة السويس من فرنسة ،كماتفتقت فيمابعد صهيونية لويــد جــورج رئيس الوزراءالبريطاني أيضا ابان الحرب العالمية الاولى ووزيرالخارجيـة بلفورعن الوعد المشؤوم الذي جعل في عام١٩١٧ من أرض فلسطين هدفـا لحملة غربية نحوالشرق العربي فيأجواء تأزم المسألة اليهودية فيأوربة وفي غمرةتنامي النزعات العنصرية الاوربية ومنهامعاداةالسامية ،مـن اجل السعي الى تهيئة الظروف لجعل فلسطين وطناليهود الاوربيـــن ولانتزاعها من أصحابها بتجديد حركةالعدوان بصورةتستتر وراءمبادئ عليامعلنة ،بقيت حبرا على ورق .

وعادالمغامرون ولكن في هذه المرةبمزاعم أخرى للبحث عن الهيكـل الذي لميعثرله علىأثر ،دونأي حسبان لمنطق التاريخ وبتجاهل كلـي للشعب الفلسطيني وتاريخهالذي نشأوتطور كماحدث لكل شعوب الارض ،علـى الارض التي عاش عليها عبر العصور فهل يكون لهذا الطورالجديدمن الصراع

على طرفي المتوسط من نهاية ؟
ان العوامل التي تدخل في الصراع على ضفتيهذالبحر في عصرناكثيـــرة ولكن قد يكون في القاء بعض الضوء على مواقف بعض القوى المؤثرة في الصراع مايساعد في البحث عن جواب . واكتفي بالحديث عن اثنـــين منها :
أولا ـ ماموقف البابوية اليوم من الصراع العربي الفلسطيني ـالاسرائيلي

(And. Kreutz, Vatican Policy on Palestinian-Israeli conflict : The Sruggle for the Holey Land (Contribution in Political Science no246)196p(1990)

وقبله نشرجورج ايراني بحثا مهما كان رائدا في بابه
-George Irani, The Papacy and the Middle East, Notre Dame Press 1986
Livia Rokach, tne Catholic church and the Question of Palestine, Saqi Books. 1987

صدرت في السنوات الاخيرة جملة من الدراسات المهمةحول هذالموضوع. ومن التعرف الى هذه الدراسات يتضح تطورسياسة الفاتيكان تجاه القضيـــة الفلسطينية خلال هذا القرن العشرين . فلقدوقفت الكنيسة الغربية فـــي البدء ،من منطلق ديني ضد الصهيونية السياسية. كماوقفت ضد السيـــادة الاسلاميةالمطلقة على الاماكن المقدسة . وكانت تفضل في ظروف الحــــرب العالمية الاولى ونتائجها ،وضع فلسطين تحت اشراف احدى الدولالمسيحيـة الغربية . ولكن الكنيسة بدأت تهتم بعد ذلك بتطلعات الطوائف المسيحيـة من الشعب الفلسطيني ،ثم بتطلعات الشعب الفلسطيني المشروعة ، بوصفـــه من شعوب العالم الثالث المناضلة في سبيل العدالة الاجتماعيةوالسياسيـــة
وفي هذه الدراسات تنعكس العوامل المؤثرةفي رسم سياسةللبابويـة المعاصرة في دولة الفاتيكان حول هذه القضية بمايتناسب مع موقعهــــا السياسي في العالم وخاصيتها الروحيـة .

وفي الفصل الاخيرمن كتابه يقدم كرويتز احد الباحثين في هــذا الموضوع تحليلا لسياسة البابا يوحنا بولس الثاني التي تنطلــق مــن الاهتمام بتوسيع حدود توجهاته من الخاص الى العام ، أي الى الشــأن الفلسطيني كله ومسألة الشرق الاوسط انطلاقا من مبادىء أخلاقية وروحيــة هي التي تشكل عنصر القوة في موقف البابا من قضايا حساسة في هــذا العالم . ولكن هذا الموقف قد يخضع لشيء من التعديل أحيانا عندما ينقلــب الى سياسة مرسومة ،لايكون بوسعها في الظروف الدولية المتغيرة أن تتجاهل العوامل السياسية و الاقتصادية التي تشكل عناصرضغط باتجاهات مختلفــة من داخل الكنيسة ومن خارجها عند تناول القضية الفلسطينية .

ان المواقف في هذا العصر على ضفاف البحرالمتوسط تجاه موضوعــات الاحتكاك والصراع على ضفاف البحرالمتوسط تواجه تعديلات لامندوحة عنهــا ومختلفة عما شهدته ضفاف هذا البحر من مواجهات أليمة ومدمرة فــــي الماضــــي .

فالفاتيكان الذي يجدظهيره في أوربة ليس بوسعه تجاهل القـــوى الضاربة الموجودة بالفعل في البحرالمتوسط وبخاصة الولايات المتحدة الامريكية المؤيدة لاسرائيل وسياستها تجاه فلسطين والشرق العربي ،كمالايستطيع أن يتجاهل العالم الثالث الذي تنتمي اليه فلسطين والبلاد العربية ،التــي يحرص الفاتيكان على مخاطبتها أيضا بلغة تتفق والمبادىء الاخلاقيــة والروحية السامية التي ينادى بهافي هذا العصر ،الذي مايزال يعاني فيه الانسان من التصادم الكبيرين ـالمثل العليا محصلة القيم في التـــراث الحضاري الانساني وبين الواقع الراهن للشرط الانساني في أنحاء كثيــرة من العالم ومن هذا التحليل يتضح أن الفاتيكان يمكن أن يكون عامــلا ايجابيا في العمل على انهاء الصراع على ضفتي البحرالمتوسط عندمـــا يستطيع أن يؤكد دوره في تأييد التغيير الاجتماعي لمصلحة الانســـان وعندما يكون مدافعا عن حقوق الانسان المغتصبة ،والكرامة المثلومة ،عندما يتمكن أن يعبرعن هذه القيم كلها ،واستنادا الى هذه المعطيات أخـــذ الفاتيكان منذعام١٩٦٧ يصوغ سياسة واقعية تجاه القضية الفلسطينيـــة

متعددة الجوانب ،بالاعلان عن تأييده للتطلعات المشروعة لشعبين يقيمان اليوم على أرض فلسطين

ثانيا: ماموقف اليهودية في هذا الصراع المستمرعلى ففتي البحربعد

أن أقيم لليهود كيان سياسي على شاطئ البحرالمتوسط بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية؟ . هذه مسألة قليلا ماتحدث عنها المتحدثون ولكنها واقع راهن لابد من مواجهته والبحث فيه والتفكير في طرق مواجهته وليس في الوقت متسع للاستفاضة في هذا الجانب من موضوع البحث ونكتفي بالاشارة الى احدى الدراسات الحديثة ترصد المتغيرات الناجمة عن مستقبل المسألة اليهودية في الغرب بعد تأسيس الكيان الصهيوني في فلسطين .

(D. Vital, The future of the Jews, the People at the Crossoads , 148 Pages, Harvard Uniresity Press, Cambridge 1990)

والمؤلف فيتال هو أحد كبار المتخصصين في تاريخ الصهيونية .وكتابه هذا هومؤلف مثيرحول الشرط القومي لليهود بكونهم أمة ومسألة تعدد الانتماء والولاء ويبرهن المؤلف على أنه بعد أن كان اليهود وحدة قومية لهاكل مقومات الوحدة الفكرية ،لم تعد هذه الوحدة موجودة باختلاط اليهود في شعوب أخرى ، ممافرض انتماءات سياسية وثقافية ودينية مختلفة . ونتيجة لذلك فان الانسجام والاجماع الذي كان قائما في السابق يبدوان متضائلين وربما أضحيا مفقودين .

واذا اماصح هذا الاستنتاج فان اسرائيل تجد نفسها بصورة متزايدة متباعدة عن اليهود المنتشرين في انحاء العالم لاسيما في الولايات المتحدة على الرغم من دعوى الصهيونية بأن اسرائيل هي دولة اليهود جميعا ،وهو المبدأ الذي يبنى عليه مايسمى بحق العودة الى أرض الميعاد ويلاحظ مؤلف الكتاب ديفيد فيتال أن التماسك في القومية اليهودية أضحى مفقودا بعد التضارب في المصالح المختلفة للطوائف اليهودية في بلاد

أخرى ، فالنظرة الى اليهود في كثيرمن أنحاء العالم اختلفت فلم يعد اليهود ذلك المجتمع المدهش والسري وغير المألوف ، وصار ينظراليه على أنه شعب عادي له خصائصه الايجابية وله نقاط ضعف . وكان ايجاد الكيان الصهيوني الاسرائيلي هو العامل المؤثر في هذا التغيير نحو ما كان يعرف بالمسألة اليهودية في أوربة .

ويرى فيتال أن أوربة أوجدت حلا لماكان يدعى بالمسألة اليهودية بعد ايجاد مادعوه بالوطن القومي لليهود في فلسطين وبعد تأسيس دولة يهودية ،ولكن المؤلف يتجاهل أن حل المسألة اليهودية تجاه القوميات الاوربية خلق للقومية العربية تهديدا خطيرا لم يسبق له مثيل مس الارض و الانسان والتاريخ والثقافة والحاضروالمستقبل المنظور.

ويرى المؤلف من وجهة نظرآخرى ،أنه نظرا لعدم وجود اتفاق حول المصلحة المشتركة لليهود في العالم ، ونظرا لعدم وجود سلطة مركزية كماكان الشأن عند تأسيس المنظمات الصهيونية واليهودية العالمية . ثم تبعا للتنوع الثقافي والتعدد السياسي و الايديولوجي فان التعدد أضحى قائما و الانقسام أضحى واقعا. ويشكل النزاع العربي ـ الاسرائيلي حول فلسطين موضوعا رئيسيا للخلاف ضمن العالم اليهودي . و ان التوترالمتزايد بين الاوساط اليهودية في العالم وبين السلطة الصهيونية في الكيان الاسرائيلي حول طريقة حل النزاع الفلسطيني ـ الاسرائيلي يؤكد أن وحدة اليهودية في العالم باتت موضع تساؤل .

وفي النتيجة يعرب المؤلف عن شكوكه حول احتمال استمرار بقاء قومية يهودية بالشكل المطابق للفكرالصهيوني السياسي ،فعوامل الخلاف كثيرة وهي طبقية وثقافية وسياسية وجغرافية . وهو يستنتج من المعطيات التي تتوفرلديه أنه سيترتب على ذلك قيام مجتمعين يهوديين مختلفين احدهما غربي يتمتع بالقوة والنفوذ و الاخر متوسطي وبروليتاري فقير وضعيف .

فماهي عواقب هذه التغيرات على المرحلة الراهنة من الصراع الاستراتيجي السياسي الثقافي على ضفاف المتوسط ؟ وماذايمكن أن يكون

دورالعـامل الصهيوني الاسرائيلي فيها ؟ .

ليس الان بالطبع هو أوان التنبؤات والنبوات لكن المسألة من هذا الجانب ،لابد أن تطرح على مائدة البحث والدراسة للوصول الى النتائج العلمية السليمة .

٦ ـ الخاتمـــة :

وبعد لقد صدق المؤرخ الفرنسي المعاصر فرنان بروديل فيوصف البحرالمتوسط بأنه جملة بحار تتزاحم فيها الجزر وتتقاطع على صفحات مياهها أشباه الجزر وتحيط بها شواطئ واسعة محززة مسننة ترتبط حياتها برباط وثيق بحياة الارض المحيطة بها. فلايمكن الفصل بين تاريخ البحر وتاريخها .

(عن بشارة خضر ـ دراسات دولية ، عدد (٣٩ /٢/٩١) .

اننا عندمانتطلع الى الحاضروالمستقبل هل يمكن لنا أن نتناسى الاحلام القيصرية الرومانية عند مؤسسي الصهيونية السياسية الذين حلموا بروما جديدة على الشاطئ الشرقي للمتوسط تكون قادرة كروما القديمة على الانطلاق الى عالم البحرالمتوسط الفسيح . أم أن نغفل عن أن نرصد بوعي كبير مايجري على الضفة الشمالية للبحرالمتوسط من تخطيط لعالم متوسطي للقرن الواحد والعشرين يمكن أن يكون أكثر مناسبة لمخططي النظام العالمي الجديد الذي تهيأ بكل هدوء مخططاته ومصوراته على الارجح بعيدا عن ضفتي البحر؟ .

على الشعوب المقيمة على ضفاف البحرالمتوسط لابد أن تستيقظ يوما وفي طليعتها العرب الذين يقيمون على الشواطئ الجنوبية والشرقية لكي تقود بنفسها زمام أمرها وعندها سيكون للصراع المستمر على ضفتي البحر مسار آخر .

! ! ! ! ! !

مراجع :

- La Mediterrannee et le monde Medeterrneen
  l'époque de Philip II.Paris 1949 ,(Braudel)
- P.Chaunu l'expanaion Europeenne du XIII au XV Siecle
  Paris 1969 .
- P.Alphandry & A.Dupront, La Chretienté et l'idée
  de croisade 2.vols.Paris 1954-59
  F.Congnasso,Doeuments relatifs à'l'histoire des Croisades
  8 vols , Paris. 1946.
  H.Seyrig, Syrie, 39(1962)p.193-207
  Emile Leonard, les Croisades 3, dans
  Encyclopedie de la Pleiade II

مراجع عربية ومعربـــــة :

- الكامل في التـاريـــــــخ
- النوادر السلطانية لابن شـداد .
- محمد مـاهر حمـادة وثـائق الحروب الصليبية .
- أمين معلوف الحروب الصليبية كما رآها العرب د. عفيف دمشقية
الفـارابي بيروت ١٩٨٩

حكاية الصليبيات

في ثلاث تواريخ

الدكتور شاكر مصطفى
جامعة الكويت "سابقاً"

كتبت هذا الحديث على أنه أول الاحاديث عن الصليبيات في هذا المهرجان فلما صار آخر الاحاديث صار مافيه من القول فضولا مملولا وقد سبقني اليه هنا وهناك ستة أساتذة أعلام .

ولست بأبي العلاء المعري لاقول :

واني وان كنت الاخير زمانه — لات بما لم تستطعه الاوائل

ولا أنا عنترة لاتساءل معه :

هل غادر الشعراء من متردم — فأبحث عن المتردم وفيه ؟

ولكني أقدر تقديرا أنه ماترك الاول للاخر شيئا ومع ذلك فحكاية الصليبيات تكتب فيها المجلدات بعد المجلدات ولاتنفذ ولوجئنا بمثلها مددا فهي أطول حرب عرفها العالم منذ وجد العالم انها تاريخ الانسانية خلال عدة قرون وستعرفون لماذا وكيف فهي القسم الاخير من صراع الشرق والغرب . والى ماقبل ٥٠٠ سنة فقط ، كان العالم كله مقصورا على حوض المتوسط وله امتداد الى الهند والى الصين . هذه هي الدنيا التي كانت معروفة وقد اصطدم الشرق بالغرب مرات قبل الاسلام كان آخرها صدام الفرس الزرادشيتين بالبيزنطيين المسيحين فلما تنصرت بيزنطة من جهة واحتل الاسلام أرض الفرس من جهة أخرى ورث الاسلام الصراع التقليدي ولكن صار طابعه صراع الاسلام مع المسيحية : أهي الصليبيات ؟ لا أبدا ما كانت المسيحية كلها مستثارة ضد الاسلام كله . وحين دخل شارلمان هذا الامبراطور الامي على أراضي الاسلام في اسبانيا . دخل وخرج دون أن يكون للصليبية معنى فقد كان يتوسع أرضا دون خلفية دينية واضحة

الصليبيات بدأت حين شاعت دعوة المسيحية جميعا لحرب الاسلام جميعا ... وسنرى أن ذلك كان في القرن الخامس الهجري /١١م .. ولما كانت مناسبة هذا الحديث تقضتي بالارتباط بتاريخ ١٢٩١م التاريخ الذي

طرد فيه الصليبيون من الشام قبل ٧٠٠ سنة فلنبدأ من هذا التاريخ في انتظار أن أذكركم خلاله بتاريخين آخرين هامين من مثله .

ما أذكر أني حرت مرة في عنوان حيرتي في اختيار عنوان لهذا الحديث . صحيح أنكم دعيتم لسماع شيء حول مرور ٧٠٠ سنة على خروج الصليبيين من الشام ، ولكن الحديث سيلم بثلاث سنوات من الذكرى ، لا واحدة احداها التي جاءت في العنوان ، والثانية كانت قبل ٥٠٠ سنة بالضبط والثالثة بعد ٤٠٠ سنة أخرى ، فنحن نعيش على لياليها اليوم !

وإذا كان التاريخ الاول نصرا وفخرا ، فمن أسف أن التاريخين الآخرين لم يكونا كذلك ، ولن أكشف عنهما الآن ، فدعوهما لمجرى الحديث :

الزمان كان قبل سبعمئة سنة بالضبط في صباح ١٨ مايو/أيار من ١٢٩١م والمكان مدينة عكا بأسوارها العتية الدهرية وميناءها المملوء بالاشرعة يصطفق بعضها في بعض . والحركة المجنونة تأخذ بالسفن والبحارة ، وبالناس يتراكضون ، ومجموعات من أجلاد الجند يستعجلون أن ينزلوا في الماء السلاسل الحديدية الضخمة التي تسد مدخل الميناء ورنين الابواق والطبول يهز الفجر ، ودبيب الجنون في البلد المحاصر يأخذ مداه :

المسلمون فتحوا عدة ثغرات في الاسوار ... وكان للنبأ وقع الفزع الاكبر ... منذ أطل أول سيف مسلم من الثغرات التي فتحت أخذت البيوت تفرغ بسرعة من الرطانة الايطالية والفرنجية وسرى الذعر في الدروب كالسيول ، وانسكبت في الاسواق أكياس الفلفل الثمين ، وكان يباع بالحبة الواحدة للموسرين ، وداست الاقدام قطع الفراء والسمور والبخور ، وصار الزنجبيل والقرفة والبهار قطعا من فتات الخشب في التراب ...... وتراكض الناس نحو المرفأ يزلقون بالزجاج الغالي المحطم ، وتصادم بعضهم مع بعض .. البيوت تركت مفتحة الابواب ، وبعضهم يكمل ملابسه

على الطريق ،وآخرون يلقون بعدة الحرب على الدروب ويفرون.وبعض يحمل أولاده ويتلفت مذعورا وراءه . واذاكان بعض من رجال الميليشيات الدينية قد حشد نفسه بشراسة للحرب والموت فالآخرون لم يكونــــــــوا يبغون سوى الوصول للمرفأ .. المراكب هي التي اختنقت بالهاربين :

رجال ونساء وأطفال يلقون بأنفسهم في البحر،ومن ورائهم الاشلاء تلتصق بالجدران وتملاء الدروب ،وامتلأت السفن بالناس ، امتلأت حتى غاص مؤخر بعضها في الماء فمايريم ومال بعض على جانبه فرمى بحمولتــــه في اللجة ، وترى جثث الغرقى تطفو على الجلد وتختفي ،وجموعا تخوض الماء الى مافوق الاذقان ، تلتمس خشبة من سفينة هاربة ،وأشرعـــة تتحطم ،والتصايح يصم الآذان ،وارتفعت ألسنة اللهب من كل جانـــــــب في المدينة بشواظ من نار ودخان ... والسعيد السعيد من لحقت سفينته فخرج من الميناء قبل الاخريات ، وابتعد وهو يلقي النظرة الاخيرة على أرض السمن والعسل .

سنة هذه المعركة اللاحمة كانت ألسنة الانقلابية الصليبية،وكانت ثأرا متأخر الزمان ليوم مرقبل مئتي سنة خاض فيه الفرنجة الدمــــاء حتى الركب في المسجد الاقصى ،وتحت أقدامهم سبعون ألف جثة !!ولكن من ذا الذي كان يطوق مدينة عكا ؟ من ذا الذي كان ضمن الاسوار ؟.. الذي كان يطوق الاسوار كان سلطانا قصير الفترة جدا ،مرومروراعابرا بين سلاطين المماليك ، لم يصل الى ثلاث سنوات ، ولميسجل له التاريــخ من الاعمال العظيمة سوى هذا العمل ،هو السلطان خليل بن قلاوون ، أبوه هوالذي كنس الفرنجة مابين انطاكية الى اللاذقية ثم الى طرابلس التــي لم تصمد أمام جيوشه الضاربة المؤلفة من أربعين ألف فارس ومئــــة الف من المشاة . فانهارت ودمرت كلها،ولم يبق للفرنجة في بلاد الشام سوى تلك الشقة الساحلية الضيقة مابين صيدا وصور الى عكا وقــد آن قطافها ... ولكن الموت اختطف قلاوون قبل أن ينفذ مشروعه ،فأكمــل الطريق ابنه خليل بعدأشهر.. عاجل عكا المنيعة بهجمات مازالـــــت تهزها كالزلازل وتنثر فيها الذعر والفوضى شهرا ونصف الشهر،ومجانيقه

الضخمة التي كان بعضهايزن بقنطار دمشقي أو أكبر والتي كانت يومذاك من أضخم آلات الحصار ،كانت تمطرها بحجارة من سجيل. أما المدينة فكانت تلخص الاحتلال الفرنجي كله في الاراضي المقدسة خلال السنوات المئتين السابقة ،كانت خليطا عجيبا من التجار والرهبان العسكريين وأشباه الامراء المغامرين ، فيها من الجاليات الايطالية المتنافسة حتى الحقد والحرب والتآمر من بيزاوية وجنوية وبنادقة يؤيد بعضها ضد بعض عناصر من ميليشيات الداوية والاسبتارية والتيوتون وقد أضيف الى هؤلاء جموع من لاجئي الفرنجة من المدن المفتوحة تمثل سبع عشرة جالية ،كل منها كيان مستقل بشأنه هذا الى ممثلي منظمات الفرسان ،وممثلي ملوك انكلترا وفرنسة وقبرص ،وأحزاب النبلاء .

وكل يتصرف على طرقه الخاصة ويغني على ليلاه .. لم يكن أحد منهم يحسب أنه يعيش الايام الاخيرة من الوجود الفرنجي في الشام .

وانتصر الجيش المملوكي الاسلامي ... والقى في البحر آخر جندي فرنجي في الشام . هذه المعركة كانت في وقتها مغامرة غير مأمونة الجانب فقد كان الفاتحون مكشوفي الظهر واذا كان الفرنجة أمامهم ،فقد كان بحر من المغول وراءهم في العراق وايران يتربص بهم الدوائر ولقد حاول المغول والصليبيون معا أن يتصل بعضهم ببعض وان يتحالفوا ضد القوة المسلمة المحصورة بينهما ،وجرت سفارات ومفاوضات ووفود بين الطرفين ، لكنها لم تنته الى مشروع محدد ،فكل من الطرفين يريد المغنم لنفسه ،عدا عن أن الرأي الفرنجي كان أشتاتا من الاراء والاهواء والغرب الاوربي الذي كان يتبنى هذا الكيان التجاري المصطنع ويزوده بالرجال والاظافر والانياب انقضت مآربه منه ،فأدار عنه ظهره الى سياسات أخرى في حين كان هذا الكيان الفرنجي المصطنع يتكالب على الارض تكالب اليهود عليها اليوم . واذا كان الجيش المملوكي الفتي ، والغنى الاقتصادي الذي جلبه مرور خط التجارة العالمي بمصر والشام بعد أن انقطع الطريق بوجود المغول في المشرق ، فقد أعانا السلطان المملوكي على الانتصار ،فان أوروبة التي كتبت بداية المشروع الصليبي بيديها كما

فعلت باسرائيل ، فانها هي التي كتبت نهايته بيديها أيضـــا وتخلت عنه . فتساقط قطعة قطعة ،لانه كاسرائيل ورم لا لحم ولا عظم .

المدن التجارية الايطالية وفلول المنتفعين هي التي بقيت فيــــه تستنزف وتتناحر عليه حتى القطرة الاخيرة والبساط يسحب من تحـــت أقدامها ،حتى جاء هم الانهيار ، فاذا هم يخربون بيتوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين .

بعد العهد جدا بعناصر الحملات الطيبية الاولى المشتعلة جمـــرا وحقدا ولهفة للوصول الى القبر المقدس ، أمحت أطياف تلك الجموع الاولى تماما بعد مرور مئة وخمسين الى مئتي سنة على خفق سيوفها الحديدية الثقيلة ، وسنابكها المحمومة بالارض الشامية ، أغرقها النسيان فـــلا يكاد يذكرها أحد . حتى صلاح الدين كان قد أضحى أسطورة بعيدة .وحطين وتحرير القدس ،وهرب مملكة القدس الى قبرص ، أضحت من تلك الذكريات القديمة بعد أن انقضى عليها قرن ويزيد من الزمان ، والحرب ماتـــزال دائرة مستمرة ... بلى ،الكثيرون يحسبون أن تحرير القدس ،سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م على يد صلاح الدين قد أنهى حروب الفرنجة ... والحقيقة أنهـــا استمرت قائمة من بعده ، استمرت رسميا على الاقل مئة سنة .. حتى يوم عكا الاخير .

وقد تعجبون أني لم آت على ذكر الطيبيين والطيبيات ، وتحدثت عن الفرنجة .. وعمدا ما فعلت ذلك ،فالاقدمون كانوا أدق نظرا منا ،وأصح حكايـــة .

يوم وصلت حملة الفرنجة الاولى الى الشام حسبهم الناس من جنــــد الروم البيزنطيين ،وتراكضوا الى بغداد يشكون خيول الروم وجند الروم وبكوا واستبكوا وكسروا المنبر ،ثم تبين لهم الامر وأنهم أتون من أقصى الارض الغربية ،وأن بعضهم كان يحارب الوجود العربي في الاندلس . عرفوا أنهم الفرنجة ،وهكذا نزل الفرنجة في الكتب بعد أكثر من ستمئة سنة ، أي منذ قرنين وبعض القرن ، أطلق المؤرخون الغربيون علـــى هـــذه الحروب اسم الطيبيات والطيبيين . حملوها اشارة الطيب لتكون فتـــرة

منفصلة وفصلا من فصول الحكاية الصليبية الطويلة التي لايعترفون بها بين الشرق الاسلامي والغرب ... لاعلاقة للصليب بالحملات الصليبية ولاللسيدالمقول صلبه ، انه منهابراء،فماكان الارحمة ومحبة وسلامة ، ولكن البابوية أخذت عن الاسلام فكرة الجهاد ،وملأ تهابدل التسامح والتعامل بالحسنى حقدا وكراهية ومرارة خيالة مضلة ،وألقتها أمرا مقدسا الى الجموع الجاهلة في أوربة ومنتهم معها بوعود الجنة ،وثروات الشرق . والغاء الديون والعفو عن المجرمين .. وهكذا كانت الصفقة رابحة ومن ذا الذي تنثر له هذه الاماني ولايلقي بنفسه مهرولا الى الشرق ؟

ونرى بين هؤلاء الفرنجة الاوائل أصحاب الجرائم والمفلسين وعبيد الارض ، الآبق الهارب من سيده والذي هرب من زوجته !! فالباباغفر لهم ذلك كله ومنحهم جنة الله في السماء ،وجنة الارض في الشرق .

هل كانت هذه الحروب حروبا دينية ؟ أعيذ أديان السماء من هذا القول . لقد كانت حروب مصالح اقتصادية بحته ،وان لبست مسوح الرهبان السوداء. ورفعت في طليعتها الصلبان .. الحروب الصليبية لم تكن لله الا لدى البسطاء ممن كانوا وقودها . كانت كذلك للفلاحين المنجرفين معها وللمعدمين المتسكعين وللكهنة الجهلاء المهووسين . ولعلها كانت كذلك لبعض البابوات الحالمين بالسيطرة على الدنيا باسم الرب..
ولكنها لم تكن دينية ولم تعرف الدين لمن أوقدوها نارا في الرعاع ومونوها ونقلوها على المراكب الى الشرق . وللامراء الطامعين بالاقطاع وبثروات الشرق الاسطورية ... الجموع التي سيقت كالاغنام من أقاصي قرى أوربة كانت تصدق أنها تحاوب لله وللقبر المقدس . أما الزعماء والموجهون وراء ذلك فكانوا يعرفون أنهم يحاربون للطاغوت تجار الجنوب الاوربي / تجار البندقية وبيزا ونابولي ،ومرسيليا وجنوة وبرشلونة ... كانوا يعرفون المحرض الديني ويستغلونه .. مئات الالوف قضواوهم يحسبون أنهم ماضون ركضا الى جنة الله .. في حين كانت اساطيل التجار هي التي تستغلهم مرابح وامتيازات وأسواق بضائع وتكديس أموال
وهنالابدأن نذكرأن أسباب الحروب الصليبية قدأختلفت الاختلاف

الكبير مابين آولهاسنة١٠٩٥ وآخرها١٢٩١ . لم يكن من المعقول أن تكون أسبابا واحدة مستمرة الاثر والتأثير خلال مئتي سنة وهكذا كان لكل فترة ولكل حملة دوافعها ومحركاتها الخاصة بها... ماتسميه بالاسباب الدينية قد ينطبق جزئيا على بعض الحملة الاولى والثانيــة والثالثة . أما الدوافع السياسية والاجتماعية والعسكرية فهل يمكن أن تكون هي نفسها خلال سبعين أومئة سنة ؟ . ومع ذلك فان عاملا واحدا لايغيب في جميع الحروب والحملات الفرنجية التي يعدونها رسميا ثماني حمـلات وهي تزيد على المئة بين كبرى وصغرى ،هذا العامل هو العامل الاقتصادي طمع التجار الاوروبيين في ثروات الشرق والوصول الى مصبات البخوروالبهـار والقرنفل والزجاج.. ولقد استخدم العامل الاقتصادي للتوسع والفتـــح وللانفاق على الحروب ولزيادة الثروات دوما، ولكن لم يستخدم ولومـرة واحدة في الشأن الديني الخالص ... كان هذا الشأن على الدوام آجيـــرا عرضة الاثارة وتجميع القوى، وكان حصيلته تصب في النهاية في الوعــاء المادي الاقتصادي .

لم يبشر الفرنجة مثلا بالدين المسيحي ولا بالكاثوليكية ، لم يحاولوا حتى تحويل الارثوذكس المشارقة الى الكاثوليكية ، ولكن العداء الدينـي كان الوقود الذي يضرمونه أبدا لتأمين المصالح الاخرى .

أأنتم في شك من هذا ؟ اذا ففسروا هذه الامور :

قبل أن يصل أول جندي فرنجي الى انطاكية باب الشام الشمالي كانـــت مراكب المدن التجارية الايطالية تغير على اللاذقية . كانت هذه المــدن قد اغتنت نتيجة تجارتها مع المشرق الاسلامي بشراء البخوروالبهــارات والزجاج ،وتجارتها مع المغرب الاسلامي الذي كان ينزح الذهب السودانـي من غرب أفريقية ويوصله الى الموانىء المغربية ليشتري به العبيـــد والفراء والاخشاب الاوربية . واغتنى هذا الجنوب الاوربي في القـــرن الخامس هجري (١١م) بدرجة صارت أساطيله فيه سيدة المتوسط ،فأمتدت مطامعه لاحتلال المشرق ، مصب التوابل الثمينة والبخور. في الحملة الاولى حين وصل الفرنجة الى فلسطين ولم يكن بينهم وبين القدس ، والقبـــر

المقدس سوى كيلو مترات معدودة ،عقدوا مجلسا يتشاورون : هـل يهاجمون القدس أم يمضون قدما لمهاجمة مصر ؟ ... طبعا انتصرت فكـرة الهجوم على القدس ،لان الحملة الاولى كانت في معظمها ممن تغلب عليهـم العواطف الدينية ... أما بعد ذلك فماذا كان ؟ جميع المدن التي افتتحت على الساحل الشامي شاركت فيها أساطيل بيزا وجنوة والبندقية ونـابولي ونـالت عليها الامتيـازات أسواقا خاصة بها،واعفاءات من الرسوم وثلـث الغنـائم وأحياء حرة تطبق بها قوانينها .

ثم لما كانت الحملة الثانية بعد خمسين سنة، اختبطت أوربـــــة لاسترداد المسلمين بقيادة زنكي مدينة الرها (أورفه) وانثالت الجمـــوع من الغرب بمئات الالوف لاستردادها. ولكن الملوك الذين قادوها زحفـــوا على دمشق ! ! وكان ممادافع عن دمشق مشمش دمشق .. وفشلت الحملـة أمام الاسوار... وانفصلت الاسباب الاقتصادية وبرزت وحدها خـــــلال ذلك كله وبعده ،فكانت قوافل التجار المتبادلة تمر آمنة ،وبالقرب منها جموع المحاربين في حرب ضروس بعضهم مع بعض أضحت الحروب روتينيـــة للتوسع أو الدفاع ولحماية المصالح أو زيادتها. فاما الاسباب الدينيـــة فلم تستقيظ مرة أخرى الا حين تحررت القدس على يد صلاح الدين .

والحملة الثالثة التي قادها ملوك أوربة لتحريرها اقتنعت فــــي النتيجة بنوال بعض مرافئ الساحل وانصرفت ،وكان الرابع الاخيـر هـم التجار الممولون .

وشاع في أوربة بعد ذلك شائعة. الناس عند الفشل العملي يطلقون الشائعات الدينية قالوا في أوربة / انا فشلنا لانا مذنبون خاطئـــون ولو كنا أنقياء لما فشلنا. لاينقذ القدس الا الانقياء، وليس أنقى مـــن الاطفال . وراجت الدعوة فاذا بعشرات الالوف من الاطفال يزحفون بقيادة رجال الدين من أعالي فرنسة وأقاصي المانية الى ضفاف المتوسط.الكثيرون منهم ماتوا على سفوح الالب . وبعض هلك من الجوع والارهاق. ولكـــن من تجمع منهم على الشواطئ من مرسيليا حتى جنوة وماحولها كـــان الرقم الضخم بعشرات الالوف . كان الرهبان قد وعدوهم أن يجف البحـــر

أمام نقائهم وطهارتهم وأنهم سوف يجتازون هونا على الاقدام،ولكن الاطفال انتظروا وانتظروا دون طائل،لاالبحر جف ولاهم يتقدمون الـــى القبر المقدس . وتبرع تجار الاساطيل الايطالية بنقلهم الى المشرق ... وأركبوهم البحر ومضوا بهم ، ولكن الى أسواق النخاسة .. صاروا عبيدا

وعاد البابوات يحلمون باسترداد القدس لابالاعتماد على الملـوك هذه المرة وعلى الاطفال ولكن على الامراء . وراجت الدعوة لتتكـون الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠١ فماذا كان؟ المحاربون كانوا امفلسين وعقدت كتلة المحاربين معاهدة مع البندقية لنقلهم الى مصرالتي كانـوا يعرفون قوتها الاقتصادية مادامت ممرالتجارة العالمية . وركبت الحملـة بالمراكب ،ولكن البندقية اشترطت عليهم شرطا هوأن يقاتلوا معهـا أولا الامبراطورية البيزنطيةويحتلوا القسطنطينية ووافقوا. ووصلـت بهم الاشرعة هناك وفتحوا المدينة التي استولى عليها البنادقة .. ثـم ماتت الحملة على البوسفور . كانت القسطنطينية أعظم المدن التجاريـة على مدخل أوربة الشرقي توزع بضاعة المشرق كله لاوربة . فلما أخذوهـا وأقاموا فيها الحكم البندقي انتهت بالنسبة اليهم مصالحهم من الحملـة فتركوها للجحيـم !!

الحملتـان الخامسة والسابعة توجهتا الى دمياط في مصر،فهل كان القبـر المقدس هناك ؟ أم المصالح المقدسة؟ .

هل أنسينا الحملة السادسة ؟ أبدا ولكنها كانت علنا ضد الدين. صاحبها كان محروما من قبل البابوية ،أي محرما حتى على أهله الحديث معـه باعتباره من أتباع الشيطان . ومع ذلك فهذا الملك الصقلي استـرد بالمفاوضة السياسية القدس . صاحب مصر الايوبي كان يتفرغ لحرب أخيـه في دمشق . فتنازل له عن القدس . وبقيت في يده خمس عشرة سنة .

تبقى الحملة الثامنة التي يبدو أن القبرالمقدس هرب أيامها مـن القدس الى تونـس .

فتوجهت الحملة الى هناك ، وكانت تونس احدى مصبات الذهب السودانـي

وممراته الى أوربة. بعد هذا كله أكانت الحرب دينية ياترى ؟
وحكاية الصليبيات بعد هذا حكاية طويلة تروى ثم تروى مثالا مكرورا للحرب العبثية . سالت على أطرافها الدماء بددا وماتزال تسيل. وفتحت أوسع جبهة قتال عرفتها المعمورة قبل الحرب العالمية الاولى في هذا القرن العشرين ، فقد امتدت على نصف الارض المعروفة قبل كشف امريكة ورأس الرجاء الصالح ، وامتدت بعد ذلك الى أقاصي آسيا وقلبها ،وكانت الى ذلك أطول حرب عرفتها البشرية الى اليوم. بلى فهي ماتزال قائمة قائمة ،وتتخذ في كل عصر اسما وهدفا.وهي هي لاتتغير. ولو أن بزتها الحروب في هذا القرن لقلنا أنها كانت أكثر الحروب ضحايا وزيفا وضلال شعارات وتنوع أقوام وأهواء .

كانت وماتزال النموذج الكامل للحرب الشاملة المستمرة . كانت شاملة بالوسائل لانها لم تدع وسيلة من وسائل الصراع الا استخدمتها . استخدمت التدمير والقرصنة والحصار الاقتصادي والتجويع والاحتلال البشري والعسكري والسلام المخادع والحقد الديني والتحالف المضاد. وكانت الشاملة في المكان فمامن بقعة على الارض وجدفيها المسلمون الاشنت ضدهم هذه الحرب نفسها مرارا وتكرارا من أقصى السنغال وموريتانيا الى سواحل الشام ومن قلب أوربة الى أقاصي الهند وأندنوسيا والفيليبين . ومن شرق أفريقية الى بلاد تركستان .

وكانت الشاملة في القوى ،فمامن أمة في أوربة الا وأسهمت فيها بنصيب من انكلترة وفرنسة وهولانده الى الروس واليونان والالمان والايطاليين والسويد والدانمراك وهي ماتزال حتى اليوم تبيض وتفرخ وتطلع في كل عهد بثوب دموي جديد. وأسرع الى القول هنا أني لا أفهم الصليبيات بالمعنى التقليدي الديني. أبدا . ولا بالحملات التي رفع أمامها الصليب. ولكن كل حرب عيثية أعمى أصحابها الحقد والعدوان وحركتهم الغنائم والجشع الاقتصادي ضد البلاد العربية والاسلام .من أقصى موريتانيا الى أقصى الفلبين مهما أخذت من الصيغ والاشكال والتلون . لقد شملت كل مكان فيه مسلم. شموليتها في المكان عرفها الناس منذ أيامها الاولى

في سنة ٤٩٨هـ /١١٠٤م أي بعد احتلال الفرنجة للقدس بخمس سنوات كان يدرس الناس في الجامع الاموي شيخ وقور اسمه : أبو الحسن علي بن طاهر النحوي السلمي أحد محدثي دمشق وقد جعل دروسه وقفا لحرب الفرنجة وألف كتاب (الجهاد) في مجلد كبير من أثني عشر جزءا وهو يردد في الكتاب الذي ماتزال سبعة أجزاء مخطوطة منه في هذه المكتبة هنا (مكتبة الاسد في دمشق) /ليست هذه الحرب ضدكم وحدكم يا أهل المشرق . انها حروب واحدة ممتدة من أقصى الاندلس حتى هذا المشرق كان الناس يستمعون اليه ولايعون القول. ما أدركوه الابعد أن ملأ أصحاب العيون الزرق والشعور الشقر سواحل الشام . وضاعت صرخات الشيخ الدمشقي مع صليل السيوف الاوربي الثقيل .

في حين كانت حروب الفرنجة تشكل هجرة بشرية كاملة بخيلها وحميرها وعرباتها والنساء والاطفال وبما استمر يلحق بها سنين طويلة من البشر، ولايقدر هذا الزحف البشري الذي استمر مئتي سنة بأقل من عدة ملايين من الانفس نقلت معها كالاسرائيليين اليوم نظمها الاقطاعية واخلاق رجالها والنساء ولغاتها ورجال الدين والاطباء والمتسولين والمجرمين .

والناس على الاصطلاح السائد يعتبرون حروب الفرنجة قد بدأت بنداء البابا أوربان الثاني في كليرمونت سنة ١٠٩٥م/٤٨٧ هـ . وترداد الجموع لندائه : هكذا أراد الله والواقع أنها بدأت قبل ذلك بسنين طويلة .. لا أرجع بكم الى أيام شارلمان وأناشيد رولان ولاالى القرن الرابع وحملات الامبراطور تزيمكيس البيزنطي واحتلاله طرسوس وانطاكية فقد تكن هذه حملات رومية لاعلاقة واسعة لها بماجاء بعدها في القرن الخامس الهجري (١١م) من أوضاع جديدة ،سواء في أوربة أو المشرق أو المغرب .

ففي أواسط القرن الخامس كانت البوءر الحضارية حول البحر المتوسط وهي أهم بؤر الدنيا يومذاك في الحضيض السياسي . كانت خاملة كلها....

الخلافة العباسية في بغداد مهلهلة . والخلافة الفاطمية في مصر تشكو المجاعات .. والامبراطورية البيزنطية منحلة القوى .. والاندلس كانت تعيش عصر ملوك الطوائف في أعنف درجاته . في ذلك الحين تحركت في أوقات متقاربة قوى بدوية عديدية تتجة الى هذه القوى الحضارية تحرك النورماند من أقصى شمال أوربة نحو الجنوب فوصلوا صقلية العربية وظلوا ستين سنة يقاتلونها حتى افتتحوها جميعا . ووصل بعضهم ارض بيزنطة وتطوعوا في جندها في أسيا الصغرى والبلقان .

وتحركت جموع السلاجقة الترك من المشرق ، فاكتسحت في ثلث قرن أرض الخلافة العباسية في المشرق كله ، ودخلت بغداد بعد أن كانت أقسام منها تحارب الروم في الاناضول ، وأقسام تحارب الفاطميين في الشام ونبعت في أقصى المغرب قوة في جنوبها الصحراوي - هي قوة المرابطين - اكتسحت المغرب كله وأطلت منه على الاندلس . أما البحر المتوسط نفسه فكان تحت سيطرة القوى البحرية للموانىء المنتشرة في شماله بين ايطاليا وفرنسا خاصة . وكانت هذه الموانىء مثل جنوة ومرسيليا وبيزا ونابولي والبندقية هي سيدة الحركة فيه . وكان غرب أوربة وبلاد فرنسة الفرنجية ينتعش مع هذه الموانىء بتدفق الذهب السوداني الذي تحمله القوافل الى حوض المتوسط لشراء الخشب والفراء والعبيد من أوربة .

أكثر الاقسام انتعاشا كانت الممالك الاسبانية الصغيرة في شمال الاندلس فكان همها أن تتوسع على حساب ملوك الطوائف المتناحرين .. واستغلت هذه الممالك الفرصة وبدأت قبل أواسط القرن الخامس الهجري سلسلة من هذه الحروب للامارات الاسلامية المتفرقة دعيت فيما بعد بحرب الاسترداد وهكذا ابدأت الحروب الفرنجية الصليبية هناك .. في اسبانيا قبل أن تصرخ جموع البابا صرختها ((هكذا أراد الله)) بأكثر من خمسين سنة وتتجه الى المشرق . وكان من نتائجها قبل ١٠٩٥ م أن سقطت صقلية كلها واذا استطاع أن يحفظ الاندلس استنجاد ملوك الطوائف بالمرابطين

وانتصار المرابطين في معركة الزلاقة سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م فقد سقطـــت قبل ذلك في أيدي الفرنجة مدينة طليطلة ، فكان سقوطها الاسفين الذي قصم ظهر القوى الاسلامية ،لانه اقتطع شمال الاندلس عرضانيا للاسبــــان فلم يبق للمسلمين سوى الجنـــوب .

والناس على الاصطلاح السائد ينهون الحروب الصليبية بسقوط عكـــا في أيدي المسلمين سنة ١٢٩١م وماهذا السقوط في الواقع الانهاية مرحلـــة من مراحلها .. فقد كانت مملكة القدس منذقرن قد انتقلت مـــــن هناك بملوكها ونبلائها والفرسان اللاجئين والمشردين ولحقت بهـــــا المنظمات الدينية من مليشيات الاسبتارية والداوية والتيوتون الى قبرص لتتابع المهمة التي لم تستطع اكمالها في الشام أو مصر. أضحـــت قبرص مركز التجمع الصليبي لاعانة الصليبيين ثم منطلق الهجمات البحريـــــة ومحاولات استرداد مرافىء الشام أو مصر مايزيد على قرنين ،بعـــــد ذلك حتى أخضعهم المماليك فيها. خلال هذه الفترة لم يكد مرفأ من مرافىء الشام أو مصر يسلم من الهجمات القبرصية التي يشنها آل لوسينيـــــان بشراسة وعنف على طرابلس وجبلة واللاذقية وبانياس وعكا وصور ودمياط والاسكندرية .وثم منها وقائع مشهورة فتكو فيها أشد الفتك كهجمتهـم على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ التي فجعت المدينة عند صلاة الجمعة. فنهبـت وقتلت وأسرت ماشاءت وفر الاسكندريون الى البراري في حيـن كـانـــت النار تأخذ القصور والمساجد. والنساء يؤسرن ويهتكن . وقامت للقبارصة الافراح في أوربة. ووضع ملوك قبرص أكثر من مشروع للهجوم على مصـــر والشام ولكنها فشلت في دفع الغرب لتنفيذها فتحولت قبرص بالتدريـــج الى وكر للقراصنة برز منهم حنا الصوري الذي أغار على صرفند فدمرهـــا والاخوان الجنويان اللذان أغارا على صيدا. ثم أسرا سفينة اسلاميـــــة من الاسكندرية موسقة بالبضائـــع .

السلطان برسباي هو الذي أخمد هذه البؤرة. أرسل ثلاث حمـــلات متتالية عليها أخضعت الجزيرة مدينة بعد أخرى حتى أسروا ملك الجزيـرة نفسه وسار موكب الاسرى بالقاهرة وفي ذيله الملك جانوس وعلـــى رؤوس

الحمالين الغنائم ومن خلفها البغال .

وعلى الجبهة الشرقية كان المغول يحتلون العراق . وقد حاولوا هم والصليبيون معا التحالف مرات ومرات . أبغا المغولي وادوار الاول الانكليزي والبابا وملك أرمينية كانوا يستقبلون السفارات ويدرسون المشاريع للغزو. وحين نجح أبغا المغولي في تجنيد حملة مع آخيه منكوتمر من خمسين آلف مقاتل من وراثهم ثلاثون الفا من الكرج والارمن هزم هزيمة مدمرة مع جنده عند حمص . فعاد وعاد الملوك من بعده الى الاتصال بالبابوية عبثا . لم ينجح أي مشروع بجانب المغول والى الشمال وفي كيليكيا من الاناضول كانت أيضا وأيضا تقوم جبهة صليبية قوامها الكرج والارمن . بلى فهذه الممالك انتهزت فرصة الحروب القائمة لتدلي فيهابدلوها. ولم يكن آثرها قليلا. ان البعوضة تدمي مقلة الاسد. تحالف الكرج ومملكة ارمينية الصغرى تارة مع المغول وأخرى مع الصليبيين في الحروب وكانوا أرهقوا المماليك عنتا. وقام بيبرس وبعض الامراء المحليين برد هؤلاء في معارك عدة لعل أهمها معركة دربساك الذي قتل فيها ابن ملك الارمن وأسر الثاني سنة ١٢٦٦ ودمر آمير آخر بلدة سيس عاصمة الارمن فجعل كما قال بعض المؤرخين عاليها سافلها ،وأشعل النار فيها وأسر أربعين الف آسير. وصار رأس البقر يباع بدرهمين . فلم تفق الدولة بعدها من تلك الكارثة .

على أن الجبهة الصليبية الخطرة كانت في الاندلس . المرابطون الذين أنقذوه من الغزو الاسباني في معركة الزلاقة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م أي قبل وصول الصليبيين الى الشام بسنة واحدة. لم يستطيعوا آن يستمروا طويلا لاهناك ولا في المغرب لان ثورة الموحدين عليهم في المغرب جرفتهم بالتدريج وحل هؤلاء محلهم في الامبراطورية المغربية الاسبانية .

كان ذلك في العصر نفسه الذي كان فيه الصليبيون قد فرعنوا في الشام وصارت لهم الامارات والتجارات والاساطيل والجند. على أن اليقظة التي أوصلت صلاح الدين الى السلطة واعطته فرصته الكبرى في معركة

حطين سنة ٥٨٣ هـ/ أعطت زميله أيضا في المغرب وهو المنصور أبو يوسف يعقوب بن عبدالمؤمن نصرا مؤزرا مثله ضد قشتاله أقوى ممالك الاسبان فكان لمعركة حصن الارك ماكان لحطين في المشرق من الرنين والاصداء بعد أن دمر الجيش القشتالي تدميرا سنة ٥٩١هـ .

لكن الموت فاجأ صلاح الدين وعبدالمؤمن في وقت متقارب . توفي الاول سنة ٥٩٣ هـ/ ثم الثاني سنة ٥٩٥ هـ فكان للوفاتين رنة الفجيعة لدى من عقدوا عليهما الآمال الكبيرة .

وجاء الناصر محمد بن المنصور ليحقق حلم أبيه في الانتصار الساحق على الاسبان جميعا وتحالفاتهم . جمع نصف مليون جندي يريد مسح قشتالة سنة ٦٠٩ هـ /١٢١٤م . ولكنها كانت في تحالف بري بحري مع مملكة الاراغون والنافار وبعض زعماء الفرنجة واعداد من متطوعي الالمان والفرنسيين والطليان فكانت هذه المعركة الحاسمة معها هي التي أسقطت معظم مدن الاندلس خلال ربع قرن في أيدي الاسبان. لم يبق من اندلس الاحلام سوى مملكة غرناطة . هزم الجيش الموحدي الضخم في الجبال جنوب قشتالة في معركة العقاب سنة ٦٠٩ هـ/(الاسبان يسمونها معركة الكلاب) . وتناثرت الجثث أكواما على الصخور . فلم يسلم من ذلك الجيش الضخم سوى أقل من ألف رجل وكان ذلك نهاية ملحمة الاندلس لولا أن بقيت غرناطة في أقصى الجنوب الشرقي تناضل . سقطت قرطبة سنة ٦٣٣/ وجيان ٦٢٩ /واشبيلية وشريش ٦٤٦ وتبعتها شذونة وآراكس وقادش سنة ٦٥٩ /كما سقطت جزر البحر جزر البليار قبل ذلك .

جرت الاحداث الاخيرة في حين كان المغول يكتسحون الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٨/ .

مرة ثانية أسال و مرة ثانية أجيب :هل انتهت الصليبيات بفتح عكا؟ أبدا . فقد قامت أوربة وقعدت لهذه الهزيمة التي فاقت عندها تحرير القدس . ولكن هذا المقيم المقعد لم يزد على أن يكون عواصف في الهواء . أوربة كانت قد نفضت يدها من المشروع الصليبي بعد أن

أمنت تجارتها مع المماليك في المشرق . وقامت فيها أوضاع سياسية واجتماعية لم يعد للقبر المقدس مكان فيها . الامبراطورية الالمانية المقدسة أضحت دون موارد بشرية ومالية كافية . انكلترة وفرنسة اشتبكتا احداهما مع الاخرى في حرب المئة عام التي استنفدت مواردهما وجنودهما عدا مشاكلهما الداخلية .

اسبانيا قامت المنافسة فيها بين الممالك والامارات وقامت الحروب . ايطالية تحولت المدن التجارية فيها الى جمهوريات تبيع البابا والكنيسة بدرهمين من الفضة . وأما البابا فبدأ التململ منه والاهمال لتعاليمه ومعاودة النظر في وظيفته بعد أن مرت البابوية بأزمتين طويلتين وظهرت قوة المدن البرجوازية وبدأ انهيار نظام الاقطاع . وهذا ما يفسر كله ظهور خمسين مشروعا للحروب الصليبية لم ينفذ منها واحد .

الذين كانوا لايزالون يؤمنون بالمشروع الصليبي ويحلمون باعادة الماضي الذهبي ،كانوا يكتبون المشاريع عبثا ويقدمونها للبابوية والملوك ويتحمس هؤلاء لها ثم تنتهي كفقاعات الصابون الى لاشيء . لم يكن الدعاة هذه المرة خطباء محاربين ،ولكن كتابا يعلكون الآمال منهم الراهب الفرنسيكاني فيدينزيو . ومنهم ريموندلول الذي ولد في ميورقة ودرس العربية في الاندلس واقترح أن تبدأ الحملة بطرد المسلمين من الاندلس ثم يزحفون عن طريق الشمال الافريقي الى مصر والشام . ومنهم الفرنسي بطرس الذي أوصى باعداد حملتين أحداهما بحرية والثانية برية . ومنهم بوركار الذي اقترح نشر المسيحية في الشرق بعد استرداد الاماكن المقدسة . وعدد الطرق الاربعة الموصلة من أوربة اليها .

ومنهم سافودو البندقي الذي اقترح الحصار الاقتصادي لمصر ولقيت فكرته القبول ،وأصدر البابا مرسوما بايقاع عقوبة الحرمان على من يتعامل مع المسلمين في الشام ومصر لافقارهم واختص المرسوم البابوي عدم توريد الرقيق والخيل والحديد والخشب والكبريت والقار وهي مواد صناعة السفن بالاضافة الى القمح والزيوت والنبيذ الى مصر . على أن هذا كله لم يتحول حقيقة لان التجار كانوا أكثر جشعا من أن يسمعوا كلمة البابا ولانه لم تكن

للبابوية قوة بحرية تستطيع فرض الحصار ومراقبة الشواطىء ولان البابوية فقدت الكثير من مكانها الديني السابق. وهكذا أضحت الصليبيات أمنية وتوقا خلال القرن الذي تلا سقوط عكا والقرن الذي يليه (١٤، ١٥) ولكن هل عاد الاوربيون عنها ؟ أبدا ،ظلت كالنار تحت الرماد. وظلوا يبحثون عن مخرج من البحر الابيض المتوسط المغلق ،الى أن ... الى ان كانت نهاية القرن الخامس عشر. وهنا تأتي الذكرى الاخرى التي وعدنا بها في مطلع الحديث ... الذكرى الفاجعة :

سنة ١٤٩١ بالضبط كانت السنة الانقلابية الثانية التي قلبت الاستراتيجية والاطماع والمصائر . في هذه السنة سقطت غرناطة عروس الاندلس تمزقها الداخلي دمرها قبل أن يدمرها الاعداء ونسل آخر خيط من خيوطها الذهبية . وفي السنة ذاتها وصل كولومبس الى أمريكا ثم عاد يمنح أوربة قارة كاملة . وبعد قليل سنة ١٤٩٧ اجتاز فاسكودي غاما رأس الرجاء الصالح في جنوب أفريقية الى المحيط الهندي ومنح الغرب كل الشرق وثرواته ودبت الحياة في الحقد الاوربي الذي كبت عدة قرون لايجد مخرجا من اطار البحر الابيض المتوسط وأقبلت أوربة بعد جوع قرون طويلة على الغنائم التي لاتتصور كثرة ووفرة. وانساحوا الى أمريكة على البحر خفافا وثقالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . وتسربوا الى الهند فطوقوا العالم الاسلامي كله من الجنوب ليقطعوا عنه خبزه وتجارته الدهرية .وبدأ جحيم الصليبيات يأخذ حده الأعلى لاضد المسلمين فحسب ولكن ضد الزنج في أفريقية أيضا وضد الهنود الحمر في أمريكة على السواء. الحضارة الاوربية التي نعرفها اليوم دفع ثمنها عدا العرب المسلمين مئة مليون زنجي جرتهم أوربة على الاشرعة وبالسلاسل من مواطنهم الافريقية ،لم يصل منهم سوى عشرة ملايين. كما دفع ثمنها أربعون مليونا من الهنود الحمر أبادتهم أوربة لابالرصاص ولكن بالجدري والزهري.. ونزحت أوربة من هنا وهناك سيولا من الذهب أخذت تتكدس فيها وتمول مشاريعها التوسعية ،لم يعد الفلفل والبهار والزنجبيل من همها الاول ،ولكن كل ثمين وبالقوة الغالبة هذه تغلبت على باقي الدنيا في أمبراطوريات لاتغيب عنها الشمس .

ولم يطوق العالم الاسلامي كله من الجنوب فحسب بوصول البرتغاليين الى الهند ، ولكن انفتحت على أوربة بوابات من الثروة لاتصدق كثرة وتنوعا سواء في أمريكة أم في أفريقية أم الهند وماوراءها . وتراكضت الامم الاوربية تجمع من الثروة ماتشاء يعاونها البارود الذي أخذت سره من عرب الاندلس . تراكض الاسبان والبرتغاليون أولا ثم لحق بهم الفرنسيون والانكليز والهولنديون . وتسلل الايطاليون كذلك من البحر المتوسط المغلق ، ولم يعد الاوربيون في حاجة الى ارسال الهجرات البشرية الا الى الاماكن التي كانوا ينظفونها من سكانها كامريكة . أما البلاد الاخرى كالهند وأندونيسيا فكان الجيش هو الذي يقوم بجميع المهمات .

هكذا دُمرت الامارات الاسلامية العديدة في شرق أفريقية مابين سقالة وزنجبار وأحرقت المساجد وهزم الاسطول المملوكي أمام الهند ليسيطر البرتغاليون على جنوب الجزيرة العربية ويقطعوا شريان التجارة العالمية عنها وعن مصر والشام . وأسرع الهولنديون شرقا ليحتلوا اندونيسيا المسلمة ، وطاف ماجلان حول الارض ليصل الى الفليبين المسلمة ويمنحها اسم مملكة فيليب ويجعلها من ممتلكات تاجه وان هلك ماجلان فيها .

في الوقت نفسه لقي المغاربة وعرب الاندلس أقسى واشنع مايلقى بلد من العدوان . قامت محاكم التفتيش في اسبانية تفترس بالاقبية وآلات التعذيب الوحشي الجذور الاسلامية هناك خلال مئة سنة أو تزيد . وابتليت مرافىء المغرب العربي كله بالقراصنة والاساطيل الاوربية . فما من بلد آمن على البحر مابين موريتانيا وليبيا . بعضها احتل سنين طويلة . واحرق بعض ودمر بعض آخر وأسر الالوف وأخذت مراكب وبضائع .. مامن مرفأ لم ينكب من المهدية وجزيرة جربة الى أنفة ، أخذوا يعتبرون المغرب من حقهم الارضي الى أن وقع جميعا حول مطلع هذا القرن في أيدي الاسبان والفرنسيين والطليان .. صحيح جدا أن الدولة العثمانية دافعت عن معظمه وقامت فيه دول تدين لها بالطاعة ، ولكن القوة البحرية لهذه الدولة كان بعضها مستعارا كما لم تكن بحيث يعو سيما بعد معركة ليبيا والبحرية

التي هزمت بها، على جيوش القرصان الاوربية في الحوض الغربي للمتـــوسط فكان على المغرب أن يدفع العدوان بنفسه ما استطاع.. وقد فعل ولكـن بكل جهد جهيد . وهكذا اتسعت دائرة الصليبيات واختلفت وسائـــــل واسماء ولكنهابقيت في الاعماق هي ذاتهاوبدأ بذلك عصر الاستعمـــار. ودخلت على الخط الاستعماري أمم أوربية أخرى . دخلت روسيافأحكمت باقي الطوق الاستعماري على العالم الاسلامي من الشمال منذ أواخر القرن السابع عشر فهذا العالم القديم الذي كان دومامهد الحضارات والذي كان الاسلام قــد انتشر فيه صار ضمن القفص، فهو الفريسة المكبلة وأمم أوربة تنهـــش تقتل، تحتل، تدمر، تبيد من هذه الفريسة حيث تشاء. انكسرت حلقتـــه الاولى في غرناطة فاذا بالانشوطة الاوربية تلف حول عنقه حتى روسيـا وحتى الفليبين .

والناس لايكاد أحدمنهم يذكرلروسيا دورها الاستعماري الضخـــم. قلب آسيا الواسع كان يبتلع . الصور والتواريخ والناس . لقدألقـــى ستارا من الظلمة على الفظائع الروسية ضد الاراضي المسلمة . لست أقصـد فقط عداءها الدائم وحروبهاالمكرورة ضد الدولة العثمانية ولكن أعمالهـا في حق المسلمين. الاراضي التي كانت في الصمت تسيطرعليها تدريجيـــا انهالاتكاد تقل عن أعمال الاسبان. من بلدة قازان على نهر الفولغـا الى شبةجزيرة القرم. وهكذا شرقا الى بلادتركستان وماوراء ذلك حتـــى حوض تاريم، كانت هذه المنطقة منطقة اسلامية حتى عهدقريب قريب، وانما غطاها المد الروسي في كل مكان الا فيتركستان حيث يضرب الاسلام بجـــذور قوية فطوقتها روسية القيصرية وعزلتهاعن العالم رغم ثوراتهاوتمردها. يعقوب بك أحد زعمائها حارب الروس والانكليز والصينيين معاقبـــل أن يلقي السيـــف .

دخلت في المعمة أيضا الحبشة . بلى حتى الحبشة البعيدة المتخلفـة أدخلها الغرب في مشاريعه الصليبية لاغلاق البحر الاحمر. منذ القرن الرابـع عشر حرصتالبابوية على تقوية صلتها بالحبشة رغم اختلافها عنها فـــي المذهب الديني وتبادلت معها الوفود أولاعبرمصرالتي كانت تقبض على هذه

الوفود عن طريق المحيط الهندي بعد أن انفتح على الاوربيين في سنة ١٣١٥ أعد ملك الحبشة جيشا من ثلاثة ملايين فيما يقولون لمعونة ملك قبرص والهجوم على مصر من الجنوب ولكنه خسر ثلثية وهو مهزوم لسوء عتاده الحربي .

وفي مطالع القرن الخامس عشر حين ألغى المماليك مملكة قبرص وأسروا ملكها جانوس كان الذي كتب يدعو أوربة للثأر هو ملك الحبشة اسحاق الاول الذي أدخل على جيشه استعمال السيف والرمح والزرديات والنفط .

وقد تم الاتفاق على خطة مزدوجة ولكن الذي سفر بها كشف في مصر وقتل.. والذي وقف دون نجاح هذا المشروع وغيره هو بعد الحبشة وصعوبة الاتصال بها حتى صار البرتغاليون في المحيط الهندي ، فكانت الحبشة يدهم اليمنى في المساعدات وتوالت كتبها ورسلها تهنئهم بالانتصارات وكان أخطر ما فكر فيه البرتغاليون و الاحباش تحويل مجرى النيل عن مصر لتجويعها ... لكن هذا كان حلما من الاحلام . فوسائل تلك الايام لم تكن بحيث تنفذ هذا المشروع الجهنمي الضخم .

الدولة الاسلامية القوية الوحيدة التي بقيت في وجه أوربة ودخلت أوربة وحاصرت فيينا في قلبها كانت الدولة العثمانية لكن كل دول أوربة تحالف ضدها . حين احتل العثمانيون القسطنطينية كان لوقع الخبر في الغرب وقع المأتم رغم أنها كانت على المذهب الارثوذكسي ،ولكنها كانت مركز توزيع تجارة الشرق على الغرب وبوابة الغرب على الشرق. ثم تكالبت القوى الاوربية على العثمانيين ترهقهم عنتا وحروبا حتى انهكتهم وصارت الدولة العثمانية هي الرجل المريض الذي يختلفون على قسمته ولكن لا يختلفون على حربه والمزيد من اضعافه .

قد تقولون: جاء القرن العشرون ولما نصل بعد الى التاريخ الثالث الفاجع في التواريخ الثلاثة بلى :وصلنا... جاء هذا القرن فاذا بالمغرب العربي كله مكبل بالاحتلال المربع الاسباني ،الفرنسي ، الانكليزي

الايطالي . واذا على بوابة هذا القرن وعد بلفور وسايكس بيكو وما لحقهما من الاحتلال الانكليزي الفرنسي للمشرق. ثم كانت حرب (١٩٤٨) وما لحقها من تقسيم فلسطين واقامة مركز صليبي غربي فيها، هو اسرائيل التي أيد قيامها الشرق والغرب على السواء.. وماتبعها من احتلال الجولان السوري وفلسطين كلها وسيناء مصر. ثم كانت حرب ١٩٧٣ وماكان في كامب ديفيد بعدها. وأخيرا كانت الكارثة الصليبية العظمى: حرب الخليج هذه السنة ١٩٩١ وصل العرب بحماقة بعضهم قاع المهانة تمزقا وافلاسا ونكبة ثروات .. فهل كانت هذه الاحداث مجرد مصادفات ؟ وهنا أوثر الصمت فانكم تعيشون الكارثة في أعصابكم كالكابوس الرهيب! شي واحد أقوله : هو أن العرب هم الامة الوحيدة المنكوبة في هذا القرن...

وبعد هل هو درس في التاريخ هذا الحديث أو من التاريخ ؟. خذوا في الحسبان الحقد الصليبي الاسود وتأملوا جيدا انعكاسات سقوط عكا قبل ٧٠٠ سنة وأسباب سقوط غرناطة قبل ٥٠٠ سنة ،وأسباب نكبة اليوم ١٩٩١ .ومدوا الابصار بعد هذا الى المستقبل حين ينتهي دور اسرائيل الصليبي لدى الغرب ... وانتم تعرفون ! ؟

الدكتور شاكر مصطفى

١٩٩٢/٥/٣٠٠٠